طبعة ثانية

غوستاف لوبون

الآراء والمعتقدات

نشوؤها وتطورها

ترجمة: نبيل أبو صعب





الآراء والمعتقدات

نشوؤها وتطورها

عنـــوان الكتـــاب : الآراء والمعتقدات (نشوؤها وتطورها)

Gustave Le Bon (1911)
Les opinions et les croyances
Genèse، Évolution

اســـم المؤلـــف : غوستاف لوبون

ترجمـــــــــــة : نبيل أبو صعب

الـنـاشـــــــــر : دار الفـرقـد

الطبعـــة الأولـــى : 2014م

الطبعـــة الثـانيـة : 2016م

التنفيـذ والإشـراف : دار الفرقد

التـدقيق اللغـوي : حسام بركات

الإخـــراج الفـنـي : وفاء الساطي

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق

هاتف : 6660915 - (00963-11) 6618303

ص . ب : 34312 فاكس : (00963-11) 6660915

البريـــــد الإلكترونــــي : alfarqad70@ Gmail.com / hotmail.com

الموقـع علـى شـبكة الإنترنـت : http://www.alfarqad.com

غوستاف لوبون

الآراء والمعتقدات

نشوؤها وتطورها

ترجمة: نبيل أبو صعب

العنوان الأصلي للكتاب

Gustave Le Bon (1911)

Les opinions et les croyances

Genèse، Évolution

الفهرس

الكتاب الثالث

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الكتاب التاسع:

الفصل الأول:

الفصل الثالث:

طرائق البحث المناسبة للدراسة التجريبية

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

إليها..

سوريتي

حاضرا

ومستقبلا....

المترجم

إهداء المؤلف

إلى الصديق العزيز

غابرييل آنوتو
وزير الخارجية السابق
عضو الأكاديمية الفرنسية

المؤرخ البارز الذي يعرف بفطنته الثاقبة
كيف يكشف تحت حبكة الأحداث المرئية
القوى اللامرئية التي تحدثها.

غوستاف لوبون

الكتاب الأول

مسائل الاعتقاد والمعرفة

الفصل الأول: دائرة الاعتقاد ودائرة المعرفة

الفصل الثاني: طرائق دراسة علم النفس

الفصل الأول

دائرة الإيمان و دائرة المعرفة

1 ـ صعوبات مسألة الإيمان

مسألة الإيمان التي تُخلط أحيانا بمسألة المعرفة تظل مع ذلك مختلفة جدا عنها. فالمعرفة والإيمان شيئان مختلفان، إذ ليس لهما المنشأ ذاته.

ينتج عن الآراء والمعتقدات، بالإضافة إلى مفهوم الحياة، سلوكنا، وبالتالي غالبية حوادث التاريخ. إنها ككل الظواهر محكومة ببعض القوانين، لكن هذه القوانين لم تُحدد بعد.

لقد بدا ميدان الإيمان مسكونا دائما بالألغاز. لهذا فإن الكتب المتعلقة بأصل الإيمان قليلة جدا في حين أن الكتب المتعلقة بالمعرفة لا تحصى.

مع ذلك فإن المحاولات النادرة المبذولة من أجل توضيح مسألة الإيمان تكفي لتظهر كم كانت غير مفهومة كفاية. فقد كرر الكتاب المقتنعون برأي ديكارت بأن الإيمان هو عقلاني وإرادي. إن إحدى غايات هذا الكتاب ستكون تحديدا إظهار بأنه ليس إراديا ولا عقلانيا.

إن صعوبة مسألة الإيمان لم تكن لتفوت باسكال العظيم. ففي فصل حول فن الإقناع، لاحظ مصيبا أن الناس " مدفوعون بصورة دائمة تقريبا للإيمان ليس عبر البرهان وإنما عبر القبول. " ويضيف: " لكن طريقة القبول التي لا نظير لها هي الأشد صعوبة، والأكثر دقة، والأكثر إثارة للإعجاب:ولهذا، إذا لم أعالج هذا الأمر، فذلك لأني لست قادرا عليه ؛وأشعر بأني على درجة كبيرة من عدم الانسجام معه بحيث أعتقد أنه أمر مستحيل على الإطلاق."

وقد بدا من الممكن لنا، بفضل اكتشافات العلم الحديث، مقاربة المسألة التي تراجع باسكال أمامها.

وسوف يقدم حلّها مفتاح الكثير من الأسئلة الهامة. كيف على سبيل المثال، تُبنى الآراء والمعتقدات الدينية أو السياسية، لماذا نصادف عند بعض المفكرين ذكاء حادا جدا متزامنا مع خرافات ساذجة جدا؟ ودون نظرية لعقل عاجزٍ جدا عن تغيير قناعاتنا العاطفية؟ ودون نظرية في الإيمان فإن هذه الأسئلة والكثير غيرها ستظل غير قابلة للحل. فالعقل وحده لن يكفي لتفسيرها.

وإذا ما كانت مسألة الإيمان قد فُهمت فهما مغلوطا جدا من قبل علماء النفس والمؤرخين، فذلك لأنهم حاولوا أن يفسروا بواسطة وسائل المنطق العقلاني ظواهر لم يقم هو بإدارتها إطلاقا. وسوف نرى أن كل عناصر الإيمان تخضع لقواعد منطقية، مؤكدة جدا، لكنها غريبة على الإطلاق عن القواعد التي يستخدمها العالم في أبحاثه.

منذ دراساتي التاريخية الأولى، كانت هذه المسألة قد لازمتني. فقد بدا الإيمان لي العامل الرئيس في التاريخ، لكن كيف تُفسر حوادث غاية في الغرابة مثل تأسيس المعتقدات التي أدت إلى خلق حضارات قوية أو إلى سقوطها؟

قبائل بدو، ضائعة في عمق الجزيرة العربية، تعتنق دينا علمهم إياه رجل مُلهم، وبفضل هذا الدين يؤسسون في أقل من خمسين عاما إمبراطورية واسعة الأرجاء بقدر اتساع إمبراطورية الإسكندر، يشهد عليها ازدهار عظيم لأوابد رائعة.

قبل ذلك بقرون قليلة، تتحول شعوب شبه همجية إلى دين بشر به رسل قادمون من مكان ما من الجليل وبفعل أنوار التجديد لهذا الإيمان، انهار العالم القديم ليفسح في المكان لحضارة جديدة تماما، ظل كل عنصر من عناصرها مشبعا بذكر الله الذي أبدعها.

بعد ذلك بعشرين قرنا تقريبا، انهار الإيمان، وسطعت نجوم جديدة في سماء الفكر. وانتفض شعب عظيم طامحا لتحطيم أغلال الماضي. إيمانه المدمر، لكن القوي، منحه على الرغم من الفوضى التي أغرقته فيها هذه الثورة الكبرى، القوة الضرورية ليسيطر على أوروبة بالسلاح وأن يجتاح منتصرا كل العواصم.

كيف نفسر هذه السلطة الغريبة للمعتقدات؟ ولماذا يخضع الإنسان فجأة لدين كان يجهله في الأمس، ولماذا يرفعه اعجازياً إلى مرتبة أعلى منه هو بالذات؟ من أية عناصر نفسية تنبثق هذه الأسرار الخفية؟ سنحاول أن نكشف ذلك.

إن مسألة بناء ونشر الآراء وعلى الأخص المعتقدات، لها جوانب رائعة لدرجة أن المتشيعين لكل دين يلتمسون في نشأته وانتشاره برهانا إلهي الأصل. ويشيرون أيضا إلى أن هذه المعتقدات قد تمَّ تبنيها رغما عن المصلحة الشديدة الوضوح لأولئك الذين قبلوا بها. إننا نفهم بسهولة، على سبيل المثال، انتشار المسيحية بسهولة بين العبيد وكل المحرومين الذين وعدتهم بسعادة أبدية. لكن أية قوى سرية استطاعت إقناع فارس روماني، وشخصية قنصلية بالتخلي عن أملاكهما وبالمجازفة بالتعرض لتعذيب مهين، لكي يعتنقا دينا جديدا ترفضه العادات ويزدريه العقل وتمنعه القوانين؟

ويستحيل أن نحتج بالضعف العقلي عند الرجال الذين خضعوا بمحض إرادتهم لمثل هذا النير لأنه منذ أقدم العصور حتى أيامنا الراهنة، تُلاحظ هذه الظواهر ذاتها عند المفكرين الأعلى ثقافة.

إن نظرية حول الاعتقاد لا يمكن أن تكون صالحة إلا إذا حملت تفسيرا لكل هذه الأشياء. وينبغي على وجه الخصوص أن تجعلنا نفهم كيف أن علماء مرموقين ومشهورين بحسهم النقدي يقبلون أساطير تثير الضحك سذاجتها الصبيانية. إننا نتفهم بسهولة أن أشخاصا مثل نيوتن، أو باسكال، أو ديكارت، الذين عاشوا في جو مشبع ببعض القناعات الراسخة، أن يتقبلوها دون نقاش، كما كانوا يتقبلون القوانين الحتمية للطبيعة. لكن كيف لم تتفكك، في أيامنا الراهنة، في أوساط حيث العلم ينشر الكثير من النور، هذه المعتقدات ذاتها بالكامل؟ لماذا نراها، عندما تتفكك بالصدفة، تولّد في الحال أوهاما أخرى، شديدة الغرابة

أيضا كما يبرهن على ذلك انتشار نظريات السحر واستحضار الأرواح الخ... بين علماء مرموقين؟ على كل هذه الأسئلة ينبغي أن نجيب أيضا.

2 ـ بماذا يختلف الاعتقاد عن المعرفة

لنحاول بداية تحديد ما الذي يكوّن الاعتقاد، وبماذا يختلف الاعتقاد عن المعرفة.

اعتقاد ما هو فعل إيماني من منشأ لاواعي يجبرنا على قبول فكرة أو رأي أو تفسير أو نظرية كما هي. إن العقل غريب كما سوف نرى، عن تكوّن هذا الاعتقاد. وحينما يحاول تبريره، فإن هذا الاعتقاد يكون قد تكوّن وانتهى.

كل ما يُقبل بفعل إيماني بحت ينبغي اعتباره اعتقادا. وإذا جرى لاحقا التثبت من صوابية الاعتقاد عبر الملاحظة والتجربة فإنه يكفُّ عن كونه اعتقادا ويصبح معرفة.

الاعتقاد والمعرفة يؤسسان طريقتي نشاط ذهني متمايزتين بقوة ومن منشئين مختلفين جدا. الأولى حدس لاواعي تولدّه بعض الأسباب المستقلة عن إرادتنا، الثانية تمثل تحصيلا واعيا تبنيه طرائق عقلية، مثل التجربة والملاحظة.

وليس إلا في زمن راق من تاريخها اكتشفت البشرية، الغارقة في عالم الإيمان، عالم المعرفة. وبدخولها فيه عرفت أن كل الظواهر المنسوبة سابقا لإرادات كائنات أعلى إنما كانت تحدث تحت تأثير قوانين صارمة.

وعبر الفعل وحده كان الإنسان يقارب دائرة المعرفة، فتغيرت كل مفاهيمه حول الكون.

لكن في هذا المجال الجديد لم يكن ممكنا بَعدُ الغوص عميقا. فقد تأكد العلم كل يوم أن اكتشافاته تظل مشبعة بالمجهول. والوقائع الأكثر دقة تكتسي بالألغاز. واللغز هو الروح المجهولة للأشياء.

بمثل تلك الزوايا المعتمة ظل العلم طافحا، وخلف الآفاق التي بلغها، ظهرت آفاق أخرى ضائعة في لانهاية لا تنفك تتراجع دائما.

هذا الميدان الفسيح الذي لم تستطع أية فلسفة توضيحه بعد، هو مملكة الأحلام. كانت الأحلام مثقلة بالآمال التي لن يكون بوسع أية محاكمة عقلية تدميرها. وقد وجدت فيها المعتقدات الدينية، والمعتقدات السياسية والمعتقدات من كل صنف قوة لا حدود لها. والأشباح المرهوبة التي تسكنها كان الإيمان مَن خلقها.

المعرفة والاعتقاد سيظلان دائما أمرين متباينين. ففي حين يقتضي تحصيل أقل حقيقة علمية جهدا ضخما، فإن امتلاك ثقة ما لا سند لها إلا الإيمان لا يتطلب أي جهد. جميع الناس يمتلكون اعتقادات، لكنْ قليلون جدا من يرتقون إلى المعرفة.

عالم الاعتقاد يمتلك منطقه وقوانينه. وقد حاول العالِم أن يدخله بطرائقه لكن دون جدوى، وسوف نرى في هذا الكتاب لماذا يفقد كل حس نقدي عندما يدخل إلى دائرة الإيمان ولا يجد فيها إلا الأوهام الأشد إثارة للإحباط.

3ـ الأدوار المتبادلة للإيمان وللمعرفة

تشكل المعرفة عنصرا أساسيا في الحضارة، والفاعل الكبير لنجاحاتها المادية. في حين يقود الإيمان الأفكارَ، والآراءَ وبالتالي السلوك.

الافتراض مسبقا بأن المعتقدات ذات منشأ إلهي جعلها تُقبل دون نقاش. بينما بتنا نعرف اليوم أنها تصدر عنّا نحن ومع ذلك فإنها لا تزال تفرض نفسها. فالمحاكمة العقلية لا تؤثر فيها عادة كما تؤثر على الجوع أو العطش. إن الإيمان وقد أُعُد في مناطق الوعي الباطني التي لا يسع الذكاء بلوغها يُعاش ولا يُناقش.

هذا المنشأ غير الواعي وبالتالي غير الإرادي للمعتقدات يجعلها قوية جدا. وقد لعبت دائما سواء منها الدينية أم السياسية أم الاجتماعية دورا مرجحا في التاريخ.

وبعد أن أصبحت عامة، أخذت تشكل أقطابا جاذبة يدور وجود الشعوب حولها، وتطبع بطابعها عندئذ عناصر حضارة كاملة. ونصف هذه الحضارة صراحة بتسميتها باسم المعتقد الذي أوحى بها. فالتسميات، حضارة بوذية، حضارة إسلامية، حضارة مسيحية، هي تسميات منصفة جدا.

والحال فإن الإيمان وقد تحوَّل إلى مركز جذب يصبح أيضا مركزا للتشويه:ذلك أن مختلف عناصر الحياة الاجتماعية من فلسفة، وفنون وآداب ستتحول لتتكيف معه.

إن الثورات الوحيدة الحقيقية هي الثورات التي تجدد المعتقدات الأساسية لشعب من الشعوب. وقد كانت هذه الثورات نادرة جداً دائماً، عادة اسم القناعات، وحده، هو ما يتغير. الإيمان يغير موضوعه لكنه لا يموت مطلقا.

لا يسعه أن يموت، لأن الحاجة للاعتقاد تشكل عنصرا نفسيا لا يمكن قهره تماما مثل اللذة أو الألم. فالنفس البشرية ترتعب من حالة الشك وعدم اليقين. إن الإنسان يجتاز أحيانا أطوارا من الريبية ولكنه لا يقيم فيها مطلقا. إنه بحاجة لأن تقوده عقيدة ما **credo** دينية، أو سياسية أو أخلاقية وأن تحكمه وتجنّبه جهد التفكير. تُستبَدل التعاليم **dogmes** المُدَمَرة دائما. بيد أن العقل ليس له على هذه الضرورات الأبدية أية سلطة.

يحتوي العصر الحديث على القدر نفسه من الإيمان الذي احتوته العصور التي سبقته. وفي المعابد الجديدة يُوعَظ بتعاليم استبدادية تضاهي استبدادية تعاليم الماضي ولها الكثير جدا من الأتباع. فالعقائد الدينية القديمة **credo** التي كانت تستعبد الجمهور في السابق جرى استبدالها بعقائد اشتراكية أو فوضوية متسلطة جدا ومنافية للعقل، لكنها ليست أقل تحكما بالنفوس. وغالبا ما حلَّ الملهى محل الكنيسة، لكن عظات القادة الروحيين التي تُسمع فيها باتت موضوع الإيمان ذاته.

وإذا لم تتطور ذهنية المؤمنين كثيرا منذ الأزمنة البعيدة حيث على ضفتي النيل كانت إيزيس وحاتور يجذبان إلى معابدهما آلاف الحجاج المتحمسين، فذلك لأنه على مرِّ العصور تحافظ المشاعر، وهي الدعائم الحقيقية للنفس، على ثباتها. فالعقل يتطور لكن المشاعر لا تتبدل بتاتا.

لا ريب أن الإيمان بعقيدة أيٍّ تكن ليس إلا وهما بصورة عامة. ومع ذلك فلا ينبغي الحطُّ من شأنه. إذ بفضل قوته السحرية، يصبح

اللاواقعي أشد قوة من الواقعي. فالإيمان المُسلمٌ به يمنح الشعب وحدة فكرية تولّد وحدته وقوته.

ولأن ميدان المعرفة مختلف جدا عن ميدان الإيمان فإن محاولة معارضة أحدهما بالآخر ستكون عملا لا جدوى منه على الرغم من أنها محاولة تُجرَّب يومياً.

إن العلم وقد تحرر أكثر فأكثر من الإيمان يظل مع ذلك مشبعا به تماما. وهو خاضع له في كل المواضيع التي لم تُعرف جيدا. ألغاز الحياة أو أصل الأنواع على سبيل المثال. فالنظريات التي يتم القبول بها هنا لا تعدو أن تكون مقولات دينية بسيطة لا تستند إلا إلى سلطة المعلمين الذين صاغوها.

إن القوانين الناظمة لعلم نفس الإيمان لا تنطبق فقط على المعتقدات الأساسية الكبرى التي تركت أثرا لا يمحى على حبكة التاريخ، بل إنها قابلة للتطبيق أيضا على معظم آرائنا اليومية حول البشر والأشياء الذين يحيطون بنا.

وتدلّ الملاحظة بسهولة على أن غالبية هذه الآراء لا تستند إلى عناصر عقلية، وإنما إلى عناصر عاطفية أو غامضة ومن منشأ لاواعي عموما. وإذا رأيناها تُناقش بالكثير من الحمية، فذلك بالضبط لأنها تنتمي لميدان الإيمان ومتكونة بالطريقة ذاتها. إن الآراء تمثل عموما اعتقادات صغيرة عابرة نوعا ما.

سيكون من الخطأ إذن أن نعتقد أننا سنخرج من حقل الإيمان إذا ما تخلينا عن بعض قناعات الأسلاف. وسوف تتاح لنا فرصة أن نبين أن المرء في غالب الأحيان يغرق فيها أكثر فأكثر.

وبما أن المسائل التي يثيرها تكون الآراء من ذات مرتبة الآراء المتعلقة بالإيمان فإنه ينبغي أن تُدرس بالطريقة ذاتها. وغالبا ما تختلف المعتقدات والآراء في تأثيراتها، لكنها تنتمي مع ذلك إلى العائلة ذاتها. في حين أن المعرفة تشكل جزءا من عالم مختلف تماما.

بتنا ندرك ضخامة وصعوبة المسائل المُقاربة في هذا الكتاب. وقد حلمت بها لسنوات عديدة تحت سماوات مختلفة. حينا عند تأملي تلك الآلاف من التماثيل المنصوبة منذ ثمانين قرنا لتمجيد كل الأرباب التي جسَّدت أحلامنا. وحينا عندما أكون تائها عند الأعمدة العملاقة لمعابد ذات هندسات غريبة، تنعكس صورها في المياه المهيبة للنيل أو مبنية على الضفاف المضطربة لنهر الغانج. كيف تُعجب بهذه الروائع دون التفكير بالقوى السرية التي جعلتها تنبثق من عدم حيث ما من فكرة عقلانية كان بمقدورها أن تجعلها تتفتح.

ولأن مصادفات الحياة قد قادتني للغوص في فروع شديدة التنوع من العلم النظري ومن علم النفس والتاريخ، فقد استطعت دراسة الطرائق العلمية التي تولّد المعرفة والعوامل النفسية المولّدة للمعتقدات. المعرفة والإيمان هما حضارتنا كلها وتاريخنا كله.

الفصل الثاني

طرائق دراسة علم النفس

طريقة الاستبطان – طريقة علم النفس الفيزيولوجي – طريقة تحديد المراكز المخية – طريقة الاختبارات والاستبيانات – الطريقة القائمة على دراسة الاستحالة ذات المنشأ المرضي – الطريقة القائمة على علم النفس المقارن – الطريقة المعتمدة في هذا الكتاب لدراسة الآراء والمعتقدات.

لجأ علم النفس تدريجيا، بهدف بناء نفسه، إلى عدة طرائق. ولن يكون علينا أن نستخدمها في دراستنا للآراء والمعتقدات. وتلخيصها البسيط سيظهر أنها لم تستطع تقديم إلا النزر اليسير من عناصر المعرفة لأبحاثنا.

طريقة الاستبطان – أقدم طريقة بسيكولوجية، والوحيدة التي مورست خلال زمن طويل، كانت الطريقة المدعوة بالاستبطان. فقد كان المفكر وقد سجن نفسه في مكتبه جاهلا بملء إرادته العالم الخارجي، يفكر حول نفسه ومن النتائج وتأملاته كان يصنع كتبا ضخمة. وهذه لم تعد تجد اليوم من يقراها.

وقد شهد القرن الماضي ولادة طرائق أكثر علمية دون شك، لكنها لم تكن أكثر خصوبة. وهذا تعداد لها.

طريقة علم النفس الفيزيائي – في بداياتها، بدت هذه الطريقة التي كانت تُدخل قياسات فيزيائية في علم النفس مبشرة بمستقبل كبير، لكن سرعان ما كشفت عن محدودية ميدانها. فهذه القياسات لم تكن تتعلق إلا بظواهر أولية: سرعة العامل العصبي، الوقت الضروري للحركات الانعكاسية، العلاقة اللوغاريتمية بين الإثارة والإحساس. الخ.. كان الأمر يتعلق في الحقيقة بعمليات فيزيولوجية لا يستطيع علم النفس أن يكسب منها إلا قسطا ضئيلا جدا.

طريقة التحديدات الدماغية – كانت تتركز في بحث تبدل الوظائف النفسية المطابقة لبعض الآفات العصبية المُثارة اصطناعيا. وقد حُسب أنه يمكن على هذا النحو إنشاء طائفة من التحديدات. وقد أُهملت تقريبا كلها اليوم، وحتى تلك التي بدت في البداية الأكثر دقة، مثل مراكز الكلام والكتابة.

طريقة الروائز والاستبيانات – لاقت هذه الطريقة النجاح لزمن طويل، ولا تزال المخابر المدعوة بمخابر علم النفس مليئة حتى الآن بالأدوات المخصصة لقياس كل العمليات التي يفترض أن لها علاقة بالذكاء. وحتى أنه طُبعت كمية من الاستبيانات التي رغب بالفعل عدد من الأشخاص المرموقين في ملئها. وقد تكفي استمارة هنري بوانكاريه التي نشرها أحد معتنقي هذه الطريقة الأخيرين، لتبين ضآلة المساهمة التي يمكن لعلم النفس الحصول عليها من هذه الطريقة التي باتت مهجورة تماما في الوقت الحالي.

الطريقة القائمة على دراسة اعتلالات الذكاء المرضية – هذه الطريقة، وهي الأخيرة، هي بالتأكيد التي وفّرت الكثير من الوثائق حول النشاط النفسي اللاواعي، والتصوف، والتقليد، وانحلال الشخصية، الخ.. على الرغم من كونها مقيدة جدا فقد كانت مثمرة.

ومع أن علم النفس المرضي كان جديدا في تطبيقه فإنه لم يظل مجهولا من قبل بعض كبار المسرحيين مثل شكسبير. فقد قادتهم قوة ملاحظتهم العبقرية إلى اكتشاف الظواهر التي لم ينجح العلم في اكتشافها إلا في وقت لاحق. فالليدي ماكبث كانت مهلّسة، وعطيل كان هستيري – صَرَعي، وهاملت مدمن كحولي مسكون برهابات عديدة، الملك لير منحصر سوداوي، ضحية جنون متناوب. وينبغي الاعتراف من جهة أخرى أنه لو كانت كل هذه الشخصيات المرموقة شخصيات طبيعية بدل أن تكون ذوات نفسيات معتلة وغير مستقرة، فإن الأدب والفن لم يكونا ليهتمّا بها.

الطريقة القائمة على علم النفس المقارن – طريقة حديثة جدا أيضا، هذه الطريقة اقتصرت حتى الآن على دراسة الغرائز وبعض ردود الفعل الأولية الموصوفة بالمتنحية. ولابدَّ أن تشكل كما يبدو مع ذلك واحدة من الطرائق المستقبلية.

من أجل فهم الظواهر النفسية للكائنات الراقية ينبغي بداية دراسة الظواهر النفسية للكائنات الدنيا. هذه البداهة لم تتضح حتى الآن مع ذلك لعلماء النفس الذين يدعّون إقامة تمييز لا يمكن تجاوزه بين عقل الإنسان وعقل الكائنات التي تقع في مرتبة أدنى منه. إن الطبيعة لا تعرف مثل هذا الانقطاع وقد تجاوزنا العصر الذي كان فيه ديكارت يعتبر الحيوانات محض كائنات مسيّرة.

فضلا عن ذلك فإن هذه الدراسة محفوفة بالصعاب. فنحن نشهد أكثر فأكثر كل يوم أن ملكات الحيوانات وبالتالي إحساساتها تختلف عن ملكاتنا وإحساساتنا. فالعناصر التي توحدها، والطريقة التي تتوحد فيها ينبغي أيضا أن تكون متميزة دون شك.

إن علم نفس الحيوانات حتى العليا منها، ما يزال في بداياته. ولكي نفهمها ينبغي أن ننظر إليها عن قرب شديد وهذا يتطلب جهدا لا يريد أحد القيام به.

ربما سنتعلم سريعا كيف نتوقع تصرفاتها وذلك من خلال الدرس الدقيق. فقد سبق لي أن كرست سنوات طويلة لمراقبتها. وقد عرضت النتائج في مذكرة حول علم نفس الحصان، نُشرت في المجلة الفلسفية..وقد استنتجت فيها قواعد جديدة من أجل ترويضه. وقد كانت هذه الأبحاث مفيدة جدا لي من أجل تأليف كتابي حول علم نفس التربية.

الطريقة المعتمدة في هذا الكتاب من أجل دراسة الآراء والمعتقدات – يسمح التعداد السابق بحدس أن أيا من طرائق علم النفس التقليدية، لا الاستقصاءات، ولا علم النفس الفيزيولوجي، و لا التحديدات، ولا حتى علم النفس المرضي لا يمكنها أن تخبرنا أي شيء عن تكون وتطور الآراء والمعتقدات، ينبغي إذن اللجوء إلى طرائق أخرى.

بعد أن درسنا الأرضية القابلة لتلقي المعتقدات، الذكاء، العواطف، اللاوعي الخ.... حللنا مختلف المعتقدات الدينية

والسياسية والأخلاقية الخ.. وتفحصنا دور كل عنصر من عناصرها المحددة. فالتاريخ بالنسبة للماضي، ووقائع كل يوم بالنسبة للحاضر، يوفران عناصر هذه الدراسة.

بيد أن مجموع المعتقدات الكبرى تنتمي إلى الماضي. والشيء الأكثر إثارة للدهشة في تاريخها، يتمثل في اللامعقولية الواضحة للتعاليم من وجهة نظر العقل المحض. وسوف نفسر سبب تبنيها موضحين أنه في مجال الاعتقاد، فإن الإنسان الأكثر تنورا، العالم الأفضل تآلفا مع الطرق المخبرية الصارمة، يفقد كل حسٍّ نقدي ويقبل دون صعوبة المعجزات العجيبة. وحول هذه النقطة سوف تقدم دراسة ظواهر السحر والتنجيم براهين قاطعة. وسوف نرى علماء فيزياء مرموقين يدّعون قيامهم باستخراج أحياء من أحياء وأنهم عاشوا مع أشباح متجسدة، ويستحضر مدرس فيزيولوجياً مشهور الأموات ويتعامل معهم، ويؤكد آخر ليس أقل شهرة أنه رأى محاربا معتمرا خوذة يخرج من جسد فتاة شابة بأعضائه الكاملة كما دلت على ذلك حالة تحركه وتفحص نتائج تنفسه. كل هذه الظواهر وغيرها من المستوى ذاته ستثبت لنا أن العقل كان عاجزا أمام الاعتقادات الأشدِّ خطراً. لكن لماذا يظهر العالم الذي يدخل إلى ميدان الاعتقاد و أيا تكن ثقافته في سرعة التصديق اللامحدودة هذه؟

من أجل كشف ذلك، توجهنا للتوسع في المسألة والبحث في أصل أفعال مختلف الكائنات الحية، من الحيوان الأدنى إلى الإنسان.

وقد تبين لنا بوضوح عندها أن التفسيرات التقليدية لم تكن على هذا القدر من عدم الكفاية والبطلان إلا بسبب إصرار المؤلفين على تطبيق طرائق المنطق العقلي على ظواهر لا يحكمها. ففي العمليات المعقدة للحياة، كما في الانعكاسات اللاواعية، المصدر الحقيقي لنشاطاتنا، تظهر ارتباطات خاصة غير خاضعة للعقل والتي لن تستطيع تحديدها بعض الكلمات الشديدة الغموض مثل كلمة الغريزة.

وبمتابعة التعمق في هذه المسائل، توصلنا إلى التعرف إلى أشكال مختلفة من المنطق، أدنى أو أسمى، ، بحسب الحالة، من المنطق العقلي، لكنها مختلفة عنه دائما.

وعلى هذا النحو أضفنا إلى المنطق العقلي، المعروف منذ الأزل وإلى المنطق العاطفي، الذي يُدرس منذ عدة سنوات، عدة أشكال جديدة من المنطق والتي يمكنها أن تتطابق أو أن تتنازع وأن تعطي لذهنيتنا دوافع مختلفة. فالدافع الذي ينظم ميدان المعرفة ليس له أية صلة بالدافع الذي يولّد المعتقدات. لذلك فإن العالِم الأكثر تنورا سيسعه إظهار آراء متناقضة، عقلانية أو غير عقلانية، حسبما سيكون في دائرة المعرفة أو في دائرة الإيمان.

لن يكون من الممكن أن نطلب من علم النفس التقليدي بعض التفسيرات حول كل هذه المسائل. وقد خلص أشهر علماء النفس المعاصرين، وخاصة وليام جيمس، إلى إثبات: " هشاشة العلم الذي يرشح النقد الميتافيزيقي من كل مفاصله "... ويضيف: "وما زال علينا أن ننتظر الشعاع الأول الذي ينبغي أن يخترق ظلمة الحقائق

النفسية الأساسية ". لن نتفق كلية مع المفكر المرموق بأن كتب علم النفس تحتوي فقط على: " سلسلة من الوقائع التي جرت ملاحظتها على التقريب، ومناقشات حامية وفارغة للنظريات"، لكن يجب بالتأكيد الاعتراف متبعين خطاه بأن علم النفس التقليدي لا يحتوي على " قانون واحد ولا على صيغة واحدة يمكننا أن نستخلص منها أية نتيجة، كما نستخلص النتيجة من السبب ".

إذن على أرض مثقلة جدا في الظاهر، وبكر جدا في الحقيقة سوف نحاول أن نبني نظرية حول تشكل الآراء والمعتقدات وتطورها.

الكتاب الثاني

الأرضية النفسية للآراء والمعتقدات

الفصل الأول: دوافع النشاط البشري الكبرى.. اللذة والألم

الفصل الثاني: تغيرات الحساسية باعتبارها عناصر الحياة الفردية والاجتماعية

الفصل الثالث: دوائر النشاطات الحيوية والنفسية. الحياة الواعية والحياة اللاواعية

الفصل الرابع: الذات العاطفية والذات العقلية

الفصل الخامس: عناصر الشخصية. تراكيب العواطف المكونة للطبع

الفصل الأول

دوافع النشاط البشري الكبرى
اللذة والألم

1 ـ دور اللذة والألم

اللذة والألم هما كلام الحياة العضوية والعاطفية، والتعبير عن توازنات الجسم المشبعة أو المضطربة. وهما يمثلان الوسائل التي تستخدمها الطبيعة لإجبار الكائنات على القيام ببعض الأعمال التي يستحيل بدونها الحفاظ على الوجود.

اللذة والألم هما إذن المؤشران على حالة عاطفية أسبق. إنهما النتائج، كما تكون الأعراض المرضية نتيجة مرض ما.

إن حاسة الشعور باللذة وبالألم تشكل الحساسية. وتخضع حياة الكائن العاطفية والنفسية بأكملها لهذه الحساسية. إن كلام الأجهزة العضوية، المُترجم باللذة وبالألم هو كلام حاسم نوعا ما، تبعا للضرورات التي ينبغي إشباعها ومنها مثل الجوع ما لا يقبل الانتظار.

إن الجوع هو الألم الأكثر رهبة ؛ أما الحب فهو الأكثر طلباً. ويمكننا أن نردد مع الشاعر الكبير شيللر، أن آلة العالم تتقوى بالجوع وبالحب.

التنويعات الأخرى من اللذة ومن الألم ما هي إلا دوافع أقل قوة لأنها أقل شدة. وقد كان شوبنهور مخطئاً عندما أكد: " أن بوسع المرء أن يحصر كل المبادئ التي تحرك الإنسان في ثلاثة هي: الأنانية والشر والشفقة ".

وفي السنوات الأخيرة أكد بعض الفلاسفة، وعلى الأخص وليام جيمس، على دور اللذة والألم بوصفهما دوافع لفعاليتنا. " فهما لا يتدخلان إطلاقا، على سبيل المثال، كما يقول، في مظاهر انفعالاتنا. فمن منا الذي يعقد حاجبيه لمتعة عقد الحاجبين؟ كما أننا لا نتنفس إطلاقا من أجل متعة التنفس. "

هذه البرهنة ليست محضوضة. فمن المؤكد أن المرء لا يتنفس من أجل اللذة، وإنما لأن الألم الذي يسببه الانقطاع عن التنفس يجبره حتما على القيام بهذا العمل. كما أن المرء لا يعقد حاجبيه من أجل اللذة، وإنما نتيجة لانزعاج ما اتخذ شكلا من الألم.

2 ـ صفات اللذة والألم المتقطعة

اللذة والألم لا يعرفان الاستمرار. فمن طبيعتهما أن ينفدا بسرعة وبالتالي أن لا يوجدا إلا بشرط أن يكونا متقطعين. فلذة ما متواصلة تكف بسرعة عن أن تكون لذة وألم ما مستمر يخفّ بسرعة. وحتى يمكن لتقلصه أن يصبح بالمقارنة لذة ما.

اللذة ليست إذن لذة إلا بشرط أن تكون متقطعة. اللذة الوحيدة القابلة للاستمرار تقريبا هي اللذة غير المتحققة، أو الرغبة.

اللذة لا تُعرف أساسا إلا بمقارنتها مع الألم. الكلام عن اللذة الأبدية كلام لا معنى له، كما كان قد لاحظ أفلاطون محقاً. فالآلهة الجاهلون الألم لا يستطيعون حسب رأيه الشعور باللذة.

تقطّع اللذة والألم يمثل نتيجة هذا القانون الفيزيولوجي الذي يعتبر أن التبدل هو شرط الإحساس. فنحن لا ندرك حالات مستمرة، بل فروقا بين حالات متزامنة أو متتابعة. إن تكتكة أصخب ساعة جدارية تنتهي مع الزمن بأن تصبح لا مسموعة والطحان لن يستيقظ بسبب ضجة رحى طاحونته بل بسبب توقفها.

وبفعل هذا التقطع الضروري فإن اللذة المتواصلة سرعان ما لا تعود لذة، وإنما شيء محايد لا يمكنه أن يصبح فعالا إلا بعد فقدانه. وحتى السعادة الفردوسية التي يحلم بها المؤمنون سرعان ما ستفقد جاذبيتها بالنسبة لهم إلا شريطة الانتقال دوريا من الجنة إلى الجحيم.

اللذة نسبية دائما ومرتبطة بالظروف. فألم اليوم يصبح لذة غدا وبالعكس. الألم، بالنسبة لإنسان كان يأكل حتى الشبع، المتمثل بأن يُحكم عليه بأكل فتات الخبز الجاف:هو لذة بالنسبة للشخص ذاته إذا تُرك لعدة أيام دون طعام في جزيرة مهجورة.

تقول الحكمة الشعبية محقة إن كل امرئ يتمتع بلذته حيثما يجدها. فلذة العامل الذي يشرب ويصخب في حانة تختلف كلية عن لذة كلٍ من الفنان، والعالم، والمخترع، والشاعر عندما ينجزون أعمالهم. إن لذة نيوتن عند اكتشافه قوانين الجاذبية كانت دون شك أكثر عمقا مما لو كان قد ورث عدة نساء من نساء الملك سليمان.

إن أهمية دور الحساسية بالنسبة للذة والألم تظهر بجلاء إذا ما حاول المرء تخيل كيف يمكن أن يكون وجود واحدة من الأرواح الطاهرة، بحسب ما يفترضها أتباع الأديان العديدة. فهي قد تظل وقد حُرمت من الحس وبالتالي من الأحاسيس والعواطف، لا مبالية باللذة أو بالألم ولن تعرف أياً من دوافعنا للعمل. ولن يسع الآلام الأشد إثارة للقلق التي يكابدها أحباؤها أن تؤثر فيها. وقد لا تشعر إذن بأية حاجة للتواصل معهم. إن وجود مثل هؤلاء المخلوقات لا يمكن حتى تصوره.

3 ـ الرغبة بوصفها نتيجة للذة وللألم

اللذة والألم يولّدان الرغبة. الرغبة في بلوغ اللذة وفي تجنب الألم. الرغبة هي الدافع الرئيس لإرادتنا، وبالتالي، لأفعالنا. من مجوفات البطن وحتى الإنسان، كل هذه الكائنات تحركها الرغبة.

إن الرغبة تمنح الإرادة، التي لا يمكن أن تقوم دونها، وتخضع لشدتها. فالرغبة الضعيفة تولّد بالطبع إرادة ضعيفة. لا ينبغي مع ذلك الخلط بين الإرادة والرغبة، كما فعل العديد من الفلاسفة مثل كوندياك وشوبنهور. من الواضح أن كل ما هو مُراد هو مرغوب فيه، لكن المرء يرغب في أشياء كثيرة لكنه يعرف عدم استطاعته طلبها. فالإرادة تقتضي التداول، التصميم، والتنفيذ، وهي حالات واعية لا تُلاحظ في الرغبة.

الرغبة تبني مقياس قيمنا، المتغير من جهة أخرى مع الزمن ومع الأعراق. فالمثال الأعلى لكل شعب هو صورة رغبته.

إن الرغبة التي تجتاح كل ذهننا تحوّل مفهومنا للأشياء، وآراءنا ومعتقداتنا. وقد قال سبينوزا مصيباً: إننا نعتبر شيئاً ما صالحا ليس عبر المحاكمة بل لأننا نرغب فيه.

ولأن قيمة الأشياء لا توجد بحد ذاتها، فإنها تُحدَدَ بالرغبة وحدها وبصورة متناسبة مع شدة هذه الرغبة. التقييم المتغير للأعمال الفنية يقدم الدليل اليومي على ذلك.

إن الرغبة أمُّ كل جهد، ومعلمةُ الرجال العظمى، ومبدعةُ الآلهة، وخالقةُ كل مثال أعلى، لا تظهر مع ذلك في صفوف آلهة الشعوب القديمة. وحده المصلح العظيم بوذا، فهم أن الرغبة هي المسيطر الحقيقي على الأشياء، ومحرك نشاط الكائنات. وبقصد تحرير الإنسانية من بؤسها وقيادتها إلى الراحة الدائمة، حاول إلغاء هذا الدافع الكبير من أفعالنا. لقد أخضع شرعه ملايين البشر لكنه لم ينتصر على الرغبة. ذلك لأن الإنسان لن يسعه في الواقع العيش دونها. فحتى عالم الأفكار الخالصة الأفلاطوني الذي قدّر امتلاكه الجمال الصافي الذي كان يحلم به، واحتواءه النماذج الخالدة للأشياء: فإنه لن يروقنا في الحقيقة إذا لم تكن الرغبة لتبث الحياة فيه.

4 ـ اللذة المتوقعة. الأمل

الأمل هو إبنُ الرغبة، لكنه ليس الرغبة. إنه يشكل الاستعداد الذهني الذي يجعلنا نؤمن بتحقق رغبة ما. يمكن للمرء أن يرغب في شيء دون أن يأمله. وكل واحد يرغب في الثروة، وقلائل جدا مْن يأملونها. والعلماء يرغبون في اكتشاف العلة الأولى للظواهر، لكن ليس لديهم أي أمل في الوصول إلى ذلك.

تقترب الرغبة أحيانا من الأمل إلى حدٍّ الاختلاط معه. ففي القمار، أرغب في الربح وأمله.

الأمل شكل من اللذة قيد التوقع، والذي يعتبر في طوره الحالي من الانتظار، تعويضا غالبا ما يكون أكبر من التعويض الناتج عن تحققه.

والسبب في ذلك واضح. فاللذة المحققة تكون محددة كميةً واستمرارا، في حين أن لاشيء يحدّ من عظمة الحلم الذي يخلقه الأمل. قوة الأمل وسحره هي في تضمنه لكل احتمالات اللذة.

إن الأمل يُشكل نوعا من عِصِيٍّ سحرية قادرة على تحويل كل شيء. لم يقم المصلحون سوى بإبدال أمل بآخر.

5 ـ منظم اللذة والألم. العادة

العادة هي المنظم الأكبر للحساسية، فهي تولّد استمرارية أفعالنا، تخفف من غلواء اللذة والألم وتجعلنا نتآلف مع مختلف أشكال التعب ومع أشد الجهود قسوة. فالطحان يعتاد جدا وجوده المرهق، لدرجة أن يتحسر عليه حينما يلزمه سن التقاعد بترك عمله.

العادة، منظم الحياة الفردية، هي أيضا السند الحقيقي للحياة الاجتماعية. ويمكن مقارنتها بالجمادية التي تتعارض، في الميكانيك مع تغيرات الحركة. ما هو صعب بالنسبة للشعب يتمثل بداية في أن يخلق لنفسه عادات اجتماعية، ثم في أن لا يتوقف عندها أكثر مما ينبغي. فعندما ينيخ نير العادات لزمن طويل فوق عنقه فلن يستطيع الخلاص منه إلا عبر ثورات عنيفة. فالراحة في التكيف التي تمثلها العادة لا ينبغي أن تطول. فالشعوب الشائخة، والحضارات المتقدمة، والأفراد المسنون يميلون لتحمل نير العرف طويلا، أي نير العادة.

من غير المفيد التكلم مسهباً حول دورها، فقد لفتت كل الفلاسفة وأصبحت عقيدة في الحكمة الشعبية.

وعند الأطفال الطبيعية، يقول باسكال، إن لم تكن مبادئنا المعتادة؟ وعند الأطفال، أولئك الذين تلقوا العرف عن آبائهم... فإن اي عرف مختلف سوف يوّلد مبادئ طبيعية أخرى.

العرف هو طبيعة ثانية تدمر الأولى.

العرف يصوغ براهيننا الأكثر قوة، و الأكثر نضجا؛ إنه يخضع الآلية التي تقود الذهن دون أن يفكر في ذلك... إنه هو من يصنع الكثير من المسيحيين، وهو من يصنع المسلمين، و الكفار، وأصحاب المهن، والجنود، الخ أخيرا ينبغي العودة عنه بمجرد أن رأى الذهن أين تكمن الحقيقة.

.... ينبغي اعتماد ثقة أكثر سهولة، والذي هو ثقة العادة، التي تجعلنا، دون عنف، دون فن، دون محاكمة، نعتقد أشياء، ثم تخضع كل قوانا لهذا الاعتقاد، بحيث أن روحنا توافقه بصورة طبيعية. حين لا يؤمن المرء إلا بقوة الإقناع... فإن هذا لا يعود كافيا".

إن وجود فرد ما أو شعب ما سيصاب بالشلل فورا إذا ما تخلص بفعل قوة خارقة من تأثير العادة. فهي التي تملي علينا كل يوم ما الذي يجب أن نقوله وأن نفعله وأن نفكر فيه.

6 ـ اللذة والألم بوصفهما يقينا نفسيا أساسيا

لقد سعى الفلاسفة لزعزعة يقيننا كله وإظهار أننا لا نعرف عن العالم إلا القشور. لكننا سنمتلك دائما يقينين اثنين كبيرين لن يسع أي شيء أن يدمرهما: اللذة والألم. فكل نشاطنا يتفرع عنهما. المكافآت الاجتماعية، و أشكال النعيم والجحيم التي خلقتها الأنظمة الدينية أو الاجتماعية، تُبنى على فعل هذين اليقينين اللذين لا يمكن إنكار حقيقتهما الواضحة.

منذ أن تبدو مظاهر الحياة، تظهر اللذة والألم. ليس الفكر إنما الحساسية هي التي تكشف لنا الأنا. فلو قال ديكارت: "أنا أحس، إذن أنا موجود" بدلا من: " أنا أفكر، إذن أنا موجود" لكان أقرب إلى الحقيقة أكثر. وكانت عبارته المعدلة على هذا النحو ستنطبق على كل الكائنات الحية وليس فقط على جزء من

البشرية. ومن هذين اليقينين يمكن استخلاص فلسفة عملية كاملة للحياة. فهما يقدمان جوابا أكيداً على السؤال الخالد والمتكرر جدا منذ سفر الجامعة: لماذا كل هذا العمل وكل هذه الجهود، بما أن الموت ينتظرنا، وأن كوكبنا سوف يبرد يوما ما؟

لماذا؟ لأن الحاضر يجهل المستقبل ولأن في الحاضر تُلزمنا الطبيعة بالبحث عن اللذة والهروب من الألم.

العامل المنكبُّ على عمله، وملاك الرحمة (الممرضة) التي لا تنفر من أي جرح، والمبشر الذي يعذبه المتوحشون، ، والعالِم الذي يطارد حلا لمسألة ما، والميكروب الغامض المتحرك في قلب قطرة الماء، جميعهم يخضعون لدوافع النشاط ذاتها: جاذبية اللذة، والخوف من الألم.

أي نشاط كان ليس له من دافع آخر. ولا يسع المرء حتى تصور دوافع مختلفة. أسماؤها فقط يمكنها أن تختلف. اللذة الجمالية، القتالية، الدينية، الجنسية، الخ... ما هي إلا أشكال مختلفة للنابض الفيزيولوجي ذاته. إن نشاط الكائنات سوف يتلاشى إذا ما اختفى هذان اليقينان اللذان هما محركاها الكبيران: اللذة والألم.

الفصل الثاني

تغيرات الحساسية باعتبارها

عناصر الحياة الفردية والجمعية

1 ـ حدود تغيرات الحساسية في اللذة وفي الألم

كان إدخال الكميّ إلى دراسة الظواهر الفيزيائية الخطوة الأولى في تقدمها. طالما لم نكن نمتلك الميزان الحراري لقياس درجة الحرارة، كان يلزم الاكتفاء بالتقديرات الفردية المتغيرة من شخص لآخر.

إن النجاحات المتحققة في ميدان الشأن العقلي لم تكن قد تحققت بعد في ميدان الشأن العاطفي. ونحن نجهل ميزان الحرارة القادر على أن يقيس بدقة تغيرات الحساسية أو عظمة شعور ما.

ويبدو مع ذلك، على الرغم من المظاهر الخارجية، أن حساسيتنا في اللذة وفي الألم لن يسعها التأرجح إلا داخل حدود ضيقة جدا. زد على ذلك أن هذا الزعم ليس مجرد افتراض تنقصه الأدلة. فما يؤيده، عدا عن الملاحظات البسيكولوجية غير المتنازع فيها تقريبا، تجارب علماء الفيزيولوجيا. فقد بيّن هؤلاء أن الأحاسيس لا يمكنها أن تكبر إلى ما لا نهاية وأنها تمتلك حداً

أعلى تبقى زيادة الإثارة بعدها دون تأثير. وهناك أيضا حدٌّ أدنى لا تحصل الإثارة تحته.

في المجال الذي تكون فيه الإثارة مُدرَكة، فإن الإحساس لا يتصاعد بطريقة متناسبة مع شدة الإثارة التي تثيره. لكي يتصاعد الإحساس في متوالية عددية، ينبغي أن تتصاعد الإثارة في متوالية هندسية.

وبحسب فيشنر، يكبر الإحساس تبعا للوغاريتم الإثارة. وهكذا فمن أجل مضاعفة الإحساس الذي تحدثه إثارة ما، ذاك الصادر عن آلة موسيقية مثلا، قد ينبغي مضاعفة عدد الآلات عشر مرات: و من أجل مضاعفة الإحساس ثلاث مرات ينبغي مضاعفة عدد الآلات إلى مئة ضعف.

ليكن لدينا أوركسترا مؤلفة من عشرة عازفين يعزفون جميعهم على الآلة ذاتها. من أجل مضاعفة الشدة الصوتية، ينبغي أن نرفع حتى المائة (رقم لوغاريتمه 2) عدد الآلات. ولكي نثلث الإحساس ذاته، ينبغي أن نرفعه إلى ألف (وهو الرقم الذي لوغاريتمه 3).

هذه المعلومات عند تطبيقها على اللذة والألم تُظهر أن الإثارة ينبغي أن تزداد بصورة كبيرة جدا من أجل رفع أثرها الناتج قليلا.

إن الأرقام السابقة لا يمكن بالطبع أن تكون مطلقة وهي لا تشير إلا إلى الاتجاه العام للظاهرة. ففي شعور ما تتدخل عناصر أكثر تعقيدا مما هو الحال في إحساس ما. إن غايتنا الوحيدة كانت أن نبين محدودية مدى تأرجح حساسيتنا للذة وللألم.

وكيف يمكنها أن تكون خلاف ذلك؟ إن الأجسام تتحمل ببطء كل التكييفات، لكنها غير قادرة على تحمل التغيرات المفاجئة. لذلك فهي تمتلك عناصر ضبط مخصصة لتجنب هذه التغيرات. في الحالة العادية لا تتغير درجة حرارة الجسم إلا ببضعة أعشار الدرجة مهما كانت شدة درجة الحرارة أو البرودة في الخارج. إن تقلبات تبلغ الدرجتين أو الثلاث لا تُلحظ إلا في حالة الأمراض الخطيرة ولا تستمر طويلا على الإطلاق دون أن تؤدي إلى الوفاة. إن كل جسم يتميز بمستوى من التوازن لا يمكنه مطلقا الابتعاد عنه.

وثمة أيضا قانون آخر، قانون عدم – تراكم الأحاسيس، الذي يلعب في حياتنا العاطفية دورا كبيرا على الرغم من نسيانه غالباً.

فنحن نعلم أن بعض الأجسام، مثل لوحة التصوير الحساسة، تتمتع بخاصية مراكمة أضعف الانطباعات المتتالية التي تعتريها. إن انطباعات ضعيفة، لكنها متكررة بشكل كافٍ، تحدث فيها مع الزمن الأثر نفسه الذي يحدثه انطباع قوي، لكنه قصير الأمد. تستطيع اللوحة الحساسة، مع إضاءة مناسبة، إعادة عرض نجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة إطلاقا وذلك بالضبط لأن شبكية العين لا تمتلك خاصية مراكمة الانطباعات الصغيرة.

ما هو صحيح بالنسبة للعين هو صحيح أيضا بالنسبة للأشكال المختلفة من حساسيتنا. التي لا تستطيع بصورة عامة، لكن مع وجود حالات خاصة، مراكمة الانطباعات. فهذه الانطباعات، المبعثرة عبر الزمن، لا تتضايف أبدا.

لنفترض، من أجل تثبيت الأفكار، أن حادث سكة حديدية أدى لمقتل ثلاث مئة شخص. إن حساسيتنا ستتأثر بقوة. وستزخر

أعمدة الصحف بالتفاصيل المرعبة. وسوف يتبادل الحكام برقيات التعزية.

لنتخيل بالعكس من ذلك أن موت هؤلاء الأشخاص الثلاث مئة ناجم عن سلسلة من الحوادث الصغيرة الممتدة على مدى عام. وبما أن حساسيتنا لم تراكم التأثر الخفيف الناجم عن كل حادث، فإن الأثر النهائي سيكون معدوما تقريبا.

إنه لأمر مفرح أن يكون الأمر كذلك. فلو أن الجسم كان مبنيا بحيث يُراكم الآلام الصغيرة فإن الحياة سرعان ما ستصبح غير محتملة.

2 ـ تقلبات الحساسية الفردية ودورها في الحياة الاجتماعية

لقد رأينا سابقا أن التغيرات المحتملة للحساسية لا تمتلك المدى الواسع ولا الاستمرارية الطويلة. بيد أن المراقبة اليومية تظهر أنه ضمن هذه الحدود الضيقة، فإنها تتأرجح بصفة دائمة. فالصحة والمرض والوسط والأحداث الخ... تعدِّلها دون انقطاع. ويمكن مقارنتها ببحيرة يمكن لريح خفيفة أن تخدد سطحها لكن لا أن تثير أمواجا عالية.

هذه التغيرات الدائمة تفسر لماذا تتغير أذواقنا وأفكارنا وآراؤنا مرارا. وهي تغلو أكثر حينما تميل الأعراف والمعتقدات الموروثة التي تحدد تقلبات الحساسية نحو التلاشي. ويصبح عدم الاستقرار عندئذ هو القاعدة.

بعض عوامل الآراء يمكنها أيضا تحديد تقلبات الحساسية، مثل العدوى الذهنية **contagion mental** المبدعة لطرق قادرة على

استقرار حركيتنا قليلاً. فعندما تُثبّت الحساسيات الجماعية، وقتيا، تعبِّر عن نفسها عندئذ في أعمال مختلفة تكون المرآة لعصر ما.

إن الحساسية تنتهي بعد أن هذبتها تماما أنواع من الإثارة المتكررة إلى أن تتعقلن بعض الشيء.. فينجز الذهن ما كان يلزم لتحديده في السابق كومة من التفاصيل. قارنوا على سبيل المثال، الرسوم الكثيفة لدومييه بتلك المخططات البسيطة الحديثة، حيث لا يُحتفظ إلا بالملمح البارز للأشخاص، تاركة للعين مهمة إكمالها. وكذلك في الأدب، فقد حلّت اليوم بضعة أسطر موجزة لكنها موحيّة محل الوصف الطويل للمناظر.

إن الحساسية عندما تتهذب تضعف أيضاً. إن موسيقا لوللي lulli البسيطة التي كانت تخلب ألباب آبائنا صارت تضجرنا. وتبدو معظم أعمال الأوبيرا المؤلفة منذ خمسين عاما فقط عتيقة. وسيطر التناغم أكثر فأكثر على اللحن وينبغي الآن من أجل تهييج الحساسيات المرهقة بعض التنافرات التي كان المؤلفون السابقون سيعتبرونها أخطاءً.

إن إبداعات عصر ما، وعلى الأخصِّ الفنية والأدبية، تسمح وحدها بمعرفة حساسية ذاك العصر وتغيراتها.

و لأنها بالضبط التعبير الحقيقي عن حساسية عصر ما فإن الأعمال الفنية يمكن تأريخها بسهولة. وللسبب ذاته فإنها أكثر إفادة من كتب التاريخ المنهجية. فالمؤرخ يقيّم الماضي عبر حساسيته الحديثة. وتفسيره الخاطئ بالضرورة سيعلمنا القليل. أما أصغر قصة، أو رواية، أو لوحة، أو بناء من العصر المحدد فإنها ستكون ذات فائدة تعليمية دقيقة وممتعة بشكل مختلف.

الحساسية لا تنتقل لا في المكان ولا في الزمان. فعمل هندسي مكون من خليط من عناصر تعود لعصور متباعدة وقادمة من أعراق أخرى سيصدمنا بالضرورة لأنه ناتج عن حساسيات لا تشبه حساسيتنا.

وإذا ما تحولت حساسيتنا، نتيجة لتطور نوعنا، فإن كل آثار الماضي الأكثر إثارة للإعجاب اليوم: البارتينون، الكاتدرائيات القوطية، والملاحم الكبرى، واللوحات الشهيرة سوف تُعتبر منتجات لا تستحق النظر إليها.

ليس هذا افتراضا عبثيا. ألم يكن الفن القوطي، منذ لويس الثالث عشر حتى بداية القرن الأخير، يُعتبر فنا بربريا، وموضع لعنات الكتاب والفنانين، وخاصة جان –جاك روسو؟

قد لا يكون التطور الطويل ضروريا من أجل إيصال الشعوب إلى ازدراء ما تُعجب به اليوم. ربما يكفي أن تُثابر التربية على اتجاهها الحالي التخصصي والتقني وأن تتابع تسلقها السريع نحو التحكم بالجماهير حتى لا تعود كل أشكال الفن تمثل بالنسبة لهذه الجماهير إلا نوعا من الترف الحريّ بالاحتقار. ولم تتردد الكومونة وهي التعبير الأكثر وفاء للروح الشعبية في حرق أجمل أبنية باريس، مثل دار البلدية والتويليري. أما اللوفر فسوف ينجو بمجموعاته من هذه الهمجية بالصدفة فقط.

إن روائع الماضي ومهما سيكون أمر مصيرها، لا تزال موجودة، وهي وحدها من يطلعنا على تاريخها الحقيقي.

دون عناصر الإعلام هذه، التي يوفرها الأدب والفن، فإن حساسية عصر ما ستظل مجهولة جدا كما حساسية سكان جوبيتر. وقد نستطيع فقط تحديد عقلانيتها عبر دراسة الكتب العلمية.

فالكتب العلمية في الواقع مستقلة عموما عن حساسية مؤلفيها. الرواية تكون مؤرخة دائما، أما بحث في الهندسة النظرية فلا يكون كذلك. هندسة إقليدس القديمة، التي لا تزال تُدرّس، يمكن أن تحمل توقيع عالم رياضيات معاصر. فقد صاغها مؤلفها في الواقع مستعينا بعناصر عقلية فقط و لم يكن لحساسيته أي دور. إن العقل يستطيع توضيح حقائق عامة وخالدة. أما الحساسية فتخلق حقائق خاصة ومؤقتة.

3 ـ تغيرات المثال الأعلى والمعتقدات التي تخلقها تقلبات الحساسية الجماعية

كانت الغاية الثابتة للنشاط الإنساني، أيًّا يكن العرق أو الزمن المعتبر، البحث دائما عن السعادة: إنها تقوم، في التحليل الأخير، وأكرر ذلك، على البحث عن اللذة وتجنب الألم.

وعلى هذا المفهوم الأساسي اتفق الناس دوما، وتتعلق التباينات فقط بالفكرة التي يكونّها المرء عن السعادة وبوسائل الحصول عليها. أشكالها متنوعة لكن الغاية المنشودة متشابهة. فأحلام الحب، الثروة، الطموح أو الإيمان هي العناصر القوية للأوهام التي تستخدمها الطبيعة لكي تقودنا إلى غاياتها.

إن السعادة سواء تمثلت بتحقيق رغبة حاضرة أو أمل بسيط تظل دائما ظاهرة ذاتية. وما أن تتلاشى حدود الحلم قليلا في الذهن حتى نطارده بحماسة.

تغير مفهوم السعادة لدى فرد أو شعب، أي مثاله الأعلى، يعني في الوقت عينه تغيير مفهومه عن الحياة وتاليا مصيره. والتاريخ لم يكن في الأساس إلا قصة الجهود المبذولة من قبل الإنسان من أجل بناء مثال أعلى، ومن ثم لتدميره لاحقا بعد أن يكتشف، و قد بلغه، تفاهته.

إن الأمل بالسعادة المتخيلة من قبل كل شعب، والمعتقدات التي هي صورتها، شكّلا دائما رافعة قوة هذا الشعب. إن مثاله الأعلى يولد ويكبر ويموت معه ويمنح، أيا يكن شأنه، الشعب الذي يتقبله قوة كبيرة. هذه القوة تكون بقدر ما يفعل هذا المثال الأعلى، حتى لو كان يبشر بالقليل. وهكذا نفهم الشهيد الذي كانت المحرقة تمثل في نظره باب السماء؛ لكن أية فائدة يمكن لجندي روماني أو جندي في جيش نابليون أن يجنيها من تجواله عبر العالم؟ الموت أو الجراح. مثالهم الأعلى الجماعي كان مع ذلك قويا جدا بحيث يطغى على كل آلامهم. الشعور بأنهم أبطال هذه الملحمة الكبيرة كان مثلا أعلى للسعادة، جنة حاضرة مدهشة إلى أقصى حد. إن أمة دون مثال أعلى تزول من التاريخ بسرعة.

الفصل الثالث

دوائر النشاطات الحيوية والنفسية

الحياة الواعية والحياة اللاواعية

1 ـ دوائر النشاطات الحيوية والنفسية

لما كانت غاية هذا الكتاب دراسة تشكل الآراء والمعتقدات، فإنه يغدو من الضروري التعرف بداية إلى الأرضية التي يمكن أن تنبت فيها. وهذه المعرفة هي على قدر كبير من الفائدة سيما وأن تفسيرات كتب علم النفس القديمة باتت في ظل نجاحات العلم الحالي، خادعة جدا.

يمكن تصنيف الظواهر التي تُبديها الكائنات الحية في عدة فئات تتراكب اليوم، لكنها كانت تتعاقب ببطء في الزمن: 1- ظواهر حياتية (تغذية، تنفس الخ...)؛ 2 – ظواهر عاطفية (مشاعر، أهواء الخ...) 3- ظواهر عقلية (تفكير، محاكمة الخ..) وهذه الأخيرة ظهرت في وقت متأخر جدا من تاريخ البشرية.

وتشكل الحياة العضوية، و الحياة العاطفية والحياة العقلية جميعها دوائر نشاطات متباينة جدا: لكن على الرغم من كونها

منفصلة الواحدة عن الأخريين فإنها تؤثر دون انقطاع واحدتها في الأخريين. يستحيل لهذا السبب أن نفهم الأخريين دون أن ندرس الأولى. إنه إذن لأمر خاطئ جدا أن يهمل علماء النفس تفحص الظواهر الحياتية وأن يحيلوها إلى علماء وظائف الأعضاء..

سوف نبين دور الظواهر الحياتية الأساسي عندما سندرس في قسم آخر من هذا الكتاب الظواهر المحكومة بالمنطق البيولوجي. ولن نعالج في الفصل الحالي إلا هذه المرحلة البدائية من الحياة النفسية: النشاط اللاواعي للذهن. إن أهميته متقدمة جدا، لأن في هذه الأرضية توجد جذور آرائنا وسلوكنا.

2 ـ النفس اللاواعية ومصادر الحدس

لا تدخل الأحاسيس في الوعي إلا بعد إعداد آلي يُنجز في تلك المنطقة الغامضة جدا من اللاوعي الموصوفة اليوم بتحت- الوعي والتي لم يكد استكشافها يبدأ.

ولما كانت الحالات العقلية الواعية هي الوحيدة التي يسهل الوصول إليها فإن علم النفس لم يعرف في البداية غيرها. وقد أثبت العلم الحديث عبر طرق غير مباشرة، لكنها أكيدة جدا، أن الظواهر اللاواعية تلعب في الحياة الذهنية دورا أكبر أهمية غالبا من الظواهر العقلية. إن الأولى هي أساس الثانية. ويمكن مقارنة الحياة العقلية بتلك الجزر الصغيرة، أي قمم الجبال العظيمة اللامرئية تحت سطح الماء. الجبال العظيمة تمثل اللاوعي. اللاوعي

في جزء كبير منه هو الراسب السلفي **résidu ancestral**. وتتعلق قوته بكونه يمثل تراث سلسلة طويلة من الأجيال التي أضاف كل منها إليه شيئا ما.

دور اللاوعي غير المعروف سابقا بات مؤثرا جدا اليوم لدرجة أن بعض الفلاسفة، وليام جيمس وبيرغسون على وجه الخصوص، أخذوا يفتشون فيه عن تفسير غالبية الظواهر النفسية.

وبتأثيرهم رأت النور حركة مضادة- للعقلانية واضحة المعالم. وقد آل الأمر بمعتنقي المدرسة الجديدة حتى إلى نسيان بعض الشيء أن المنطق العقلي وحده ما سمح ببناء النجاحات العلمية والصناعية المولدة لحضاراتنا.

إن الأبحاث التي توصلت إلى تزويد ما تحت الوعي بمثل هذه الأهمية لا تتفرع عن تنظيرات بحتة، وإنما عن بعض التجارب التي تمّ انجازها أصلا في سبيل غاية أخرى مغايرة لغاية دعم بعض المحاجات الفلسفية. وسأذكر من بينها الدراسات حول التنويم المغناطيسي الانحلال المرضي للشخصيات، السرنمة، أعمال الوسطاء الروحيين، الخ... إن آلية عمل الآثار المدروسة تظل فوق ذلك مجهولة. ينبغي في ما يخصُّ النفس اللاواعية مثلما هي الحال أيضا مع النفس الواعية الاقتصار في أغلب الأحيان على معاينات بسيطة. إن اللاوعي يقودنا في الغالبية العظمى من أفعالنا الحياتية اليومية. إنه قائدنا، لكنه قائد يمكن أن يصبح خادما إذا جرى توجيهه بطريقة مناسبة. إن ممارسة مهنة أو فنا ما قد يتحققان بسهولة ما أن يأخذ اللاوعي المروض جيدا بتوجيههما. إن الأخلاق الحقيقية إنما هي شيء من اللاوعي المروض.

اللاوعـي يمثل مخزنـا فسيحا مـن الحـالات العاطفيـة والعقليـة الـتي تـشكل رأس مـال نفـسي والـذي يمكـن أن يـضعف لكنـه لا يمكن أن يموت كله مطلقا.

وإذا كان يلزم الاستناد إلى ملاحظة بعض الحالات المرضية، فإن بوسع المرء القول إنَّ العناصر المدخلة إلى ميدان اللاوعي تبقى فيه لـزمن طويل جدا إن لم نقل إلى الأبد. وبهذا على الأقل، بهذه الطريقة فقط، يمكن أن تُفسر بعض الظواهر المعاينة لـدى بعض الوسطاء الروحيين أو عند مرضى يأخذون بتكلم لغات لم يتعلموها من قبل، وإنما سمعوها تُحكى في صباهم.

يخـرج الحـدس، أصـل الإلهامـات الـتي تـشكل العبقريـة في الحـالات الاسـتثنائية، بأكملـه مـن لاوعـي أعدتـه الوراثـة وثقافـة مناسبة. إن إلهامات القائد العظيم الذي يحرز الانتصارات ويتحكم بالقدر، وإلهامات الفنان القدير الذي يكشف لنا فخامة الأشياء، والعالم الشهير الذي يقتحم ألغازها، تبدو لنا تحت مظهر التفتح المفاجئ بيد أن اللاوعي الذي صدرت عنه كان قد أعد على مهل إزهارها.

ومـع أن العواطـف يمكـن أن تُـستثار بفعـل بعـض التمثـيلات الذهنية ذات المنشأ العقلي البحت فإنها تتشكل في حقل اللاوعي. إن إعدادها البطيء يمكن أن يتخذ كخاتمة له مظاهر مفاجئة، تنطلق كالصاعقة ومثالها التحولات العسكرية أو السياسية.

وعلى الرغم من أن العواطف **sentiments** المحضّرة في اللاوعـي لا تـصل دائمـا إلى الـوعي أو لا تـتمكن مـن ذلـك إلا بعـد إثـارات

مختلفة، لهذا فنحن نجهل أحيانا عواطفنا الحقيقية حيال الكائنات أو الأشياء التي تحيط بنا. غالبا ما تكون العواطف وبالتالي الآراء والمعتقدات التي تنتج عنها مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي كنا قد توقعناها. فالحب أو الكره موجودان أحيانا داخلنا من قبل أن يخطرا في بالنا. يتضحان فقط عندما نكون مجبرين على الفعل. فالفعل يشكل في الواقع المقياس الوحيد للعواطف غير القابل للنقاش. أن تفعل يعني أن تتعلم معرفة نفسك. فالآراء المُشكّلة تظل كلمات لا طائل تحتها طالما لم يكن الفعل مصادقة عليها.

3 ـ أشكال اللاوعي

اللاوعي العقلي واللاوعي العاطفي

يمكننا، كما أعتقد، أن نحدد ثلاث فئات مختلفة في عالم النشاط اللاواعي.

بادئ ذي بدء، هناك اللاوعي العضوي الذي يحكم كل مظاهر الحياة: التنفس، الدورة الدموية الخ.... وهو مستقر منذ زمن بعيد بفعل تراكمات وراثية، ويعمل بانتظام مدهش ودون علمنا تماما، يوجّه الحياة ويجعلنا ننتقل من الطفولة إلى الشيخوخة والموت دون أن نستطيع فهم عمله.

فوق اللاوعي العضوي يقع اللاوعي العاطفي، وقد تشكل منذ عهد قريب، و هو أقل ثباتا، لكنه مع ذلك أقوى، ولذلك إذا كنا نستطيع تغيير الأشخاص الذين تنصب عليهم عواطفنا سنجد أن تأثيرنا على هذه العواطف ضعيف جدا.

في قمة هذا السلم يوجد اللاوعي العقلي. لا يملك لأنه ظهر متأخرا جدا في تاريخ العالم، جذورا سلفية عميقة. وفي حين أن اللاوعي العضوي والعاطفي توصلا إلى خلق غرائز منقولة بالوراثة فإن اللاوعي العقلي لا يتجلى بعد إلا في صورة استعدادات مسبقة وميول وعلى التربية أن تكمله في كل جيل.

إن التربية لها الكثير من التأثير على اللاوعي العقلي تحديدا لأنه أقل رسوخا من أشكال اللاوعي الأخرى. وبعكس ذلك فهي تمارس القليل منه على العواطف، التي هي عناصر طبعنا الأساسية المترسّخة منذ أمد بعيد.

اللاوعي العاطفي غالبا ما يكون سيدا متسلطا، غير مبال بقرارات العقل. لهذا نرى الكثير من الناس العقلاء جدا في كتاباتهم وفي خطاباتهم يصبحون في سلوكهم العملي أشخاصا آليين، يقولون ما كانوا لا يرغبون في قوله ويفعلون ما كانوا لا يرغبون في فعله.

ينتج عن التفسيرات السابقة أن الذكاء ليس كما كان الناس يعتقدونه لزمن طويل أي العامل الأكثر أهمية في الحياة العقلية. فاللاوعي يحضّر، ونتائج هذا التحضير تصل جاهزة تماما إلى العقل تماما مثل الكلمات التي تتدافع فوق شفتي الخطيب.

تتمثل قوة اللاوعي الكبرى في أنه يحدد بدقة خاصة كل ما ينفذه. ولهذا ينبغي على المرء أن يعهد إليه أكثر ما يمكن من المهام. تعلم مهنة ما أو فن ما لا يكون كاملا إلا حينما تكون تمرينات متكررة قد كلّفت اللاوعي بتنفيذ العمل المطلوب انجازه. إن التربية، وقد كتبت ذلك في مكان آخر، هي فن القيام بإدخال الوعي في اللاوعي.

بيد أن حدود تأثيرنا على اللاوعي ليست واسعة جدا. وقد نفت البيولوجيا الحديثة محقة ومنذ زمن بعيد قصدية الكون، ومع ذلك تجري الأمور غالبا كما لو أن القصدية تتحكم بتتابعها. إن كل تفسيراتنا العقلانية تترك الطبيعة ملأى بالغامض. وإذا حكمنا على ذلك من النتائج فإنه قد يبدو أن اللاوعي - الشكل الحديث من القصدية _ يضمُّ جنيات حاذقة راغبة في تضليلنا بجعلنا نضحي دون انفكاك بمصالحنا الفردية لأجل مصالح النوع. إن عبقريات القصدية اللاواعية هي دون شك ضرورات بسيطة اختارها ورسخها الوقت.

ومهما يكن من أمر فإن اللاوعي يحكمنا غالبا ويضللنا دائما. فلا نأسفن لذلك كثيرا لأن رؤية واضحة للقدر القادم قد تجعل الوجود شديد البؤس. فلن يعود الثور ليأكل بطمأنينة أكثر عشب الطريق الذي يقوده إلى المسلخ، وسوف يتراجع غالبية البشر رعبا أمام قدرهم.

الفصل الرابع

الأنا العاطفي والأنا العقلي

1 ـ الأنا العاطفي والأنا العقلي

عند البحث مجددا عن الدوافع المُحددة لآرائنا ومعتقداتنا، سوف نجد أنها محكومة بأشكال من المنطق المتباينة جدا على الرغم من أنها لا تزال تُخلط ببعضها البعض حتى الآن.

قبل أن نبدأ تفحصها، سوف أركّز على تقسيم جوهري للعناصر النفسية والذي يتحكم بالعناصر الأخرى كلها. وهذه تبرز في الواقع تحت شكلين مختلفين جدا: العناصر العاطفية، والعناصر العقلية. هذا التصنيف الأول سوف يسهل فهم الفصول التي ستكرس لدراسة أشكال المنطق المختلفة.

إن التمييز بين العاطفة والعقل حدث في وقت متأخر من التاريخ. لقد كان أسلافنا البعيدون يشعرون بقوة ويتحركون بنشاط، لكنهم كانوا يفكرون قليلا جدا.

حينما وصل الإنسان إلى طور متقدم من تطوره مال نحو التأمل، فتجلى بوضوح الفرق بين العواطف والعقل.

لكن في عصر قريب جدا فقط بات واضحا أن العواطف المفترض أنها محكومة بنزواتنا كانت تخضع لمنطق خاص مختلف حتما عن المنطق العقلي.

إن جهل هذا التمييز هو واحد من مصادر الأخطاء الأكثر شيوعا في أحكامنا. وثمة فرق من السياسيين الذين حاولوا أن يؤسسوا على بعض المحاكمات العقلية ما لا يمكن أن يؤسس إلا على العواطف. وثمة بعض المؤرخين قليلي التور اعتقدوا أن بمقدورهم أن يفسروا باستخدام المنطق العقلي أحداثا بعيدة تماما عن تأثيره. إن أصل العوامل الأكثر أهمية في التاريخ، مثل ولادة المعتقدات، وانتشارها، يظل لهذا السبب مجهولا تقريبا.

وثمة فلاسفة مرموقون كانوا ضحايا للخلط ذاته بين المنطق العاطفي والمنطق العقلي. فقد كان كانط يزعم تأسيس الأخلاق على العقل.. والحال، فإن العقل لم يَردْ بصورة شبه مطلقة بين مصادره المختلفة.

ما يزال العدد الأكبر من علماء النفس يتشبثون بالشطط ذاته. وقد أشار ريبو ribot بحق إلى ذلك عندما تحدث عن " الآراء المسبقة العقلانية العقيمة لعلماء النفس الذين يريدون أن يعيدوا إلى العقل كل شيء، وأن يفسروا به كل شيء. وهي أطروحة لا يمكن دعمها لأنه كما أن الحياة النباتية كانت فيزيولوجيا أسبق من الحياة الحيوانية التي تعتمد عليها؛ كذلك فإن الحياة العاطفية تسبق فيزيولوجيا الحياة العقلية التي تعتمد عليها ".

لقد كان ضروريا بقصد الوصول إلى غاية هذا الكتاب، أن نلحّ بقوة على هذا الفرق بين العاطفي والعقلاني. إن إهماله سيعني أن نحكم أنفسنا دوما بالجهل بأصل الآراء والمعتقدات.

يعتبر حصر الفارق بين العقلي والعاطفي بصورة واضحة مهمة صعبة مع ذلك. إذ إنَّ التصنيفات التي لا غنى عنها في دراسة العلوم تُحدث بالضرورة في تسلسل الأشياء انقطاعا لا تعرفه الطبيعة، لكن أي علم كان سيغدو مستحيلا لو لم نكن قد تعلمنا أن نخلق المنفصل في المتصل.

إن التفريق ما بين العاطفي والعقلي ينتمي لمرحلة متقدمة من تطور البشر. ولأن الظواهر العاطفية كانت قد سبقت الظواهر العقلية فمن المحتمل أن تكون الثانية قد خرجت من الأولى.

تمتلك الحيوانات غالبا بعض العواطف المتطورة المساوية لعواطفنا، بيد أن عقولها أضعف بكثير. إن الإنسان يفترق عنها بوجه الخصوص بتطور عقله.

تنتمي العواطف إلى تلك الطائفة من الأشياء المعروفة من قبل كلٍ منًّا على الرغم من صعوبة تحديدها. والمرء لا يستطيع التعبير عنها إلا بمفردات عقلية. العقل يفيد في التعرف إلى العواطف وفي الشعور؛والحال فإن الشعور والمعرفة هما من المظاهر التي لا يسع الكلام ذاته التعبير عنهما. لقد استطاع العقل أن يخلق لنفسه كلاما دقيقا جدا، بيد أن كلام العواطف لا يزال غامضا جدا.

إن الأنا العاطفي والأنا العقلي على الرغم من التأثير المستمر لأحدهما على الآخر يتمتعان بوجود مستقل. فالأنا العاطفي الذي يطور الحياة، على الرغم منا وغالبا بالضدِّ منَّا، ولهذا السبب فهو

ملـيء بالمتناقـضات. قـد يكـون مـن الممكـن أحيانـا أن نكـبح عواطفنا، لكن لا أن نستولدها أو أن نجعلها تختفي.

إنه إذن لمن التجني الأكيد أن نلوم شخصا لأنه تغير. فهذا اللوم ينطـوي علـى الفكـرة الخاطئـة جدا القائلـة بـأن العقل يـستطيع أن يبدل عاطفة ما. خطـأ فـادح. فحينمـا يغدو الحب علـى سبيل المثال، لامبالاة أو نفورا، فإن العقل يشهد هذا التحول، لكنه ليس السبب في حدوثه. والأسباب التي يتخيلها لتفسير مثل هـذه التحـولات ليست لها أية علاقة بدوافعها الحقيقية. وهـذه الدوافع نجهلها نحن.

بـل غالبـا مـا لا نعـرف عواطفنـا الحقيقيـة أكثـر ممـا نعـرف الدوافع التي ولدّتها. " غالبا ما نتخيل، يقول ريبو، إننا نـشعر حيـال شخص ما بارتباط عميق ومتين (حب، صداقة)؛ فيـأتي الغيـاب، أو ضـرورة قطيعـة مـا ليظهـرا هـشاشته الحقيقيـة. وبـالعكس، فـإن الغيـاب أو القطيعـة يكـشفان لنـا عـن حـب عميق كـان يبـدو فـاترا وقريبا من اللامبالاة. "

يـستحيل إذن، كمـا يـشير محقـا الكاتـب نفسه، أن نحكم بالأنا العقلي على سلوك الأنا العاطفي.

علـى الـرغم مـن أن الحيـاة العاطفيـة والحيـاة العقليـة متغايرتـان جـدا بحيـث لا يمكـن إرجـاع إحـداهما إلى الأخـرى فـإن الـبعض يتصرف دائما دون أن يأخذ بعين الاعتبار الفرق الـذي يفـصل مـا بـين العواطف والعقل. ونظامنا التربوي اللاتيني بأكمله هو أحد البراهين علـى ذلـك. فالاقتنـاع بـأن تنميـة العقـل بواسـطة التعليم ينمـيّ أيـضا العواطف، و اتحادهما يكوّن الطبع أو الخُلق، هـو واحـد مـن أخطـر

الآراء المسبقة لجامعتنا. فالمربون الانكليز يعرفون منذ أمد بعيد أن تربية الخلق لا تتمُّ عبر الكتب.

ولأن الذات العاطفية والذات العقلية متمايزتان فلن يكون مفاجئا أن يتواجد مع عقل رفيع جدا خُلقٌ منحط جدا [1]. ومما لاشك فيه وبما أن العقل والتعليم يدلان على أن بعض الأفعال غير الشريفة تكلف أكثر مما تعود به من فائدة، فإنه يندر أن نرى رجلا متعلما، يمارس عمليات سطو مألوفة، لكنه إن كان يملك روح اللص المقتحم فإنه سيحتفظ بها على الرغم من شهاداته كلها وسوف يستخدمها في عمليات ضحلة أخلاقيا لكنها أقل خطرا وذات مردود مضمون.

إن التمييز بين الأنا العاطفي والأنا العقلي الذي يمكن رؤيته عند الأفراد لهو كذلك أيضا عند بعض الشعوب. فقد لفتت مدام دو ستايل النظر إلى أن العاطفة والعقل عند الألمان " يبدوان دون أي تواصل: فالأولى لا تقبل أية حدود بينما الآخر يخضع لكل القيود ".

[1] من بين الأمثلة العديدة التي يعرضها التاريخ وأكثرها أنموذجية هو مثال المستشار باكون bacon فلم يكن في عصره من يفوقه عقلا لكن سرعان ما كشف عن روح منحطة جدا. فقد بدأ أملا بالحصول على عمل لدى الملكة إيلزابيت بخيانة المحسن الوحيد له وهو كونت إيساكس الذي قُطعت رأسه وكان عليه مع ذلك أن ينتظر جلوس جاك الأول على العرش لكي يحصل ، بناء على توصية من دوق باكنفهام الذي سرعان ما خانه هو أيضا على منصب المحامي العام ثم المستشار وقد تكشف عن ممالق تافه ولص وقح وقد وصلت ابتزازاته حدا استدعى ملاحقته قضائيا وقد حاول دون جدوى نيل تعاطف قضاته عبر اعتراف وضيع مكتوب يعترف فيه بأخطائه " ويتنازل عن كل دفاع " فحكم عليه بالطرد من كل مناصبه وبالسجن المؤبد.

في الجماعات الانتقالية يمكن ملاحظة التمييز ذاته بين العاطفي والعقلاني بسهولة أكبر أيضا. فالعناصر التي وحَّدت بينهم والتي تملي أفعالهم هي العواطف وليست العقل مطلقا وقد بينت أسباب ذلك في كتاب آخر. ويكفي أن نتذكر هنا أن العقل، المختلف بصورة كبيرة من شخص إلى آخر وغير المنتقل بالعدوى مثل العواطف، لا يمكن أن يتخذ مطلقا شكلا جماعيا. إن أفراد عرق ما يمتلكون بالعكس من ذلك بعض العواطف المشتركة التي يمكن أن تنتقل بسهولة حينما يكونون مجتمعين.

يشكل الأنا العاطفي عنصر الشخصية الجوهري. وهو يتطور، بعد أن أُعُدَّ ببطء شديد من قبل المكتسبات الموروثة عن الأسلاف، عند الأفراد والشعوب، بصورة أبطأ بكثير مما يتطور العقل.

وهذه الأطروحة تبدو للوهلة الأولى يناقضها التاريخ. فقد يبدو أنه في لحظات معينة تولد عواطف جديدة مختلفة جدا عن تلك المعروفة من قبل. فقد يبدو أحد الشعوب، العدواني في وقت ما، مسالما في وقت لاحق. الحاجة للمساواة تلي القبول بعدم المساواة. وتحل التشككية محل الإيمان المشبوب. وكثيرة هي الأمثلة المشابهة.

ويظهر تحليلها أن هذا الخلق للعواطف الجديدة ما هو إلا مظاهر خارجية بسيطة. وفي الواقع، تكون موجودة دون أن تتمظهر؛ فتغير الأوساط أو الظروف لم يقم إلا بتعديل توازنها. فتلك العاطفة المكبوحة بداية تصبح شديدة التأثير في وقت آخر وتسيطر بطريقة دائمة تقريبا على الحالات العاطفية الأخرى. وسيُضطر الإنسان الذي يعيش في مجتمع ما بالتأكيد لأن يخضع عواطفه لضرورات متتالية تفرضها عليه الظروف وعلى الأخص الوسط الاجتماعي المحيط.

وتبدو العواطف أحيانا وكأنها تتغير في حين أنها لم تقم إلا بالتطابق مع مواضيع مختلفة. فالأمل الغامض الذي يقود العامل الحديث نحو الحانات العابقة بالدخان حيث يعده رسل إنجيل جديد بفردوس قريب، هو العاطفة ذاتها التي كانت تقود آباءه في الكاتدرائيات القديمة حيث كانت خلف أدخنة البخور تتفتح الأبواب الذهبية لأماكن مشعة مليئة بنعيم أبدي.

2 ـ المظاهر المختلفة للحياة العاطفية

انفعالات، عواطف، أهواء

أشار الكتاب إلى مظاهر الحياة العاطفية دون تمييز تحت أسماء الانفعالات أو العواطف. وأظنُّ أنه من المناسب أكثر لتوصيفها أن نوزعها إلى ثلاث مراتب: الانفعالات، العواطف، الأهواء.

الانفعال هو عاطفة لحظية سريعة الزوال تقريبا. تنتج عن ظاهرة مباغتة: حادث، إعلان عن كارثة، تهديد، شتيمة، الخ.... الغضب، الخوف، الرعب، هي انفعالات.

العاطفة تمثل حالة عاطفية قابلة للاستمرار، مثل الطيبة، الرفق، الخ...

الهوى يتكون من عواطف اكتسبت شدَّةً كبيرة ويمكنها مؤقتا أن تلغي عواطف أخرى: الكره، الحب، الخ....

كل هذه الحالات العاطفية تتوافق مع تغيرات فيزيولوجية لجسمنا. ونحن لا نعرف منها إلا بعض الآثار العامة: احمرار الوجه، اضطراب الدورة الدموية، الخ

إن تغيراً فيزيائيا أو كيميائيا للخلايا العصبية والعواطف التي يوّلدها يمثلان علاقة نعرف منها فقط حدودها النهائية. تحول سياق كيميائي عضوي إلى عاطفة أو فكر هو أمر لا يمكن تفسيره في الوقت الراهن.

تتغير العواطف والانفعالات تبعا للحالة الفيزيولوجية للفرد أو لتأثير المهيجات المختلفة: قهوة، كحول الخ...

العاطفة الأكثر بساطة تكون معقدة جدا دائما، لكن منذ أن تصبح متعذرة الاختزال إلى عاطفة أخرى عبر التحليل، ينبغي لنا من أجل السهولة اللغوية، أن نعاملها كما لو كانت عاطفة بسيطة. فالكيميائي هو أيضا يصف بالأجسام البسيطة تلك التي لا يعرف فك تركيبها.

يتحدث علماء النفس أحيانا عن عواطف عقلية. هذا المصطلح يقول ريبو: " يشير إلى الحالات العاطفية الممتعة أو المختلطة التي ترافق ممارسة عمليات عقلية ".

لن يسعني القبول بتلك النظرية التي تخلط السبب بنتيجته. فعاطفة ما يمكن أن تكون ناجمة عن تأثيرات شديدة الاختلاف مثل تأثير غذاء لذيذ، أو تأثير اكتشاف علمي ما، لكنها تظل دائما عاطفة. نستطيع في الأكثر القول إن أفكارنا لها معادل انفعالي. وحتى الأرقام ذاتها لها معادل، كما لاحظ بيرغسون بحق: "فالتجار يعرفون هذا جيدا، كما يقول، وعوضا عن أن يحددوا سعر غرض ما برقم صحيح من الفرنكات، فإنهم يحددون الرقم الأدنى منه مباشرة، مع احتمال حشر بعده رقم كاف من السنتيمات بعده".

تتخذ العاطفة كما أسلفنا، بعد أن أصبحت غالبة وملّحة، اسم الهوى. ولم ينجح علماء النفس لا في تعريفها ولا في تصنيفها. فقد قبل سبينوزا بثلاثة: الرغبة، الفرح والحزن، ومنها استنتج كل الأهواء الأخرى. وقبل ديكارت بستة أولية: الإعجاب، الحب، الكره، الرغبة، الفرح، والحزن. ومن الواضح أن هذا لا يعدو كونه صيغاً كلامية بحتة عاجزة عن تفسير أي شيء ولا تصمد أمام أي نقاش.

الهوى يمكن أن يولد فجأة، كما الصاعقة، أو يولد عبر حضانة بطيئة. وبعد تشكله فإنه يسيطر على كل الحياة العاطفية وأيضا على الحياة العقلية. وليس للعقل عموما أي تأثير عليه ولا يني أن يدخل في خدمته.

ونحن نعرف إلى أية درجة تستطيع الأهواء تحويل آرائنا ومعتقداتنا، وسوف نعود إلى هذا قريبا. من جهة أخرى فإن الأهواء الكبرى نادرة، ولأنها سريعة الزوال في أغلب الأحيان، فإنها تختفي حالما يتمُّ بلوغ الغرض المشتهى. في الهوى العشقي، هذه القاعدة شديدة الثبات. وقصص الحب المشهورة كان أبطالها عموما أشخاصا منعتهم الظروف من كثرة اللقاء.

يختفي الهوى أغلب الأحيان بمجرد الانقضاء، ولكن أحيانا عن طريق التحول وعندئذ تتبدل في الوقت ذاته الآراء والمعتقدات التي أنتجها.

ويلاحظ ريبو: " الحب البشري يمكن أن يتحول إلى حب إلهي أو بالعكس... الحب المخفق استوطن الأديرة... والتعصب الديني يمكن أن يتحول إلى تعصب سياسي واجتماعي. فإيناس لويولا كان فارسا متشردا وضع نفسه في خدمة السيد المسيح ".

حينما ينجح العقل في ممارسة تأثير كابت على الهوى فإن هذا يعني أن الهوى لم يكنْ عنيفا. لا يستطيع العقل التصرف ضد هوى ما إلا بمعارضة التمثل الذهني لعاطفة ما بعاطفة أخرى. الصراع يقوم ساعتها ليس بين تمثلات عقلية وتمثلات عاطفية، بل فقط بين بعض التمثلات العاطفية التي وضعها العقل في مواجهة بعضها بعضا.

3 ـ الذاكرة العاطفية

تعيش ذاكرة العواطف كما تعيش الذاكرة العقلية، لكن في درجة أقل. فالزمن يضعفها بسرعة كبيرة جدا.

الدونية المعتادة للذاكرة العاطفية بالنسبة للذاكرة العقلية هي كبيرة عموما. فثبات هذه الأخيرة شديد حينما يدربها المرء بحيث إنَّ أعمالا ضخمة مثل كتب الڤيدا **véda** أو أناشيد هوميروس جرى، طوال عصور، تناقلها من جيل إلى جيل بفضل الذاكرة فقط. وحينما كانت الكتب نادرة الوجود ومكلفة، في القرن الثامن على سبيل المثال، تعلم الطلاب كيف يحفظون غيبا الدروس التي كانت تُلقى عليهم. ويؤكد اتكينسون **Atkinson** " أنه إذا ما جرى تدمير كتب التراث الصينية اليوم، فإن أكثر من مليون صيني سيستطيعون إعادة كتابتها من الذاكرة ".

ولو كانت الذاكرة العاطفية على نفس القدر من شراسة الذاكرة العقلية فإن الذكرى المستمرة لآلامنا سوف تجعل الحياة لا تطاق.

ويمكن للبعض أن يعترض على نظرية قصر الذاكرة العاطفية باستمرار الأحقاد الطبقية والعرقية المتجددة خلال أجيال بعيدة. هذه

الاستمرارية الظاهرية ليست إلا تجديدا دائما تنتجه أسباب متكررة دائما. فحقد لا يُغذى لا يدوم أبدا. أما أحقاد الألمان حيال الفرنسيين فقد كانت ستختفي منذ أمد بعيد لو أن الصحف الجرمانية لا تقوم بتذكيته دون انقطاع. وكراهية الهولانديين للإنكليز الذين أخذوا منهم مستعمراتهم سابقا، تستمر فقط لأن أحداثا عديدة وخاصة الحرب ضد المستعمرين الهولنديين في ترانسفال جاءت لتؤججها ولأن هولندا تعتبر نفسها مُهددة دائما.

التحالف الروسي والاتفاق الفرنسي – الإنكليزي يظهران بأية سرعة يمكن لشعوب كانت متعادية في السابق، أن تنسى الأحقاد غير المؤججة. عندما صارت إنكلترا صديقتنا، لم نكن بعيدين مع ذلك عن إذلالنا الرهيب في فاشودا – (في السودان م. ع. -)

هذه الفكرة الأساسية عن قصر أمد الذاكرة العاطفية تفسر بالتأكيد العديد من الظواهر في حياة الشعوب. لا ينبغي قط الاعتماد على الاعتراف بها، لكن لا يجب كذلك الفزع أكثر من اللازم من حقدها.

4 ـ الترابطات العاطفية والعقلية

سوف ندرس بعض العناصر المميزة للعقل في الفصل المخصص في هذا الكتاب للنظر في المنطق العقلي. ولن نذكرها هنا إلا بقصد تبيان كيف تترابط وتتبادل التأثير العناصر العقلية والعاطفية.

يتميز العقل على الأخص بملكة التفكير والتي تنتج عنها ملكة العقل **raisonner** أي إدراك، متبعا بعض القواعد، العلاقات المرئية أو المخفية بين الأشياء.

تداعيات المنطق العاطفي لها هي أيضا قوانينها. وهذه القوانين التي تفعل فعلها في منطقة لاواعية، لا تبلغ الوعي إلا تحت شكل النتائج.

تتألف حياتنا النفسية من قسم عاطفي ومن قسم عقلي، فكيف يؤثر هذان المجالان أحدهما في الآخر؟

يمكن لتصوراتنا الذهنية أن تكون ذات طابع عاطفي أو طابع عقلي. ومن الممكن أحيانا أن نستدعي بعض العواطف المختفية، لكن أقل بكثير مما نستدعي من الأفكار العقلية.

نعرف، بحسب النظرية الترابطية، أن الأفكار يمكن أن تترابط تبعا لطريقتين مختلفتين: اً – الترابط بالتشابه . 2ً – الترابط بالتماس.

في حالات الترابط بالتشابه يقوم الانطباع الحالي بإنعاش الانطباعات السابقة المشابهة. في حالات الترابط بالتماس، يقوم الانطباع الجديد ببعث انطباعات أخرى تمّ الشعور بها في الوقت ذاته، لكن دون تشابه بينها.

وتبدو الحالات العاطفية مترابطة فيما بينها كما هي الحالات العقلية، و تترابط أيضا مع هذه الأخيرة لدرجة أن ظهور الأولى يمكن أن يستحضر ظهور الأخرى.

الفرق بين الترابطات العاطفية والترابطات العقلية يتميز بواقع أن الترابطات العاطفية التي تحدث أغلب الأحيان بطريقة لاواعية، تفلت من تأثيرنا.

وسوف نرى عما قريب كيف أنه وعلى الرغم من الاختلاف في طبيعتهما فإن الأنا العاطفي والأنا العقلي يمكنهما، بفضل الترابطات التي تمت الإشارة إليها أن يتبادلا التأثير.

الفصل الخامس

عناصر الشخصية

تراكيب العواطف المكونة للطبع

1 ـ عناصر الطبع

يتشكل الطبع من مجاميع من عناصر عاطفية تتطابق معها، مختلطة بها بدرجة قليلة جدا بعض العناصر العقلية. والعناصر الأولى هي دائما من تعطي الفرد شخصيته الحقيقية.

ولأن العناصر العاطفية عديدة فإن ترابطها سوف يشكل طباعاً مختلفة: ناشطة، تأملية، خاملة، شديدة التأثر، الخ... وسوف يتصرف كلٌ منها بصورة مختلفة تحت تأثير المحرضات ذاتها.

المجاميع المكونة للطبع يمكن أن تكون مشدودة الأواصر بقوة أو بالعكس مفككة الأواصر. المجاميع المتينة تتطابق معها ذاتيات قوية تظل متماسكة على الرغم من تقلبات الوسط والظروف. أما المجاميع الضعيفة الترابط فتتطابق معها العقليات الرخوة، المترددة، والمتقلبة. وهي قد تتغير في كل لحظة بفعل أخف التأثيرات، إذا لم تقم بعض مقتضيات الحياة اليومية بتوجيهها كما تقوم حافتا النهر بتحديد مجراه.

مهما يكن الطبع ثابتا، فإنه يظل مع ذلك مرتبطا دائما بحالتنا الجسمية. فألم عصبي حاد، أو روماتيزم أو اضطراب معوي سيحول البهجة إلى كآبة، والطيبة إلى خبث، والإرادة إلى لامبالاة. ونابليون المريض في واترلو لم يعد نابليون نفسه. ولو كان قيصر مصابا بعسر هضم لما استطاع دون شك عبور نهر ريبكون.

الأسباب الأخلاقية تؤثر أيضا على الطبع أو على الأقل على توجهه. فعلى إثر اهتداء ديني سيتحول الحب الدنيوي إلى حب إلهي والاكليروسي المتعصب والمضطهِد يتحول أحيانا إلى ملحد على القدر نفسه من التعصب وليس أقل اضطهادا.

وبما أن الآراء والمعتقدات مقولبة على طبعنا فإنها تتبع بصورة طبيعية تقلباته.

وقد بينت سابقا أنه لا يقوم أي تواز بين نمو الطبع ونمو الذكاء. فالأول يبدو بالعكس ميالا للضعف بقدر ما ينمو الثاني. وكم من الحضارات الكبرى جرى تدميرها بفعل عناصر أدنى عقلياً، لكنها كانت تتمتع بإرادة قوية.

إن النفوس الجريئة والمصممة تتجاهل العقبات التي يشير إليها العقل. فالعقل لا يؤسس الأديان الكبرى والإمبراطوريات القوية. في المجتمعات المشهورة بالعقل، لكنها ضعيفة الطبع، تسقط السلطة غالبا بين أيدي أشخاص قصيري النظر ومتهورين. وأنا أوافق بطيبة خاطر مع فاغيه **faguet** بأن أوروبا التي أصبحت مسالمة، سوف يحتلها " آخر شعب ظل محاربا وإقطاعيا إلى حد ما ". وهذا الشعب سوف يعيد الشعوب الأخرى إلى العبودية ويسخر لخدمته بعض

المسالمين الممتلئين عقلا لكنهم المجردون من الطاقة التي تبثها الإرادة.

2 ـ الطباع الجمعية للشعوب

لكل شعب طباع جمعية مشتركة لدى غالبية أفراده، الأمر الذي يجعل من مختلف الأمم أنواعا بسيكولوجية حقيقية. وهذه الطباع تخلق عندها، كما سنرى لاحقا، آراء متشابهة حول بعض المواضيع الأساسية.

ولا تحتاج الطباع الأساسية لشعب ما لأن تكون كثيرة العدد. ولأنها راسخة الجذور فهي ترسم قدره. لنتأمل الإنجليز على سبيل المثال. فالعناصر التي توجه تاريخهم يمكن اختصارها في عدة أسطر: تقديس الجهد المثابر الذي يمنع التراجع أمام العقبات ويمنع اعتبار كارثة ما أمرا متعذر الإصلاح، احترام ديني للتقاليد ولكل ما أثبت الزمن صلاحيته؛ الحاجة للعمل وازدراء لتنظيرات الفكر العقيمة، احتقار الضعف، تعلق شديد بالواجب، ضبط النفس باعتباره خاصية أساسية ومصانة بعناية من خلال تربية خاصة.

بعض عيوب الطبع، التي تكون غير محتملة عند الأفراد تصبح فضائل حينما تكون جمعية، الكبرياء على سبيل المثال. فهذه الشعور مختلف جدا عن الغرور، الذي هو مجرد الحاجة للشهرة بين الناس والذي يستلزم وجود الشهود في حين أن الكبرياء لا تتطلب أي شاهد. الكبرياء الجماعية كانت من أهم المحرضات على نشاط الشعوب. بفضلها كان الجندي الروماني يجد مكافأته الكافية

في أن يكون جزءا من شعب يحكم العالم. وشجاعة اليابانيين التي لا تتزعزع في حربهم الأخيرة كانت ناتجة عن كبرياء مماثلة.

وهذا الشعور هو فوق ذلك مصدر للتقدم. فما أن تقتنع أمة ما بتفوقها حتى تدفع جهودها الضرورية إلى أقصى حدٍّ للمحافظة على تفوقها.

الطبع وليس العقل هو ما يفرق بين الشعوب ويخلق بينها مشاعر المودة أو العداوة اللدودة. العقل هو من النوع ذاته عند الجميع. بينما يقدم الطبع بالعكس من ذلك فوارق شديدة. و الشعوب المتمايزة التي تتأثر بدرجات مختلفة بالأشياء ذاتها سوف تتصرف طبعا بطرق مختلفة في ظروف تبدو متطابقة. من جهة أخرى وسواء تعلق الأمر بالشعوب أم بالأفراد، فإن الناس ينقسمون دوما بسبب تناقضات طبعهم أكثر مما ينقسمون بسبب تناقضات مصالحهم أو عقولهم.

3ـ تطور عناصر الطبع

تتطور العواطف الأساسية التي تشكل نسيج الطبع ببطء شديد على مرِّ العصور، كما يبرهن على ذلك ثبات الطباع القومية. فالمجاميع النفسية التي تشكلها تظل مستقرة تماما كما المجاميع التشريحية.

لكن توجد من حول الطباع الأساسية، وكما بالنسبة لكل الأنواع الحية، طباع ثانوية يمكنها التغير تبعا للحظة الزمنية والوسط، الخ...

وكما أشرت في الفصل السابق، فإن الموضوعات التي تتمرّس عليها العواطف هي التي تتغير. فحب العائلة ثم القبيلة ثم المدينة وأخيرا الوطن هي تكييفات لعاطفة بعينها تجاه تجمعات مختلفة وليس خلقا لعواطف جديدة. وتمثل الأممية واللاعنفية الامتدادات الأخيرة لهذه العاطفة ذاتها.

قبل ما يقارب القرن تقريبا، كانت الوطنية الألمانية غير معروفة، فقد ظلت ألمانيا مقسمة إلى مقاطعات متناحرة. وإذا ما كانت الجرمانوية الحالية تعتبر فضيلة فهذه الفضيلة ليست إلا امتداد العواطف القديمة باتجاه فئات جديدة من الأفراد.

إن الحالات العاطفية هي أشياء مستقرة جدا بحيث أن مجرد تكييفها باتجاه مواضيع جديدة يقتضي جهودا كبيرة. فمن أجل الحصول مثلا على، القليل – القليل جدا – من هذا الشكل من الغيرية، الموصوف بالتسامح. وجب كما يقول بحق السيد لافيس**Lavisse**: " أن يموت آلاف الشهداء تحت التعذيب وأن يجري الدم أنهارا في ساحات القتال ".

إنه لخطر عظيم بالنسبة لشعب ما أن يبتغي بواسطة العقل خلق عواطف مناقضة لتلك التي رسختها الطبيعة في روحه. خطأ مشابه ينيخ على صدورنا منذ الثورة. فقد نتج عنها نمو الاشتراكية التي تدعي تغيير المسار الطبيعي للأشياء وإعادة إنتاج روح الأمم.

لن نعترض على ثبات العواطف، فتحولات الشخصية المفاجئة التي نلحظها أحيانا، مثل السخاء المفرط المتحول إلى بخل شديد، والحب المتبدل إلى البغضاء، التعصب الديني المحول إلى تعصب معاد للدين الخ.... هذه التغيرات تشكل ببساطة تكييف العواطف ذاتها نحو مواضيع مختلفة.

يمكن أيضا للكثير من الأسباب المختلفة، مثل الضرورات الاقتصادية على سبيل المثال، أن تغير وجهة عواطفنا دون أن تقوم لأجل ذلك بتحويلها. وهذه التأثيرات الاقتصادية تكون قوية الأثر. فانتشار المُلكية على سبيل المثال، كانت نتيجته انخفاض نسبة المواليد نتيجة للأنانية العائلية للمالك الذي يقلقه بدرجة ما توزع ثروته. فإذا صار مواطنو بلد ما كلهم ملاّكا، فإن عدد السكان سينخفض على الأرجح وفق نسب ضخمة. إن العواطف التي تكوّن الطبع لا تحتمل تغير التوجه دون أن تُصاب الحياة الاجتماعية بالاضطراب، فالحروب الدينية والحملات الصليبية، والثورات الخ... تنتج عن مثل هذه التغيرات.

وإذا ما كان المستقبل يبدو كالحا جدا حاليا، فذلك لأن عواطف الطبقات الشعبية تتجه لتشهد توجها جديدا. وبسبب اندفاع الأوهام الاشتراكية، بات كل واحد، من العامل إلى المدرس، متذمرا من مصيره ومقتنعا بأنه يستحق مصيرا آخر. كل عامل يعتقد أنه يتعرض للاستغلال من قبل الطبقات الحاكمة ويحلم بأن يستولي على ثرواتها عبر وسائل القوة. في الميدان العاطفي تمتلك الأوهام قوة تجعلها شديدة الخطورة لأن العقل لا يؤثر فيها أبدا.

الفصل السادس

انحلال الطبع واضطرابات الشخصية

1 ـ توازن العناصر المكونة للطبع

قلنا إنَّ ثبات المجاميع المشكلة للطبع يكون بقدر ثبات المجاميع التشريحية. ومع ذلك فإن الأولى، كما الثانية، يمكنها أن تعاني اضطرابات مرضية مختلفة وحتى تفككا كاملاً.

هذه الظواهر التي لا تتعلق بميدان علم الأمراض حصرياً، تمارس تأثيرا كبيرا على تشكيل الآراء والمعتقدات. ولا يمكن تقريبا فهم أصل بعض الأحداث التاريخية دون معرفة بعض التغيرات التي يمكن أن يعانيها الطبع عرضيا.

وسوف نرى في فصل آخر أن المحركات الخالقة لآرائنا، ولمعتقداتنا ولأفعالنا، يمكن مقارنتها بأوزان توضع على كفتي ميزان، والكفة الأكثر ثقلا ترجح دوما.

وفي الواقع لا تتمّ الأمور بهذه البساطة، فالأوزان التي تمثلها الدوافع يمكنها أن تتبدل تحت تأثير اضطرابات مختلفة مؤدية لتعديل التراكيب التي تشكل الطبع. عندئذ، تتغير حساسيتنا، وينتقل سلم قيمنا، ويصبح توجه الحياة مختلفا. وهكذا تتجدد الشخصية.

ومثل هذه التغيرات تُلحظ على وجه الخصوص حينما يعاني التوازن القائم بين العناصر العاطفية وبين الوسط الاجتماعي خللاً ملحوظاً إذا ما شهد هذا الوسط الاجتماعي تحولا مفاجئا.

إن فكرة التوازن بين الوسط الذي يحيط بنا وبين العناصر التي تكوننا هي فكرة مهمة. ولأنها ليست خاصة بعلم النفس إطلاقا فهي تحكم الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا. إن أي كائن سواء كان مادة خام أم مادة حيّة، ينتج عن حالة ما من التوازن بين محيطه وبينه. ولن يسع الثاني أن يتغير دون أن يكون الأول قد تغير لساعته. إن قضيبا من الفولاذ الصلب يمكن تحت تأثير تبدل الوسط المناسب أن يتحول إلى غاز خفيف.

تخضع درجة قابلية تفكك المجاميع النفسية التي تشكل الطبع إلى متانة هذه المجاميع كما تخضع أيضا لشدة تحولات الوسط الذي تخضع له. وهذه القابلية ستتغير أيضا تبعا للتأثيرات التي جرى تحملها قبلا. والملاحظات التي شوهدت على المجاميع التشريحية شوهدت أيضا على المجاميع النفسية. انخفاض حساسية المجاميع الأولى حيال تأثير بعض الأفعال الخارجية عبر طرق متنوعة، يُدعى، كما نعلم، بالتحصين. الدراسة المستقبلية لعلم أمراض الطباع ستتضمن أيضا دراسة تحصينها.

رجل الدولة الحقيقي هو من يمتلك، مع أنه لا يزال فنا غامضا، فن معرفة تبديل توازن عناصر الطبع القومي عند الحاجة عبر معرفة الهيمنة على العناصر المفيدة لضرورات المرحلة.

2 ـ اضطرابات الشخصية

تسعى التأملات السابقة للتدليل على أن شخصيتنا يمكن أن تصبح متغيرة جدا. فهي تخضع في الواقع، كما رأينا للتو، لعاملين لا ينفصلان، الشخص ذاته ومحيطه.

الادعاء بأن شخصيتنا متحركة وقابلة لتحولات كبرى يصدم قليلا الأفكار التقليدية عن ثبات الذات. فقد ظلت وحدتها مبدأ لا يُناقش لزمن طويل. وقد جاءت أحداث كثيرة جدا لتثبت كم كانت هذه الوحدة وهمية.

ذاتنا هي حاصل جمع. يتركب من مجموع لا يحصى من ذوات خلوية. كل خلية تسهم في وحدة الذات كما يسهم كل جندي في وحدة الجيش. إن تجانس آلاف الفرديات التي تكونه ينتج فقط عن وحدة فعل تستطيع أسباب عديدة أن تدمرها.

من غير المجدي الاعتراض بأن شخصية البشر تبدو ثابتة جدا بصورة عامة. فإذا كانت لا تتغير بتاتا في الحقيقة فذلك لأن الوسط الاجتماعي يظل ثابتا تقريبا. فما أن يتغير فجأة كما في حال الثورة حتى تتغير شخصية الفرد ذاته تغيرا كاملا. وهكذا رأينا خلال عهد الرعب برجوازيين أخيارا ومعروفين برفقتهم يصبحون متعصبين دمويين. بعد انقضاء العاصفة وبالتالي استعادة الوسط القديم سلطته، استعادوا شخصيتهم المسالمة. ومنذ زمن بعيد ناقشت هذه النظرية وبينت أن حياة شخصيات الثورة لا يمكن أن تُفهم دون هذه النظرية.

من أية عناصر تتألف الذات التي تشكل مجموعه شخصيتنا؟ يظل علم النفس صامتا أمام هذه النقطة. ودون الادعاء بتوضيح

الكثير فإننا نقول أن عناصر الذات تنتج عن راسب من الشخصيات الموروثة، أي التي خلقتها سلسلة كينوناتنا السابقة كلها. وأكرر، الذات ليست وحدة، وإنما حاصل جمع ملايين من الحيوات الخلوية والتي يتشكل منها الجسم. ويمكنها خلق مجاميع عديدة.

وتقوم تحريضات انفعالية عنيفة، بعض الحالات المرضية التي يمكن ملاحظتها عند الوسطاء **médium** وعند المجذوبين **extatiques**، والأشخاص المنومين مغناطيسيا الخ..، بتغيير هذه المجاميع وبالتالي، تخلق، لحظيا على الأقل، عند الفرد نفسه شخصية مختلفة[1]، أدنى أو أسمى من الشخصية العادية. ونحن جميعا نمتلك إمكانات تأثير تتجاوز طاقتنا المعتادة والتي تقوم بعض الظروف بإيقاظها.

3 ـ العناصر المثبتة للشخصية

الرواسب الموروثة تشكل الطبقة الأعمق والأكثر استقرارا في طبع الأفراد والشعوب. وبالذات الموروثة إنما يختلف الانجليزي أو الفرنسي أو الصيني عن بعضهم البعض اختلافا عميقا.

لكن تتراكب فوق هذه التأسلات البعيدة عناصر يخلقها الوسط الاجتماعي (الفئات، الطبقات، المهن الخ...) عبر التربية وعبر تأثيرات أخرى عديدة أيضا. إنها تسم شخصيتنا بتوجه ثابت.

---

(1) تأثير بعض المواد السامة على الجسم يمكن أيضا أن ينتج عنه تفكك الشخصية. وقد قدمت سابقا، في مجلة طبية، مثالا مثيرا، استخدمه أحد الروائيين الأمريكيين فيما بعد.

ومع هذه الذات المصطنعة بعض الشيء المشكل على هذا النحو نظهر كل يوم.

العنصر الأكثر نشاطا، من بين كل العناصر المشكلة للشخصية، بعد العرق، هو العنصر الذي تحتّمه الفئة الاجتماعية التي ننتمي إليها.

إن أفراد جماعة ما: من عسكريين، وقضاة، و كهنة، وعمّال، وبحارة الخ... يقدمون عددا من الطباع المتماثلة لأن الأفكار والآراء والسلوك المتشابه المفروضين عليهم قد صبتّهم في القالب ذاته. لذا تكون آراؤهم وأحكامهم متقاربة عموما، ولأن كل فئة اجتماعية هي أداة تسوية ممتازة، فإن الأصالة غير مسموح بها وسط هذه الفئة. وأيا يكن من يحاول الاختلاف عنها ستعاديه كلها.

ليست استبدادية الفئات الاجتماعية هذه، والتي سنعود إليها، دون فائدة. فإذا لم يتخذ الناس من آراء وسلوك محيطهم دليلا لهم، فأين سيجدون الاتجاه الذهني الضروري للغالبية؟ إنهم يمتلكون بفضل المجموعة التي تضمهم طريقة للفعل ورد الفعل ثابتة بما فيه الكفاية. وبفضلها أيضا ينقاد الأشخاص ضعاف الشخصية نوعا ما ويلقون الدعم في الحياة.

ويمتلك أعضاء الفئة الاجتماعية الموجَهون على هذا النحو، بالإضافة إلى شخصية لحظية أو مستمرة لكنها معرّفة جدا، طاقة فعل لم يكن ليحلم بها مطلقا أيٌّ من الأفراد الذين يشكلون هذه الفئة أو المجموعة. فالمجازر الكبرى في الثورة لم تكن أفعالا فردية. بل كان منفذوها يتحركون في جماعات: جيرونديين، دانتونيين، أو هيبرتيين أو روبسبيريين، أو تيرميدوريين الخ..... وهذه الجماعات

أكثر منها أفرادا كانت تتقاتل حينذاك. وكان يجب إذن في قتالهم إظهار الوحشية المنيفة والتعصب ضيق الأفق، وهما السمتان الخاصتان للظواهر الجماعية العنيفة.

4 ـ صعوبة توقع السلوك الناجم عن طبع محدد

بما أن ذاتنا متبدلة وخاضعة للظروف المحيطة فلا يجب لأي شخص على الإطلاق الادعاء معرفته بشخص آخر وسطها. يمكنه فقط التأكيد أنه طالما لم تتغير الظروف فإنَّ سلوك الفرد المُلاحظ لن يتغير أبدا. مدير المكتب الذي يكتب تقارير صادقة منذ عشرين عاما سوف يتابع دون ريب كتابتها بالصدق ذاته لكن لا يجب أبدا تأكيد الأمر أكثر من اللازم. فإذا ما طرأت ظروف جديدة، هوى عنيف اجتاح ذهنه، خطر يهدد أسرته، فإن هذا البيروقراطي الذي لا شأن له يمكنه أن يصبح رذيلا أو بطلاً.

إن الاضطرابات الكبيرة للشخصية تُلاحظ بصورة حصرية تقريبا في مجال العواطف. أما في مجال العقل فتكون ضعيفة جدا. فالأحمق سيظل أحمقَ على الدوام.

التحولات الممكنة للشخصية التي تمنعنا المعرفة العميقة لأمثالنا، تمنعنا أيضا معرفة ذواتنا. فالحكمة القديمة "Nosce te ipsum اعرف نفسك بنفسك" عند الفلاسفة القدماء تعتبر نصيحة غير قابلة للتحقق. فالذات المُظهَرَة تمثل عادة شخصا كاذبا مستمارا. إنه لكذلك، ليس فقط لأننا نفترض امتلاكنا الكثير من المزايا ولا نعترف قطعا بنواقصنا، بل أيضا بسبب أنه إذا كانت الذات تحتوي

جزءا صغيرا من عناصر واعية يمكن معرفتها عند اللزوم، فإنها في جزء كبير مكونة من عناصر لاواعية لا يمكن معرفتها بالملاحظة.

الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الذات الحقيقية، وقد قلنا ذلك سابقا، هي العمل. فالمرء لا يعرف نفسه تقريبا إلا بعد أن يراقب سلوكه في ظروف محددة. الادعاء بالمعرفة المسبقة لكيفية تصرفنا في حالة محددة هو ادعاء وهمي جداً. فالمارشال نيي Ney الذي أقسم أمام لويس الثامن عشر بأن يحضر إليه نابليون في قفص حديدي كان صادقا في إيمانه، لكنه لم يكن يعرف نفسه. فقد كانت نظرة بسيطة من المعلم كافية لانهيار عزيمته، وقد دفع الماريشال التعيس حياته ثمنا لجهله بشخصيته الحقيقية. ولو كان لويس الثامن عشر أكثر معرفة بقوانين علم النفس ربما لكان عفا عنه.

وربما تبدو النظريات المعروضة في هذا الكتاب المتعلقة بالطبع متناقضة أحيانا. فمن جهة، أكدنا في الحقيقة، على ثبات العواطف التي تشكل الطبع ومن الجهة الأخرى أظهرنا التحولات الممكنة للشخصية.

وهذه التناقضات تختفي إذا ما تذكرنا النقاط التالية:

1ً - الطباع مكونة من مجاميع من عناصر عاطفية أساسية لا تتغير تقريبا، يُضاف إليها عناصر متممة تتغير بسهولة. وهذه الأخيرة تتطابق مع التعديلات التي يدخلها فنُ مُربي الحيوانات على نوع ما دون أن يغير لأجل ذلك من صفاته الأساسية.

2ً - الأنواع النفسية كما الأنواع التشريحية تخضع خضوعا تاما لمحيطها. ينبغي لها أن تتكيف مع كل تغيرات هذا المحيط

وهي تتكيف معها في الحقيقة عندما لا تكون هذه التغيرات كبيرة جدا أو مفاجئة جدا.

3 ـ العواطف ذاتها قد تبدو أنها تتغير عندما تتصب على موضوعات مختلفة مع أن طبيعتها الحقيقية لم تشهد أي تغير، فالحب البشري المتحول إلى حب ديني في بعض حالات الاهتداء هو عاطفة غيرت اسمها ولم تغير طبيعتها.

كل هذه التأكيدات لها فائدة عملية جدا، لأنها في أساس عدة مسائل حديثة هامة، ومسألة التربية بصورة خاصة.

بعد ملاحظة أن هذه الأخيرة أي التربية تغير العقل، أو على الأقل مجمل المعارف الفردية، استنتج البعض أنه يمكنها أيضا أن تغير العواطف. وهذا يعني أن ننسى تماما أن الحالات العاطفية والعقلية لا تشهد تطورا متوازيا واحدا.

وكلما تعمق المرء في الموضوع بات مضطرا للاعتراف بأن التربية والمؤسسات السياسية تلعب دورا ضعيفا جدا في مصير الأفراد والشعوب.

هذه النظرية، المعاكسة أصلا لمعتقداتنا الديمقراطية، تخالفها أيضا، كما يبدو أحيانا، الوقائع الملحوظة عند بعض الشعوب الحديثة وهذا ما سيمنعها دائما من أن تكون مقبولة بسهولة.

في المقدمة التي تفضّل واحداً من بين ألمع رجال الدولة في الشرق الأقصى، البارون موتونو **Motono**، السفير الياباني في سان ــ

بطرسبورغ، بكتابتها من أجل الطبعة اليابانية لأحد كتبي[1]، واجهني معترضا بعدة تغيرات حصلت في الذهنية اليابانية بتأثير الأفكار الأوروبية. أنا لا أعتقد مع ذلك أن هذه التغيرات تبرهن على تعديل حقيقي في هذه الذهنية. فالأفكار الأوروبية دخلت ببساطة في الهيكل الموروث عن الأجداد في الروح اليابانية دون أن تعدل من أقسامه الأساسية. إن استبدال المقلاع بالمدفع قد يغير مصير شعب ما دون أن يحول لأجل ذلك من طباعه القومية.

ويبدو أننا سنستخلص من هذا الفصل أنَّ الآراء والسلوك بوصفهما محددين بأسباب بعيدة جدا عن الإرادة، فإن حريتنا ستكون محدودة جدا. وهي كذلك في الواقع. وسوف نرى مع ذلك أنه يمكن أن نناضل بفاعلية ضد الحتميات التي تثقل على عواطفنا وعلى أفكارنا.

---

[1] نشرته الجمعية التي أسسها الكونت أوكيما OKUMA، وزير الشؤون الخارجية بهدف ترجمة أشهر الأعمال الكلاسيكية التي ظهرت في أوروبا.

الكتاب الثالث

أشكال المنطق المختلفة المؤثرة في الآراء والمعتقدات

الفصل الأول: تصنيف أشكال المنطق المختلفة.

الفصل الثاني: المنطق البيولوجي.

الفصل الثالث: المنطق العاطفي والمنطق الجمعي.

الفصل الرابع: المنطق الديني.

الفصل الخامس: المنطق العقلي.

الفصل الأول

تصنيف أشكال المنطق المختلفة

1 ـ هل توجد أشكال مختلفة من المنطق؟

نُظر إلى المنطق حتى الآن بوصفه فن التفكير والبرهنة. بيد أن العيش يعني الفعل وليست البرهنة هي في أغلب الأحيان من تدفع للفعل.

سوف نبين في هذا الفصل والفصول اللاحقة أن مختلف حقول النشاط الحيوي والنفسي، التي عددناها سابقا، تديرها أشكال مختلفة من المنطق.

ولأن الفعل يمثل برأينا المعيار الوحيد لمنطق ما، فإن أشكال المنطق التي تقود إلى نتائج غير متماثلة سنعتبرها أشكالاً مختلفة منه.

لا ينبغي لعالم النفس أن يبحث بصورة منفردة في أي فعل كان لا عن الغاية المقصودة ولا عن الوسائل المستخدمة ولا عن النجاح ولا عن عدم النجاح. العناصر الوحيدة المثيرة لاهتمامه ستكون الدوافع المولدة لهذا الفعل. فثمة أفعال كريمة أو إجرامية، ماهرة أو خرقاء، وليس في الأمر ما هو غير منطقي. فهي ببساطة ناجمة عن أشكال

من المنطق مختلفة ولا يستطيع أحد استخدامها حصرا للحكم على الآخرين.

المنطق العقلي على سبيل المثال مختلف جدا عن المنطقين الصوفي أو العاطفي لذا لن نستطيع تفسيرهما ولا حتى فهمهما. ولأنهما يقودان إلى أفعال متناقضة غالبا، فإنه ينبغي أن يتمّ الفصل بينهما. وكذلك الأمر بالنسبة للمنطق الجمعي والمنطق العاطفي.

اعتبار أشكال المنطق المولّدة لنتائج غير متماثلة أشكالا مختلفة يعني ببساطة تطبيق قاعدة التصنيف التي تفرز ظواهر متباينة جدا إلى فئات مختلفة بحيث لا يمكن الخلط بينها.

2 ـ أشكال المنطق الخمسة

يستطيع المرء كما نعتقد تحديد خمسة أشكال للمنطق: 1ً- المنطق البيولوجي ؛ 2ً- المنطق العاطفي؛ 3ً – المنطق الجمعي ؛ 4ً- المنطق الروحاني ؛ 5ً – المنطق العقلي. وسوف نكتفي الآن بأن نوجز باختصار صفات كلٍّ منها، مع وجوب تكريس فصول خاصة لكل منها.

المنطق البيولوجي: الأسباب التي دفعتنا لتحديد هذا الشكل من المنطق قد تكون أطول مما يمكن تعداده هنا. وسوف نوردها في الفصل المكرس لدراسته. لنقل ببساطة الآن أن المنطق البيولوجي الذي ينظم حفظ الكائنات وإبداع أشكالها، لا يحمل أي أثر لتأثير إراداتنا، بل ينتج التكيفات الموجَهة في اتجاه محدد من قبل قوى لا نعرفها نحن. ويبدو أن هذه القوى تتحرك كما لو أنها كانت تمتلك

عقلا أسمى من عقلنا ، ولا تتصرف بشكل ميكانيكي لأن فعلها يتغير في كل لحظة تبعا للغاية المطلوب انجازها.

إلحاق المنطق البيولوجي بالأشكال الأخرى من المنطق، وهو الذي يهيمن من أعلى قمة على معظم الأشكال الأخرى لن يؤدي إلا لسد فجوة تخفيها النظريات الميتافيزيقية القديمة.

المنطق العاطفي: كان علماء النفس يعرفون سابقا المنطق العقلي فقط، وقد بدؤوا يضيفون إليه المنطق العاطفي أو منطق العواطف، المختلف حتما عن المنطق العقلي. هذان الشكلان من المنطق يختلفان على الأخص في أن الترابطات العقلية يمكن أن تكون واعية في حين أن ترابطات الحالات العاطفية تظل غير واعية. المنطق العاطفي يقود معظم أفعالنا.

المنطق الجمعي: هذا الشكل من المنطق لا ينبغي خلطه مع المنطق السابق. فقد بينّا منذ عدة سنوات مضت، أن الإنسان ضمن الجمهور يتصرف بطريقة مختلفة عن الإنسان المنفرد. إنه إذن ينقاد لمنطق خاص، لأنه يقتضي وجود عناصر يمكن ملاحظتها فقط ضمن الجماهير.

المنطق الديني: هذا الشكل من المنطق هو نتاج حالة خاصة للذهن، تدعى بالدينية. كانت عامة في الأزمنة الأولى من عمر البشرية، ويبدو أنها لا تزال منتشرة بقوة. بالنسبة للذهنيات الدينية ليس في ترابط الأشياء أي انتظام ؛ فهو يخضع لكائنات أو قوى عظمى نخضع نحن ببساطة لإراداتها.

لقد حدد المنطق الديني ويحدد دائما عددا كبيرا من أفعال الغالبية العظمى من البشر. وهذا المنطق يختلف كما سنرى عن منطق العواطف اللاواعي، ليس فقط لأنه منطق واعي ويقتضي

تداولا ما، بل لأن تأثيره يمكن أن يخلّف أفعالا مناقضة كليا لتلك التي يمليها المنطق العاطفي.

المنطق العقلي: هذا المنطق هو فن جمع تمثلات ذهنية إراديا وإدراك تماثلها و اختلافها، أي علاقاتها.

إنه الوحيد تقريبا الذي قد يكون شغل علماء النفس به. فقد كرسوا له كتبا لا تُحصى منذ أيام أرسطو وحتى اليوم.

3 ـ تواجد أشكال المنطق المختلفة معاً

كل أشكال المنطق التي سبق ذكرها يمكنها أن تتراكب، أو أن تندمج، أو أن تتصارع عند الأشخاص ذاتهم، تبعا للزمن والأعراق، وقد يحدث لبعضها أن يهيمن أحيانا لكن دون أن يلغي أبدا الأشكال الأخرى تماما.

فالمنطق العاطفي كان يقود جنرالا من أثينا، غيورا من منافسيه، لأن يعلن الحرب عليهم. وجعله المنطق الديني يستشير العرافات حول الموعد المفيد للبدء بالعمليات الحربية. المنطق العقلي كان يقود تكتيكه، وخلال كل هذه الأعمال يجعله المنطق البيولوجي يحرص على حياته.

الدراسة اللاحقة لمختلف أشكال المنطق التي جرى ذكرها سابقا، ستجعلنا نعمق فهمنا لصفاتها. ولن يتوجب على القارئ أن يتوقع رؤية انكشاف آلية عملها. فهذه نادرا ما تُعرف، يستوي في ذلك ما يتعلق بالمنطق العقلي مع أنه الأكثر دراسة، مع ما يتعلق بالأشكال الأخرى.

لا يثبت وجود الأشكال المختلفة من المنطق إلا عبر نتائجها. إنَّها تمثل مسلمات تؤكد صحتها فقط النتائج التي تترتب عليها. العلوم الأشد دقة، الفيزياء على سبيل المثال، مجبرة أيضا على أن تضع في قاعدتها فرضيات محض تتحول إلى حقائق محتملة عندما تثبت ضرورتها.

كل تفسيرات الضوء، والحرارة، والكهرباء، أي الفيزياء بأكملها تقريبا، تستند إلى فرضية الأثير. وقد توجب أن ننسب إلى هذا المادة المجهولة تماما خصائص غير مفهومة وحتى غير متوافقة، مثل صلابة أعلى من صلابة الفولاذ، على الرغم من أن الأجسام المادية تتحرك ضمنها دون صعوبة. أية ظاهرة جديدة سوف تجبر علماء الفيزياء على إعطاء الأثير خواص جديدة مناقضة أحيانا لتلك المقبولة سابقا. وهكذا بعد أن افتُرض أن له كثافة أضعف إلى أقصى حد من كثافة الغاز فقد نُسبت له الآن كثافة أعلى بمليون مرة من كثافة أثقل المعادن.

فإذا كانت دراسة العلوم الأكثر دقة مثل الفيزياء تقتضي وضع بعض الفرضيات، فليس على المرء أن يُدهش لرؤيتنا نسلك الطريقة ذاتها في علم أكثر تعقيدا هو علم النفس.

لا يؤكد الفيزيائي أن الأثير موجود يقول فقط أن الأمور تجري كما لو أن الأثير كان موجودا وأن كل ظاهرة ستظل غير مفهومة دون هذا الوجود المفترض.

ونحن لا نؤكد كذلك أنه توجد أشكال من المنطق تؤلف وحدات متباينة، نقول فقط إنها ضرورية وإن الأشياء تحدث كما لو أنها كانت موجودة فعلا.

الفصل الثاني

المنطق البيولوجي

1 ـ دور المنطق البيولوجي

الظواهر الحيوية الأكثر بساطة في الظاهر، مثل تلك المعاينة عند الكائنات الحية المكونة من خلية واحدة، هي دائما ذات تعقيد أقصى. وتخضع تمظهراتها لترابطات صارمة مماثلة لتلك التي نطلق عليها اسم المنطق، عندما تتطبق على عناصر عقلية. وليس ثمة داع لعدم الإشارة إليها بالعبارة ذاتها.

يقود المنطق البيولوجي كل ظواهر الحياة العضوية. فالأفعال المنجزة من قبل مختلف خلايا الجسم، بمعزل عن كل مساهمة واعية، ليس لها أية صفة من صفات الحتمية الآلية، وهي تتغير تبعا للضرورات اليومية. وتبدو منقادة من قبل عقل خاص مختلف جدا عن عقلنا وأكثر ثقة غالبا. ومن أجل إثبات ذلك سيكفي أن نذكر ما كنت قد كتبته حول هذا الموضوع في كتابي حول *تطور المادة* **l'Evolution de la matière**:

" الأبنية الذرية التي توصلت الخلايا الميكروسكوبية لصناعتها، تتضمن ليس فقط أمهر

عمليات مخابرنا: الأثيَرة، الأكسدة، الاختزال الخ بل عمليات أخرى أكثر تعقيدا لن يكون بوسعنا نحن تقليدها. تبني الخلايا الحيوية باستخدام وسائل لا تخطر على البال هذه المركبات المعقدة والمتنوعة: الآحينية، السيلولوزية، الدهون، النشاء الخ... الضرورية للحفاظ على الحياة. كما تعرف كيف تفكك الأجسام الأكثر استقرارا مثل كلور الصوديوم، واستخراج الآزوت من أملاح الأمونياك والفسفور من الفوسفات الخ....

" إن العالم القادر على أن يحلّ بعقله المسائل التي تحلُّها في كل لحظة خلايا المخلوق الخاص البسيطة، سيكون أسمى من الناس الآخرين لدرجة أننا يمكن أن نعتبره إلها."

إن أعمال الحياة البيولوجية تبين حيثما تقع ضرورة التغير دون توقف. فلو أُدخل جسم عديم الفائدة، أو خطر إلى الجسم سيجري تحييده أو رفضه، أما الجسم المفيد فعلى العكس سوف يُرسل إلى أجهزة مختلفة ويتعرض لتحولات فيزيائية معقدة جدا. وهذه الآلاف من العمليات الصغيرة الجزئية تتشابك دون أن تتعرض للخلل لأنها موجهة بدقة كاملة. ومنذ اللحظة التي يتوقف فيها المنطق الصارم الموجه للمراكز العصبية فإن ذلك يعني الموت.

إن هذه المراكز العصبية تشكل إذن ما يمكن لنا أن ندعوه بمراكز التفكير البيولوجي. فهي توجه الحياة وتحميها وذلك

بخلقها تبعا للظروف عناصر دفاعية متنوعة. وكما قال بحق الدكتور بوني **Bonnier**: " إنها تعرف أفضل من أي عالم تشريح، أو أي طبيب، ما الذي يفيد الجهاز المريض. إن إيقاظها من خمولها حينما يحدث هو الدور الوحيد الممكن للعلم الأكثر تقدما ".

حينما تتطور إحدى الخلايا نحو شكل ما، وحينما يجدد الحيوان بصورة كلية عضوا مقطوعا، مع أعصابه وعضلاته وأوعيته، فإننا نرى أن المنطق البيولوجي يخلق من أجل هذه الحوادث غير المتوقعة، سلسلة من الظواهر التي لن يسع أي جهد يبذله المنطق العقلي تقليده ولا حتى فهمه. المنطق البيولوجي هو من يعلم العصفور آلية الطيران وكيف عليه أن يتكيف تبعا للظروف. لقد كانت عصور طويلة لازمة للإنسان لكي يتيح له منطقه العقلي أن يقلده قليلاً.

هذه الدقة التي تتمتع بها الأفعال الحيوية، تكيفها اليومي مع شروط متغيرة باستمرار، قابليتها للدفاع عن الجسم ضد اعتداءات العالم الخارجي غير المتوقعة، جعلتنا نعتبر تعبير المنطق البيولوجي ضرورياً[1].

---

[1] التكيف الدائم مع عناصر متغيرة دائما، دقة االطرائق المستخدمة من قبل الأعضاء التي تعمل تحت تأثير المنطق البيولوجي يتضحان تماما في اللوحة التالية للدكتور س. ارتو S.Artault عن صراع العضوية ضد الميكروبات والتي ألخصها قليلا.

جيشان يتواجهان: أحدهما داخل أسواره المحصنة (العضوية) والآخر جاء لاجتياحها (بكتيريا الخ..).منذ أن بدأت أولى الأعمال الدفاعية واستطاع العدو الدخول من خلال بعض الثغرات إلى الساحة، حتى يبدأ القائد العام (المركز السيمباتي) بتزويد قطعاته بالمحرضات (--

ينظم المنطق البيولوجي استمرارية الفرد واستمرارية النوع الذي ينتمي إليه. الحياة الفردية سريعة الزوال جدا؛ أما حياة النوع فهي أطول بكثير، لكنها ليست خالدة، لأن أيا من الأنواع الجيولوجية التي اكتشفنا بقاياها، لم يدم حتى أيامنا الراهنة. فقد سبقها آخرون ولحقها آخرون لمدد محدودة أيضا.

ويبدو أن الأنواع وقد ترسخت طويلا بسبب إرث الأسلاف الثقيل تندثر حينما لا تعود قادرة مجددا على التكيف مع تغيرات الوسط. هذه القصة من العالم النباتي والعالم الحيواني هي أيضا قصة الكثير من الشعوب.

تتميز طفولة نوع ما، وفرد ما أو شعب ما بليونة مفرطة تتيح له التكيف مع كافة تغيرات الوسط. و بعكس ذلك فإن شيخوخته تترافق مع قساوة تمنع التكيف.

أبسولين). فتحمل (الكريات البيض) وقد انفتحت شهيتها بذلك على النقطة التي تمّ الهجوم عليها عندئذ تبدأ معركة ضارية وتدمير الغزاة الذين يجري التهام جثثهم في الحال (البلعمة). عندئذ ينظم القائد الدفاع الإقليمي عبر توزيع نخبته المقاتلة المجربة والمتأهبة التي تسحق كل محاولة جديدة لهذا العدو الذي بات معروفا (اكتساب المناعة).. "لكن الصراع يمتد أحيانا ،فالوحدات المحلية المرهقة نوعا ما تنسحب أو تصمد في مواقعها.عندئذ يرسل لها جيش الحصار الذي ما يزال في مواقعه رشقات من القذائف الخانقة (ذيفانات ومولدات أضداد). في أغلب الأحيان، تتصدى الأنسجة لهذا الهجوم الغادر بإطلاق منتجات تقوم بإبادة أو تحييد المهاجمين (مضادات للسمّين وأجسام مضادة).

نفهم إذن، وبسهولة، أن تحولات الوسط القادرة على القيام بتطوير كائن ما في بدايات وجوده يمكنها أن تقتله عند شيخوخته. وهذا يفسر لنا لماذا تتدثر الشعوب الهرمة جدا حينما تتوقف عن التجدد.

لو كان المنطق البيولوجي يقتصر على تنظيم وظائف الحياة، لكنا عند اللزوم أهملنا دراسته، لكنه يضع تحت سلطته أيضا عوامل هامة للآراء والمعتقدات وبالتالي للسلوك.

بما أن العواطف اتخذت من الحياة سندا لها، فإننا ندرك أن المنطق البيولوجي ليس فقط يؤثر على المنطق العاطفي بل ربما يبدو أحيانا مختلطا به. وكلا الاثنين لا يكفان عن أن يظلا منفصلين بوضوح أقل، كون الحياة البيولوجية هي ببساطة الأرضية التي تتفتح فوقها الحياة العاطفية.

يظل من الغريب إذن أن يتجاهل علماء النفس المنطق البيولوجي. فهو الأكثر أهمية من بين كل أشكال المنطق لأنه الأكثر حسما. فحينما يأمر، يطيعه الآخرون.

2 ـ المنطق البيولوجي والغرائز.

الاختلافات بين المنطقين البيولوجي والعاطفي تكشفها أيضا دراسة الظواهر المتغيرة، المخلوطة عادة تحت اسم الغريزة. وكان بيرغسون محقا عندما فصل الغريزة عن العقل، لكنه لم يكن محقا إلا جزئيا. فطائفة من الغرائز ليست إلا عادات عقلية أو عاطفية متراكمة بالوراثة. فيما يتعلق بالظواهر البيولوجية، ليست الظواهر الأكثر بساطة مثل الجوع والحب فحسب، لكن أيضا

تلك الشديدة التعقيد المرصودة عند الحشرات، فإن انفصالها عن العقل يبدو كاملا.

إن دراسة بعض أشكال الغرائز أمر في غاية الصعوبة. وينبغي، لكي نلقي عليه بعض الأضواء، التخلي عن كل أفكار علم النفس التقليدي.

ينبغي القبول، في الواقع أن المخلوقات الأكثر دونية تستطيع، مستخدمة طرائق غير معروفة لكنها لا تقبل الجدل لأننا نشهدها، التصرف في بعض الحالات كما قد يفعل الإنسان الذي يقوده عقل رفيع المستوى.

وهذا العقل لا يظهر فقط عند الكائنات الراقية نسبيا، مثل الحشرات، بل في جسم بدائي جدا دون جنس أو شكل، مثل جسم وحيدات الخلية، التي تحدد مطلع الحياة. وعندما تريد الأميبيا وهي كُرية بسيطة من البروتوبلازما المكونة هي ذاتها من حبيبيات حية، الانقضاض على فريستها، تنفذ أعمالا متكيفة مع الهدف المطلوب القيام به، وتتغير تبعا للظروف، كما لو أن مشروع الكائن هذا كان يستطيع انجاز بعض العمليات العقلية. ويعلن داروين، عند معاينته إجراءات العناية الدقيقة التي تتخذها بعض الحشرات لحماية البيوض التي ستعطي يرقات ذات شكل مختلف جدا عن شكلها والتي لن تراها في أغلب الأحيان، : " من غير المجدي التفكير في هذا الموضوع ".

من المؤكد أن قوانين المنطق البيولوجي تظل غير مفهومة لكن ينبغي علينا أن نثبت باهتمام شديد آثاره لنبرهن أنها ليست مشروطة مطلقا بهذا النوع من القوة العمياء التي نطلق عليها اسم الغريزة.

وبالعكس من ذلك، فما من شيء أكثر بصيرة من ترابطات المنطق البيولوجي. صحيح أن آلية عمله تظل مجهولة لكن معنى جهده يكون مقبولا. فهو يهدف دائما لأن يخلق لدى الفرد الوسائل الضرورية إن كان لخلوده عبر التناسل أم لتكيفه مع الشروط الخارجية.

وهذه الوسائل ذات مهارة تتجاوز إمكانياتنا. وقد بين علماء طبيعة عديدون منهم بلانشار **Blanchard** وفابر **Fabre** الخ... كمال أفعال بعض الحشرات وكذلك أيضا بصيرتها وأهليتها لتغير سلوكها تبعا للظروف. فهي تعرف مثلا تغيير نوعية المواد الغذائية المعدة ليرقاتها بحسب ما يجب أن تكون عليه هذه اليرقات ذكورا أم إناثا. بعض الحشرات ليست لاحمة على الإطلاق بيد أن يرقاتها لا تستطيع التغذي إلا على فرائس حية، لذا تصيبها بالشلل بحيث يمكنها الانتظار دون أن تتحلل حتى موعد تفقيص الكائنات التي سوف تفترسها هذه اليرقات. تنفيذ شلل مشابه سيكون عملية صعبة بالنسبة لعالم تشريح خبير، ولكنها مع ذلك لا تربك الحشرة على الإطلاق. فهذه تتقن مهاجمة من بين مغمدات الأجنحة فقط تلك التي تكون مراكزها العصبية المحركة متقاربة حتى درجة تلامسها، الأمر الذي يسمح للحشرة بإحداث الشلل فيها بنخسة إبرة واحدة. من بين الأعداد الهائلة لمغمدات الأجنحة، ثمة فصيلتان فقط، هما السوسيات ونافخات البقر، تحققان هذه الشروط. ويقرّ فابر أنه يُضاف إلى الغريزة العامة للحشرة التي توجهها في الأعمال الثابتة لنوعها، شيء ما من " الوعي والكَمول بالتجربة. ولأني لا أجرؤ على تسمية هذه الأهلية الفطرية عقلا، لأنه أمر غاية في التطور بالنسبة لها، فإني سأسميه بصيرة **discernement**. "

ما يصفها فابر ب " البصيرة " تعطي نتائج ربما كان من الصعب جدا على العالم الأكثر فطنة إدراكها. وهكذا كان مضطرا للاستنتاج بأن: " الحشرة تدهشنا وترعبنا بنفاذ بصيرتها ".

وقائع كثيرة من المرتبة ذاتها لحظها عالم أكاديمي هو غاستون بونيي عند النمل والنحل، قادته لأن ينسب للحشرات موهبة سماها الاستدلال الجمعي **raisonnement collectif**.

فقد بين كيف تخضع النحلات بشدة للأوامر المقررة من قبل لجنة قيادة الخلية " والمتغيرة تبعا للمعلومات التي تنقلها العاملات الباحثات الموفدات كل صباح إلى الجوار. تنطلق الحشرة من الخلية مزودة بهذا الأمر أو ذاك وتنفذه حرفيا. فإذا على سبيل المثال أرسلتها اللجنة لإحضار الماء من حوض ما فسيكون من دون جدوى أن ينشر أحد ما إلى جانبه قطرات من الشراب أو العسل، لأن الحشرة لن تمسها أبدا. والحشرات المكلفة بجمع الرحيق لن تنشغل بجمع غبار الطلع، الخ...

التنظيم الاجتماعي لهذه الكائنات الصغيرة منظم بدقة،. فالخلية، يقول الكاتب نفسه، "تقدم مثالا كاملا للبناء المكافئ لاشتراكية الدولة. فلا حبٌ ولا إخلاص ولا شفقة أو حسنة؛ فالكل يُضحى به في سبيل المجتمع والحفاظ عليه عبر عمل دائب.. ليس ثمة حكومة ولا قادة، انضباط دون خضوع. إنه المثال الأعلى للمشاعية المحققة. "

هذه الوقائع، المتضاعفة عددا بالمراقبة، أربكت أكثر فأكثر معتنقي علم النفس العقلاني القديم. لقد كانوا سابقا يمتلكون من أجل تفسيرها كلمة ذهبية هي:الغريزة ؛ لكن ينبغي

أن نلاحظ جيدا أن نسقا كاملا من الظواهر المجهولة فعلا يلوذ خلف هذه اللفظة المبتذلة.

كانت الغريزة في السابق تُعتبر نوعا من الحاسة الدائمة، تمنحها الطبيعة للحيوانات لحظة تكونها بالذات، لتقودها في أفعالها الحياتية، كما يقود الراعي قطيعه. وكان ديكارت قد اعتبر الحيوانات مجرد ذاتيي الحركة وهذه الآلية العجيبة كانت تبدو له بسيطة جدا.

بعد أن دُرست الحيوانات جيدا، وجب الاعتراف بقابلية تغير هذه الغرائز التي يُزعم ثباتها. فالنحلة، على سبيل المثال، تعرف تماما كيف تغير خليتها عندما يصبح ذلك ضروريا. في مذكرة بعنوان: تدرج واستكمال الغريزة عند دبابير إفريقيا الوحيدة مدرجة ضمن تقارير أكاديمية العلوم بتاريخ 19 تشرين الأول لعام 1908 بيّن السيد روبو **M. Roubaud** أنه يوجد بين أصناف نوع السيناغري " فروقات شديدة التباين، لدرجة أنه يمكن خلالها تتبع المراحل الرئيسة لتطور أكيد لغريزة الزنابير الوحيدة نحو غريزة الدبابير الاجتماعية ". ومما لاشك فيه فإن الأعشاش، المنعزلة بداية، تمثل قبل أن تتقارب الشكل البدائي لمستعمرات الدبابير الاجتماعية.

الوقائع المدروسة عند الحشرات تُشاهد عند الحيوانات العليا أيضا. فهذه الحيوانات قادرة على القيام بأفعال قد تستلزم علما رفيعا فيما لو كان المنطق العقلي هو من يجب أن يمليها. مثل على سبيل المثال تخزين زاد من القوة الحية **force vive** من أجل الارتفاع في الهواء دون جهد. هذه النتيجة يحققها الكثير من الطيور: السنونو، الصقور الخ.. التي تهبط عند مطاردة الفريسة، من ارتفاع شاهق.. تطوي أجنحتها وتترك نفسها تسقط متبعة مسار قطع

مكافئ ومستخدمة لكي تصعد ثانية إلى الجو القوة الحية الناتجة عن سقوطها وهذه القوة كبيرة وتساوي نصف ناتج ضرب الكتلة بمربع السرعة. كما يعرف الطير أيضا تخزين الطاقة التي يجدها في التيارات الهوائية الهابطة ويتكيف في الحال باستخدام حركات مناسبة مع التغيرات المفاجئة لاتجاه الريح.

إن مصطلح المنطق البيولوجي الذي ابتدعناه لا يسعه بالتأكيد أن يشكل تفسيراً، لكنه يمتلك على الأقل ميزة أن يبرهن على أن كل الأفعال، التي يُزعم أنها غريزية عند الحيوانات ينبغي استبعادها من مجال القوى العمياء هذا حيث كان البعض يحاول حشرها حتى الآن.

التخلي عن تفسيرات الآلية المحض كتفسيرات ديكارت، يعني أننا نفهم في الوقت ذاته أنه يوجد مجال فسيح من الحياة النفسية 'غير مستكشف تماما، والذي لا نكاد نستشف وجوده.

الوقائع التي سبقت تبدو بعيدة نوعا ما عن هدف هذا الكتاب. ولكنها مع ذلك تشكل جزءا أساسيا فيه.

حينما سندرس صنّاع آرائنا ومعتقداتنا لا ينبغي أن ننسى أنه تحت سطح الأشياء يختبئ عالم من القوى البعيدة عن تناول عقلنا، أشد قوة من هذا العقل والتي تقوده أحيانا.

وإذا ما بقينا في مجال الحقائق التي يمكن تلمسها، فإننا سنلخص هذا الفصل بالقول أنَّ المنطق البيولوجي سبق كل أشكال المنطق الأخرى وأن الحياة ستكون مستحيلة دونه. وإذا ما توقف فعله فإن كوكبنا سيصبح مجددا صحراء كئيبة، نهبا لقوى الطبيعة الغاشمة، أي لقوى غير منظمة بعد.

الفصل الثالث

المنطق العاطفي والمنطق الجمعي

1 ـ المنطق العاطفي

جرى التمييز منذ زمن بعيد داخل النفس الإنسانية بين حقل العاطفة وحقل العقل. منذ عهد قريب فقط، بدأ الحديث عن منطق العواطف.

قبل الوصول إلى التفريق بين المنطق العقلي ومنطق العواطف، كان يجب بداية الاعتراف بأن الحياة العاطفية تمتلك وجودا مستقلا غير خاضع للحياة العقلية.

لقد ظهرت هذه الأخيرة في وقت متأخر جدا من تاريخ العالم، في حين أن الوجود العاطفي والمنطق الذي اقتضاه قادا الكائنات الحية منذ العصور الجيولوجية السحيقة. فالجميع أحسُّوا قبل أن يعرفوا. والحيوانات، المُسيّرة فقط بالمنطق البيولوجي والمنطق العاطفي، عاشت وأنجزت قدرها على أكمل وجه. فالدجاجة تعرف كيف تربي فراخها، وتوجههم، وتعلمهم كيف يتغذون، وتحميهم من أعدائهم. هذه العمليات يزدريها بعض الشيء علماء النفس الذين يتجنبون على هذا النحو الجهود الضرورية لفهمها.

حينما لم نكن نعترف إلا بالمنطق العقلاني، فإن كل أحكامنا كانت تبدو ذات منشأ عقلي محض. وهكذا الأمر في المسائل العلمية، لكنه نادرا جدا في الموضوعات المألوفة المتشكلة في الحياة اليومية. فعندئذ يكون المنطق العاطفي هو في أغلب الأحيان ما يستندون إليه ويصبح على هذا النحو دليلنا الحقيقي.

وأخذنا نشهد أكثر فأكثر دقة هذا الطرح الأساسي كلما ازداد فهمنا لتأثير العناصر العاطفية. في هذا المجال المضاء بأنوار ليست أنوار العقل، تنتظم الأشياء وفقا لقواعد صارمة غريبة جدا عن منطقنا العقلي.

إن المنطق العاطفي المتروك حتى الآن لفنتازيا الروائيين والشعراء مقدّرٌ له أن يلعب دورا راجحا في علم نفس المستقبل. وكما قال ريبو **Ribot** محقا، " المكانة الأولى هي للتأثيرات العاطفية في الحياة النفسية. ولا تبدو المعرفة هي السيدة بل الخادمة. "

2 ـ مقارنة بين المنطق العاطفي والمنطق العقلي

ستتضح الصفات الخاصة بكلٍّ من المنطقين العقلي العاطفي من خلال المقارنة بينهما. المنطق العقلي يدير حلقة النشاط الذهني الواعي. المنطق العاطفي يحكم حلقة النشاط الذهني اللاواعي.

كون ترابطات المنطق العاطفي لاواعية فإن تطور عواطفنا يظلُّ صعب الفهم قليلاً. نحن سادة حياتنا العقلية لكننا لسنا سادة حياتنا العاطفية. المودة والكراهية يمكن لجمهما لكن لا يمكن التحكم فيهما.

المنطق العاطفي والمنطق العقلي مختلفان جدا لدرجة ألّا يمتلكان مقياسا مشتركا. يستحيل إذن، وقد ذكرت ذلك سابقا، التعبير بدقة عن العناصر العاطفية بكلمات عقلية. ولن يسع المنطق العقلي لا أن يفهم ولا أن يترجم ولا أن يقيّم الأفعال التي يمليها منطق العواطف.

الكلمات التي نحاول أن نمثل العواطف بها، تترجم هذه العواطف بطريقة سيئة جدا. وهي لا تنجح في ذلك بعض الشيء إلا عن طريق الترابط. إذ أن عادة ربط العواطف بصوت بعض الكلمات تمنح هذه الكلمات القدرة على استحضار بعض التمثلات الذهنية العاطفية.

الموسيقا، وهي اللغة الحقيقية للعواطف، تستحضرها أفضل بكثير مما تفعل الكلمات، ولكن نظرا لغياب الدقة، فإنها لا تتيح إلا علاقات مبهمة جدا بين الكائنات.

في أغلب الأحيان يفرض المنطق العاطفي متجاهلا المنطق العقلي قرارا قبل أن ينهي هذا الأخير مداولته. فالأول لا يأخذ بعين الاعتبار لا الأسباب ولا التناقضات ولا المبادئ.

يستند المنطق العقلي إلى عناصر مستمدة من التجربة والملاحظة. وهذه العناصر مكونة من وقائع محددة، منعزلة، قابلة للقياس. أما المنطق العاطفي فلا سند له إلا عناصر ذاتية متشكلة داخلنا ولا يسع أي مقياس أن يقدر قيمتها بدقة. لهذا السبب تظل التمثلات الذهنية الواعية التي يخلقها المنطق العاطفي غير واضحة دائما.

يمكن للأفكار في المنطق العقلي أن تترابط وفقا لبعض القواعد المقبولة بالعموم. في المنطق العاطفي، تتجمع العواطف عادة بعيدا عن إرادتنا وحسب آلية محددة لكنها غير معروفة تماما.

بالأكثر يمكننا القول إنَّ بعض العواطف تقوم بخلق عواطف أخرى والتي ترتبط معها. فالألم يوّلد الحزن والحب يخلق الفرح والغضب الرغبة في الثأر. الخ...

بسبب طابعها الموضوعي تُطبق قواعد المنطق العقلي بالطريقة ذاتها من قبل كل الأشخاص الذين وصلوا إلى درجة معينة من الثقافة. لذلك يخلصون دائما، في المواضيع العلمية، إلى الاتفاق دائما. المنطق العاطفي يتغير بالعكس من ذلك بين موضوع وآخر لأن عواطف الأفراد مختلفة جدا. وفي جميع المجالات التي يديرها: المعتقدات الدينية، الأخلاقية، السياسية، الخ... يكون الاتفاق لهذا السبب مستحيلا.

ولأن قواعد المنطق العاطفي لا تستطيع أن تكون عامة مثل قواعد المنطق العقلي، ، فإن أيَّ بحث أو كتاب في المنطق العاطفي يُعتبر صحيحا في نظر فرد ما أو مجموعة ما من الأفراد قد لا يكون كذلك في نظر الآخرين. بالعكس من ذلك يمتلك كتاب في المنطق العقلي قيمة ثابتة بالنسبة للجميع.

تبين التأملات السابقة أن الأشياء ذاتها تبدو مختلفة بالضرورة حسبما تعرض من وجهة نظر المنطق العاطفي أو وجهة نظر المنطق العقلي. ويتمثل الخطأ العام في محاولة أن نحكم بالعقل على ظواهر يحكمها منطق العواطف.

على الرغم من أن قوانين المنطق العاطفي معروفة بدرجة قليلة جدا، فقد قدمت التجربة بعض القواعد المجربة التي غالبا ما يستخدمها كبار الخطباء. فبدل أن يضيّعوا وقتهم في سوق براهين يمكنها بالأكثر أن تُقنع لا أن تدفع للفعل. فإنهم سيثيرون

الأحاسيس تدريجيا، وسيتفننون في تنويعها، مدركين تماما أن الحساسية الناتجة عن مثير محدد تزول سريعا. لذا يخلقون مستخدمين تمهيدات ذكية، وكلمات موحيّة، وإشارات، و نبرات مؤثرة، الجو العاطفي حيث يمكن لخلاصة أقوالهم أن تكون مقبولة.

إذا كانت العواطف تشكل الدوافع الحقيقية لأفعالنا يغدو من الطبيعي جدا أن يقودنا منطقها. بإثارة أهواء الرجال تُغيّر سلوكهم وبأسر القلوب تُخضع الإرادات.

فائدة المنطق العقلي الوحيدة لخطيب ما تتركز في خلق أطر يمكنها أن تتيح له تنظيم أقواله.

تتدخل العناصر العاطفية بصورة دائمة في مفاهيمنا عن العالم و تكمن في أساس أفكارنا الأخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية. وحتى الحقائق العلمية ذاتها تتشرب بها في نظرياتها.

لحسن الحظ لا يقودنا المنطق العاطفي دائما، إذ ينجح المنطق العقلي مستخدما آلية، سندرسها عما قريب، بالسيطرة أحيانا على اندفاعاته.

هذه السيطرة ليست سهلة أساسا، إذ أن المنطق العقلي على الرغم من تراكمات العصور لا يزال ضعيفا. مع ذلك فإننا سنرى الطريق التي قُطعت حتى الآن عند ما نعاين عبر الدراسة كيف كان البدائيون المحكومون بالعاطفية الخالصة.

فهؤلاء البدائيون، الذين لا سيطرة للمنطق العقلي عليهم، يخضعون لكل دوافعهم. فما أن يقرصهم الجوع حتى ينقضوا على فريستهم. ويُملؤون بالحقد فيهجمون على أعدائهم. هكذا كانت حياة الناس الأولين الذين يعرضهم علينا فلاسفة الثورة أمثلة نحتذيها.

3ـ المنطق الجمعي

المنطق العاطفي هو أحد دعامات المنطق الجمعي. لن ندرس الآن هذا الأخير إذ سيتوجب علينا دراسته في الفصل المكرس للآراء والمعتقدات الجمعية.

لكننا نذكر فقط أن المنطق العاطفي والمنطق الجمعي لا يمكن الخلط بينهما. لأن الأخير لا يظهر إلا وسط الجماهير ويمكنه أن يثير أفعالا مناقضة للأفعال التي يوحي بها المنطق العاطفي.

وسوف نرى فيما بعد كيف أن الروح الجمعية التي يخلقها آنياً جمهور ما تمثل مجموعة **agrégat** خاصة جدا حيث المستحيل لا وجود له و وحيث التبصر مجهول، وحيث تبدو الحساسية متضخمة دائما وحيث المنطق العقلي محروم تماما من الفعل.

لقد بيّنا للتو في هذا الفصل أن المنطق العاطفي يشكل مع المنطق الديني الذي سنقوم الآن بدراسته، الدافع الحقيقي لأفعالنا. فلكي نتحرك ينبغي أولا أن نحسّ. فما أن نشعر بأنفسنا حتى يتدخل هذا المنطق.

تأثيره طال كل الأجيال. وفي وقت متأخر جدا فقط، تعلم الإنسان الإفلات من قوته قليلا. والساعة لم تحن بعد لكي يسيطر المنطق العقلي على المنطق العاطفي بدل أن يكون تحت سيطرته.

الفصل الرابع

المنطق الديني

1 ـ سمات المنطق الديني

المنطق العقلي هو منطق واع يتعلم كيف يتفكر، ويداول ويقدم براهين واكتشافات.

منطق العواطف هو منطق لا واع، والمصدر المعتاد لسلوكنا والذي تفلت ترابطاته في أغلب الأحيان من فعل العقل.

المنطق الديني الذي سنُعنى به الآن يتوافق مع مرحلة عليا من الحياة العقلية. لا تعرفها الحيوانات في حين أنها تمتلك عددا كبيرا من عواطفنا.

المنطق الديني الأدنى من المنطق العقلي، الذي هو طور من التطور أكثر تقدما بعد، لعب مع ذلك دورا حاسما في تاريخ الشعوب من خلال المعتقدات التي أنتجها. إنه أصل تفسيرات، غريبة عن العقل، دون شك، لكنها شكلت دوافع قوية للفعل. ولو كان المنطق العقلي قد حلَّ محل المنطق الديني في السابق لكان قد تغيّر مجرى التاريخ.

وكما المنطق العاطفي، يقبل المنطق الديني التناقضات، لكنه ليس غير واعٍ كما الأول ويحتمُّ غالبا مداولة ما.

المعيار الذي استخدمناه لترتيب مختلف أشكال المنطق، أي العمل، يبين بوضوح التمييز بين المنطق الديني والمنطق العاطفي. فالمنطق الديني، في الواقع، يوحي غالباً بأعمالٍ مناقضة لمصالحنا الأكثر وضوحا، قد لا يقوم المنطق العاطفي مطلقا بفرضها. وينطوي التاريخ السياسي للشعوب على أمثلة عديدة على ذلك أما تاريخها الديني ففيه أكثر وأكثر.

مما لا ريب فيه، في حالات مشابهة للحالات التي أشرت إليها وحيث نلاحظ تلاشي حالات عاطفية على قدر من القوة مثل الحياء والحب الأمومي، فإنه يمكن الاعتراض بأن هذا التلاشي يمكن أن ينجم عن مجرد استبدال عاطفة بأخرى. لكن ما هو سبب هذا الاستبدال إذن؟

لا ينبغي بالتأكيد البحث عنه في المنطق العقلي، لأن أي عقل لن ينصح بأفعال مشابهة. وينبغي البحث عنه أقل أيضا في المنطق العاطفي. ينبغي إذن بالضرورة التماس آلية نفسية مختلفة. وهذه الآلية هي ما تكوّن المنطق الروحاني.

سنرى، عند تفحصنا لدوره في تاريخ الحضارة بوضوح أشدّ الاختلافات التي تفصله عن المنطق العاطفي.

في المنطق الديني تُستبدل الأسباب الطبيعية – الأسباب الوحيدة التي يقبلها المنطق العقلي – بالإرادات المتقلبة لكائنات أو لقوى عليا تتدخل في كل أفعالنا والتي يجب أن نخشاها وأن نسترضيها.

هـيمن المنطـق الروحـاني حـصرا في المرحلـة البدائيـة مـن الإنسانية، وعلى الرغم من تقدم المنطق العقلي، فإن تأثيره لا يـزال حيّاً بقوة.

تُلاحظ سلطة المنطق الديني على وجه الخصوص عند بعض العقول التي وُصِفَت صوابا بالمتدينين، وهي كلمة أفادتنا في تعريف منطقهم.

الذهنية الدينية تتكشف من خلال نسبها إلى كائن ما، أو إلى شيء محدد أو إلى قوة مجهولة، سلطة سحرية غير خاضعة لأي فعل عقلاني.

ستتنوع نتائج هذه الذهنية تبعا للعقول. بالنسبة للبعض، ستفيد كدعامة لمعتقدات دينية محددة، ذات حدود دقيقة تأخذ شكل الألوهيات. بالنسبة لآخرين، ستظل القوى العليا غامضة لكنها قوية أيضا. الذهن الديني سيتبدى عندئذ عبر خرافة ما. الملحد يمكن أن يكون دينيا بالقدر ذاته الذي يكون عليه المؤمن الورع. وحتى يمكن أن يكون أكثر تدينا أيضا.

يبرهن المرء على ذهنية دينية عندما يعزو إلى تعويذة، أو رقم، أو ماء خارق، أو مزار، أو رفات، بعض الخواص فوق الطبيعية. وتتبدى أيضا عندما نفترض في هذه أو تلك من المؤسسات السياسية أو الاجتماعية القدرة على تحويل البشر.

النزعة الدينية تُغير من شكلها باستمرار لكنها تحتفظ، كأساس ثابت، بالدور المنسوب إلى سلطات غامضة. والزمن الذي يغير موضوع النزعة الدينية يتركه مقدسا دون مس.

النزعة الدينية غير المعنية بأي نقد، تولّد عند معتنقيها سذاجة لا محدودة. والكثير من الأشخاص الموصوفين بالدهريين لأنهم يرفضون العقائد الدينية، يؤمنون بشدة بالهواجس والتنبؤات، وبالقوة السحرية لحبل المشنوق أو للعدد ثلاثة عشر. فالعالم في نظرهم مسكون بأشياء جالبة للسعادة أو للتعاسة. وليس ثمة مقامرون لا يكون إيمانهم حول هذه النقطة معززا جدا.

ولأن إيمان الشخص الديني دون حدود، فلا يمكن لأية لامعقولات أن تصدمه. فهو مغلق بوجه العقل، و الملاحظة و التجربة. وعدم نجاح تنبؤاته لا يثبت له شيئا، لأن القوى الغيبية المرجوة متقلبة بالتعريف ولا تخضع لأي قانون.

وبمقدار ما يتحضر الإنسان فإن العقلية الدينية، العامة عند المتوحشين كلهم، تنحصر تدريجيا وتتحدد في بعض المواضيع. وفيما يتعلق بهذه المواضيع، فإن ذهنية المتحضر لا تتميز نهائيا عن ذهنية البدائي، لأن أية حجة علمية لن تزعزع إيمانهم. هذا الواقع الملاحظ سيسهم في جعلنا ندرك نشأة المعتقدات الخفية التي يتبناها بعض العلماء المشهورين.

نجاحات العقل ستكون دون شك عاجزة عن زعزعة النزعة الدينية لأنها ستجد دائما ملاذا لها في الما- وراء المنيع على العلم. أما العقول الفضولية لمعرفة هذا الما- وراء فإنها لا تحصى بالطبع.

2ـ النزعة الدينية بوصفها قاعدة المعتقدات

في النزعة الدينية تنتشي المعتقدات الدينية وكل تلك التي دون أن تحمل هذا الاسم تكتسي الشكل ذاته، ومن بينها المعتقدات السياسية بالطبع.

تُلاحظ نتائج المنطق الديني على وجه الخصوص عند المتوحشين. الذين يعيشون، وهم الفاقدون لأي مفهوم عن القوانين الطبيعية، في عالم مسكون بالأرواح التي يجب التضرع إليها دونما انقطاع. وخلف كل حقيقة مرئية يفترضون دائما وجود قوة لا مرئية تحددها.

عند الإنسان المتحضر تكون المعتقدات أقل بدائية لأن مفهوم القوانين الضرورية فرضته عليه تربيته بأكملها. لن يسعه إنكارها بل يقبل فوق ذلك أن بعض الصلوات يمكنها أن تحثّ القوى الغيبية على إيقاف فعلها. المنطق الديني والمنطق العقلي يستمران على هذا النحو متزامنين في العقل ذاته دون أن يتداخلا.

سذاجة المؤمن الحقيقي هي عموما لا حدود لها وليس ثمة أعجوبة يمكنها أن تفاجئه لأن قدرة الله الذي يضرع إليه لا نهاية لها. نرى في كاتدرائية أورفييدو **Orviedo** صندوقا، تقول النشرة الموزعة على الزوار، أنه نُقل فورا من القدس عبر الهواء. وهو يحتوي على: " بعض حليب أم السيد المسيح ؛ الشعر الذي مسحت القديسة مادلين به قدمي المخلص، العصا التي شق بها موسى البحر الأحمر، حافظة أوراق القديس بطرس، الخ... "

هذه الوثيقة المشابهة لآلاف غيرها، تظهر إلى أية درجة لا تزال البديّة **fétichisme** الدينية حية بقوة. فإذا اعتبرنا أنها تبقى مستقلة عن موضوعها، فإننا سنضع في العائلة ذاتها تعويذة الزنجي،

والـذخيرة المحفوظـة في صـندوق ذهـبي في كاتدرائيـة مهيبـة، وحبـل المشنوق. وينبغي أن ننظر إليها بتعـاطف متسامح، بداية لأنها خالقـة للأمل بالسعادة ثم لأنها تتوافق مع بعض الحاجات الدائمة للروح.

وإذا مـا تتبعنـا فعـل المنطـق الـديني عـبر كـل عناصـر الوجـود الاجتماعي سنراه يُمارس في الفنـون، والأدب، والـسياسة، وحتـى في الطـب. العـصر الأدبـي المعـروف بالرومـانتيكي كـان أحـد تجلياتـه. والفنــانون لا يملكــون نــادرا إلا قناعــات دينيــة. بينمــا تظـل طرائـق التحليل العقلي عموما مجهولة من قبلهم.

بيـد أنـه في الـسياسة علـى وجـه الخـصوص يظهـر تـأثير العقـل الـديني. فالراديكـاليون ومناهـضو الإكليروس والماسـونيون وكـل المتعـصبين مـن اللونيـات المتطرفـة يعيـشون في تـدين كامـل. الطبقـة العاملة محكومة أيضا بتدين شديد.

ولأن المنـاطق الـتي اسـتطاع العلـم دخولها تظـل محـدودة جـدا في حـين أن طموحاتنـا تكـون دون حـدود، فـإن المنطـق الـديني سـوف يهيمن دون شك على البشرية لزمن طويل بعد. ولأنـه خـالق القـوانين، والعادات والأديـان فقـد أنـتج كـل الأوهـام الـتي قـادت البـشرية حتـى الآن. سلطته كبيرة جدا لدرجة تحويل اللاواقعي إلى واقعي. وتحت تأثيره عرف ملايين البشر السعادة والألم والأمل. وكل مثال أعلى خرج من رحمه.

المنطـق الـديني والمنطـق العـاطفي والمنطـق العقلـي يقـدمون ثلاثـة أشكال من النشاط الذهني لا يمكن لأحدها أن يُختزل إلى الآخر. ومن غير المجدي بالتالي أن نضعهم في حالة تنازع.

الفصل الخامس

المنطق العقلي

1 ـ عناصر المنطق العقلي الأساسية

كان المنطق العقلي موضوعا لكتابات لا تحصى فضلا عن كونها ذات قيمة متواضعة.

فإذا تحدثنا عنه الآن فذلك لأنه بداية يلعب أحيانا دورا ما في نشوء الآراء، ثم لكي نحدد تماما بماذا يختلف عن الأشكال الأخرى من المنطق التي درسناها في الفصول السابقة.

لنبدأ بالإشارة إلى بعض العناصر التي تتأسس عليها ممارسة المنطق العقلي: الإرادة، الانتباه والتفكير.

الإرادة هي مَلَكة التصميم على فعل ما وتتضمن ثلاثة أطوار: المداولة، التصميم، التنفيذ. تصميم ما **détermination**، يُسمى مشيئة، أو فعل إرادي **volition**، عزم ما **résolution** يوصف أيضا بالقرار **décision**.

الإرادة هي في الوقت عينه ذات منشأ عاطفي وعقلاني. ذات منشأ عاطفي لأن كل بواعث أفعالنا لها موضوع (جوهر أو أساس)

substratum عـاطفي. ذات منـشأ عقلانـي لأننـا نـستطيع، بفـضل الانتبـاه والـتفكير، أن نرتـب في الـذهن تـصورات ذهنيـة خليقـة بـأن يُبطل بعضها بعضا.

وخلافـا لمـا يقولـه علـم الـنفس، سـنقول إن الإرادة يمكـن أن تكـون واعيـة أو لاواعيـة. وحتـى إن الإرادات اللاواعيـة تكـون هـي الأقوى. فالحيوانات لا تمتلك غيرها، ومعظم البشر أيضاً.

وإذا كنـا نلحـظ بـصعوبة الأشـكال اللاواعيـة مـن الإرادة، فـذلك لأن العقـل المتـدخل بعـد فـوات الأوان لكـي يفـسر الأفعـال المنجزة، يتصور البعض أنه هو من أمر القيام بها.

وقـد جعـل ديكـارت، ومـن خلفـه بعض الفلاسـفة المعاصـرين، من الإرادة نوعا من وحدة مضادة للعقل ومكونة لأصل معتقداتنا.

فالاعتقاد حسب رأيه هـو إعطـاء أو رفض المصادقة طوعـا علـى فكـرة طرحهـا العقـل. هـذه النظريـة، الـتي يُـدافع بقـوة عنهـا حتـى الآن، سوف ندحضها في هذا الكتاب، حيث آمل إثبات أن الاعتقاد لا يكون طوعيا على الإطلاق تقريبا.

وقـد اقـترب أرسـطو أكـثر ممـا اقـترب ديكـارت مـن الأفكـار المطروحـة هنـا، عنـدما أسـس علـم نفسـه علـى التمييـز بـين الـسمات الحـسية والـسمات العقليـة. فمـن توليفتهمـا تنـتج الإرادة حـسب رأيـه. وهكـذا يمكـن أن تكـون نتيجـة وليسـت سـببا. وكمـا نـرى، فقـد عـارض أرسـطو العقـل بالحـساسية في حـين أن ديكـارت عارضـه بالإرادة. وهـذا التمييـز البعيـد عـن أن يكـون تـدقيقا عبثيـا هـو وعلـى العكـس مـن ذلـك هـام جـدا. فالنظريـة الـتي لا تـزال مهيمنـة والقائلـة بـأن الاعتقـاد إرادي وعقلـي تـستند إلى مفـاهيم مـشابهة لمفـاهيم

ديكارت.

الانتباه: الانتباه هو الفعل الذي يقوم الذهن عبره، تحت تأثير محرِّض ما أو الإرادة، بالتمركز على موضوع دون غيره، أو على التمثل الذهني لهذا الموضوع، أو على الأفكار التي ينتجها. يتيح الانتباه الخلاص من حالات شعورية غريبة وأيضا عزل الموضوع الذي يعنينا من بين ركام الأشياء. وقد إعتبر كتّاب مختلفون الانتباه شكلا من الإرادة. إنه بالتأكيد خاضع للإرادة، لكن لا يجب مماثلته معها. كذلك لا ينبغي خلط الانتباه مع العقل. فهو ليس إلا واحدا من العناصر التي يستخدمها العقل.

الأشياء التي تحيط بنا تؤثر جميعها في حواسنا. فإذا التقطناها بالتساوي كما تفعل عدسة الكاميرا على سبيل المثال فإن الدماغ سيزدحم بصور غير مفيدة. بفضل الانتباه، لا نلتقط الأشياء إلا بما يتناسب مع احتياجاتنا، ونستطيع أن نركز على موضوع واحد كل قدرتنا العقلية دون أن نبعثرها كيفما اتفق.

الحيوانات تستطيع الانتباه، لكن هذه المَلَكة عندها غير إرادية، في حين أنها يمكن أن تكون إرادية عند الإنسان. إن قدرتنا العقلية تنجم وإلى درجة كبيرة عن تنميتها. إن الطفل، والمتوحش يمتلكان القليل جدا من الانتباه الإرادي، وكلما كان الإنسان قابلا للانتباه وبالتالي للتفكير تتعاظم قوته العقلية. إن شخصا، مثل نيوتن، مجردا من طاقة انتباه شديدة ما كان ليلحظه أحد. فالحدس العبقري الذي يظهر فجأة كان يسبقه دائما انتباه صبور وتفكير طويل.

التفكير: ولادة التفكير تولّد عند الإنسان ملكة التفكر، أو العقل raisonner وهي مكونة من الاستعداد لأن تعيد إلى الذهن وتثبت بواسطة الانتباه التمثلات الذهنية المشتقة من بعض الإحساسات أو بعض الكلمات التي هي علاماتها. يمكن عندئذ الربط بينها، مقارنتها وصياغة بعض الأحكام. إنها تجعلنا نعرف لا الأشياء بحد ذاتها بل علاقاتها، غاية العلم السهلة المنال الوحيدة.

الاستعداد للتفكير يقتضي دائما الاستعداد للانتباه. قدرة الانتباه الضعيفة تستوجب تفكيرا ضحلا.

التفكير يتيح التفكر بصورة مناسبة، شرط ألا يتدخل المنطق العاطفي والمنطق الديني إطلاقا. منذ أن تقع المواضيع التي يريد المرء التفكر فيها في حقل الاعتقاد، يفقد التفكير قدرته النقدية.

2 ـ دور المنطق العقلي

المنطق العقلي يصدر عن دمجه عبر التفكير، ومتبعا الآلية المشار إليها سابقا، بعض التمثلات الذهنية أو الكلمات التي تترجمها.

لقد أُعتُبر لزمن طويل قاعدة معتقداتنا. نحن نفترض بالعكس أن المنطق العقلي لم يولّد أياً منها. دوره الوحيد الممكن يتمثل في إكمال خلخلتها حينما تكون قد استهلكت بمرور الزمن.

لكن إذا كان دور المنطق العقلي معدوماً في نشأة الاعتقاد، فإنه دور جوهري بالعكس في تشكيل المعرفة. فصرح العلوم كلّه

وتطور الصناعة الحديثة الهائل الذي كان نتيجة لها، يستندان إليه.

لا يسعنا إذن المبالغة في قوته، لكن ينبغي مع ذلك أيضا معرفة الحدود التي لم يستطع تجاوزها بعد. فظواهر الحياة والفكر لا تزال مغلقة في وجهه. ميدانه هو ميدان المادة الخام، أي المثبتة لحظيا بفعل الموت أو الزمن. أما الظواهر التي تمثل تدفقا ثابتا مثل الحياة، فإنه لم يلق عليها إلا أضواء غير مؤكدة تماما.

وبما أن العلم يهيمن دون منازع ظاهريا في ميدان المعرفة، فقد اعتقد البعض لزمن طويل أن المنطق العقلي الذي تُشتق منه هذه المعرفة قد يخدم في تفسير نشأة وتطور المعتقدات. هذا الخطأ دام خلال قرون وقد بدأ علم النفس يوشك على الخروج منه.

كان ينبغي للمراقبة أن تبين مع ذلك أن الكائنات تتصرف قبل أن تفكر وأن تفهم، وبالتالي، فإنها منقادة في أفعالها بأشكال أخرى من المنطق.

ولأني مقتنع بهذه البداهة، التي سأعود إليها غالبا لأنها جديدة تماما، فإن المرء ليعترف بأن المنطق العقلي يلعب دورا ثانويا جدا في حياة الأفراد والشعوب.

ليس من الضروري التفكر لكي نتصرف، وأقل من ذلك أن نفهم، فالحشرة الأكثر بساطة تتصرف كما ينبغي لها أن تتصرف دون أن تهتم لمنطقنا.

فالفهم والعقل هما شكلان من أشكال نشاط الكائنات مستقلان تماما عن الفعل. وهما لا يقومان غالبا إلا بعرقلته عبر مبالغتهما في إظهار أخطاره.

بفضل محرضاتهم العاطفية والدينية، يستطيع الناس العاديون جدا التصرف دون أن يخطر في بالهم أي شيء عن نشأة أفعالهم. ومن غير المفيد أن نجرب معهم براهين ذات طابع عقلي فهم ينظرون بسبب ضعف ملكة الفهم عندهم، بازدراء لكل ما يصعب عليهم فهمه. محاولة ترسيخ بعض الأفكار العقلانية لديهم قد تكون أشبه بتقليد طفل يحاول إدخال برتقالة في قُمع الخياطة. ينبغي تعلم قياس قدرة قُمع الأفراد والشعوب الدماغي، المحدودة عموما، قبل أن نحاول أن ندخل فيه بعض الحقائق العقلية.

إن دور المنطق العقلي في قيادة الشعوب كان دائما دورا ضعيفا جدا و لا يتجلى إلا في الخطابات. وأكرر، ليس العقل، بل الشعور هو ما يحرك مشاعرهم وبالتالي هو ما يقودهم. لكي تُحرك يجب أن تؤثر.

سوف نبين قريبا أنه في الصراع بين المنطق العقلي والمنطق العاطفي، يكون الأول مغلوبا دائما تقريبا. وقد توصل علماء النفس إلى الاعتراف بذلك أكثر فأكثر، فقد كتب ريبو: " افتراض أن فكرة تافهة جدا، جافة جدا، وأن مفهوما مجردا دون مصاحبة عاطفية، مثل معلومة هندسية، قد يكون له أدنى تأثير على السلوك البشري هو نوع من السخف النفسي. " ولا تزال بعيدة الساعة التي ستكتسح فيها البرهنة الفلسفية العالم. وبعكس ذلك، فقد كان العالم دائما ولا يزال حتى اليوم مربكا بمعتقدات يحتقرها المنطق العقلي لكنه يظل عاجزا عن منازلتها.

3 ـ الظهور المتأخر للمنطق العقلي

ليس المنطق من إبداع الطبيعة، بل خُلق ضد الطبيعة.

لقد أشرت سابقا إلى أن المنطق العقلي ظهر متأخرا. فقد كانت الأشكال الأخرى من المنطق تكفي لقيادة الكائنات جميعها، منذ أقدم العصور الجيولوجية حتى أيامنا تقريبا.

لم يكن المنطق العقلي من إبداع الطبيعة على الإطلاق، بل إبداع الإنسان ضد الطبيعة. بفضل إبداع ذكائه هذا بات يعاني أقل فأقل من القوى التي كانت تحيط به ونجح كل يوم أكثر في تسخيرها لصالحه. لقد كان ذلك فتحا رئيسيا.

لكي نعرف أن المنطق العقلي ليس أحد منتجات الطبيعة، بل من إبداع الإنسان ضد الطبيعة، ينبغي ملاحظة أن جهوده تتركز خاصة على النضال ضد الأفعال الطبيعية.

فالطبيعة غير المبالية إطلاقا بمصير الفرد لا تهتّم إلا بمصير النوع. كل الكائنات متساوون أمامها. فوجود أشدٍّ الميكروبات ضررا يُحاط بالقدر ذاته من الرعاية التي يُحاط بها وجود أكبر عبقرية. بفضل اكتساب المنطق العقلي، استطعنا مصارعة قوانين الكون المتوحشة وتمكنّا أحيانا من النصر عليها.

الغاية الحقيقية للعلم هي هذا الصراع الدائم ضد الآثام الطبيعية هذه. ونحن لا نواجهها الآن إلا في مدى الحدود الدقيقة التي تقف عندها معرفتنا. وفي اليوم الذي ستُصبح فيه آليات المنطقين البيولوجي والعاطفي معروفة، سنعرف كيف نسيطر عليها سيطرة كاملة. وسيتمتع الإنسان عندئذ بالقدرة المنسوبة إلى أربابه القدماء.

من الواضح أن العلم لم يصل إلى تلك المرحلة بعد. بل حتى أنه

ما يزال بعيدا جدا عنها. ومع أنه يحدُّ نوعا ما كل يوم من سلطة الطبيعة المشؤومة، فإننا مضطرون بالتأكيد لتحملها عبر تكيفنا معها. هذه السلطة الواسعة ربما تكون أعظم مما قد يفترضه العلم. إننا نواجه الطبيعة، لكنها ألا تواجه هي نفسها، حسب الكلمة التي ينسبها إسخيلوس إلى بروميثيوس المقيد إلى صخرته، الضرورات التي تضبط القدر والتي ينبغي للآلهة أنفسهم أن يخضعوا لها؟ إن الفلسفة ليست متقدمة جدا بحيث تجيب على مثل هذه الأسئلة.

الكتاب الرابع

تنازع أشكال المنطق المختلفة

الفصل الأول: تنازع العناصر العاطفية والدينية والعقلية.

الفصل الثاني: تنازع أشكال المنطق المختلفة في حياة الشعوب.

الفصل الثالث: موازنة الدوافع.

الفصل الأول

تنازع العناصر العاطفية والدينية والعقلية

1 ـ تنازع أشكال المنطق المختلفة في الحياة اليومية

يتم تفسير عوامل الآراء والمعتقدات بمختلف أشكال المنطق التي وصفناها. ولأنها مختلفة فلابد أن تدخل أحيانا في نزاع. فكيف يُحلُّ هذا النزاع؟

في الواقع، لا يتجلى إلا استثنائيا، ففي الحياة اليومية يقوم نوع من التوازن بين النوازع المتعارضة لمختلف أشكال المنطق وتبعا للزمن، والوسط، واللحظة الآنية يخضع ذهننا لسيطرة هذا المنطق أو ذاك. والتوازن الذي أشرنا إليه للتو ليس التحاما بل تراكبا لمختلف أشكال المنطق مع محافظة كلٍ منها على فعله المستقل.

هذا التراكب لأشكال المنطق غير المتماثلة، لدى الفرد ذاته، يقدم في الحال الحل لمسألة مربكة دائما. كيف يمكن لعقول رفيعة المستوى، معتادة على طرائق علمية صارمة، أن تقبل معتقدات

دينية، أو سياسية، أو روحانية، أو تنجيمية الخ.... والتي لا تصمد أمام أي امتحان يجريه المنطق العقلي المتحرر من أي عنصر غريب؟

الجواب بسيط جدا في الحقيقة. هؤلاء العلماء يأتمون في مفاهيمهم العلمية بالمنطق العقلي. في معتقداتهم يخضعون لقوانين المنطق الديني و المنطق العاطفي.

فالعالم منهم ينتقل من مجال المعرفة إلى مجال الاعتقاد كما لو أنه يغير مسكنه. الخطأ الذي يقع ضحيته غالبا يتركز في أنه يريد أن يطبق على تفسيرات المنطقين الديني أو العاطفي طرائق المنطق العقلي، بهدف بناء معتقداته بناء علميا.

وبما أن التوازن بين الأشكال المختلفة من المنطق قد كُسر فإنها تدخل في صراع. ومن النادر أن يفوز المنطق العقلي في هذا الصراع. فهو يتيح بسهولة كبيرة التنكيل به، وفوق ذلك، لكي يوضع في خدمة أكثر المفاهيم صبيانية. لذلك فإن كل احتجاج، في موضوع الاعتقاد الديني، أو السياسي، أو الأخلاقي سيكون دون جدوى. مناقشة رأي ذي منشأ عاطفي أو ديني نقاشا عقلانيا مع الغير لن تكون نتيجته إلا الإعلاء من شأنه. مناقشته هذا الرأي مع ذاته لن تزعزعه أكثر، إلا إذا كان قد وصل إلى درجة من التآكل كانت قد انتزعت منه قوته. نتائج أي صراع بين المنطق الديني والمنطق العقلي لن يتاح لها أن تُعرض بشكل واضح إلا عبر مثال باسكال، الذي سنتفحصه بالتفصيل في فصل آخر من هذا الكتاب. لذا سيكون من غير المفيد الإلحاح عليه حاليا.

سنقتصر إذن، فيما يلي، على دراسة النزاع بين المنطق العاطفي والمنطق العقلي. فالصراع يكون أقل تفاوتا مما هو عليه في الحالة السابقة، إذ يستطيع العقل، عبر مختلف الحيل، ليس فقط الصراع مباشرة ضد هذه العواطف بل أن يعارض عواطف بعواطف ليحاول السيطرة على تلك التي تريد الصراع.

2 ـ تنازع العناصر العاطفية والعقلية
تأثير الأفكار في العواطف

تؤثر كثيرا العواطف التي تقودنا في الأفكار، في حين أن الأخيرة تؤثر بدرجة قليلة جدا في العواطف. فالفكرة ليست عموما إلا خلاصة لعاطفة يظل تطورها لاواعيا وبالتالي، مجهولا.

ولأن حياة العواطف هذه تظل غير معروفة لهذا بالضبط فإن العقل له تأثير ضعيف جدا عليها. يكفي أن نراقب أنفسنا لنعرف إلى أية درجة تتطور قوانا العاطفية بمعزل عن إرادتنا. إنها تعرض نوعا من الإنتاش البطيء، مماثل لذلك الذي وصفه بقوة الشاعر الفيلسوف سيللي بريدوم **Sully Prudhomme** في السوناتا المشهورة المزهرية المكسورة. كلمة، لفتة، لا معنى لهما لحظتها، يمكنهما مع الزمن تحويل الصداقة إلى لامبالاة، وأحيانا حتى إلى كراهية.

الدور الحقيقي للعقل في مجموعة العواطف التي تشكل الطبع يتمثل في أن يعزل بعضاً منها، يكثفها بواسطة تمثيل ذهني معزز، وجعلها بذلك قادرة على التحكم ببعض الدوافع. ويمكنه الوصول، عبر هذا التفوق لحالة عاطفية على أخرى، إلى ترقية الفرد إلى أعلى من ذاته، لحظيا على الأقل.

بفضل قدرته على جمع التمثلات الذهنية العاطفية والعقلية، يستطيع العقل أحيانا إذن استخدام بعض العواطف كالمهندس الذي يعرف كيف يبني أبنية مختلفة باستخدام الأحجار ذاتها.

تأثير العقل في العواطف ليس دون حدود و حتى يبدو مقتصرا جدا. وتبيّن الملاحظة في الواقع على أنه إذا كانت هذه الأخيرة شديدة القوة فإن العقل يفقد كل سلطة. إن قوة بعض العواطف يمكنها أن تبلغ حد أن ليس العقل فقط بل أيضا المصالح الأكثر وضوحا للفرد تظل دون تأثير. وسوف نسوق عدة أمثلة في الفصل المتعلق بالمعتقدات.

إذا لم تتحول العواطف مباشرة إلى أفكار فإنها تكون مع ذلك مبدعة للأفكار، والتي ستصبح بدورها موحيّة لعواطف أخرى. وعلى هذا النحو فإن دائرتي النشاط الذهني هاتين تؤثران، وهما تحافظان على استقلالهما تماما، الواحدة في الأخرى دوما.

تمارس الأفكار إذن، وإن يكن بطريقة غير مباشرة تماما، فعلا لا يمكن إنكاره في حياتنا الفردية أو الجماعية ؛ لكن دورها، وأكرر القول، لا يكون ممكنا إلا بشرط أن يكون مستندا إلى موضوع عاطفي.

وحيث أن الأفكار تنبثق من العواطف، فإن الصراعات بين الأفكار لا تكون في الواقع إلا صراعات بين العواطف. والشعوب التي تبدو وكأنها تناضل من أجل بعض الأفكار، إنما تناضل من أجل العواطف التي تُشتق هذه الأفكار منها.

تفقد الحالات العاطفية التي لا تملك فرصة إظهار نفسها، قوتها وليس وجودها، مثل كل الأجهزة العضوية غير المستخدمة. وهكذا فإن الوظائف، التي كان يقوم بها سابقا النبلاء الانكليز والفرنسيون، كانت تحافظ على طابعها النبيل الذي اختفى مع توقف تلك الوظائف. هذه الطبقات الاجتماعية بعد أن فقدت سجاياها الأخلاقية دون أن تكتسب العقل الذي لم تتح لها فرصة ممارسته، باتت أدنى من الطبقات المحكومة في الماضي. كان محتما إذن أن تأثير طبقة النبلاء، بعد أن تمّ تدميره في فرنسا على يد الثورة، أن يكون مضطربا جدا في انكلترا اليوم.

هذا القانون، المُغفل جدا من قبل المعلمين والمربين، القاضي بأن عاطفة لا تُمارس تذوي، يبدو ذا تطبيق عام. ويقدم تاريخ الشعوب أمثلة عديدة عليه. غرائزنا المحاربة، المتطورة جدا في زمن الثورة والإمبراطورية انتهى بها الأمر إلى إخلاء الساحة أمام النزعة السلمية ومعاداة النزعة العسكرية اللتين تزدادان اتساعا كل يوم، ليس فقط بين الجماهير بل أيضا لدى المثقفين. لينتج عنهما هذا التضاد الغريب: كلما أصبحت الأمم أكثر مسالمة زادت حكوماتها من التسلح.

سبب هذا الشذوذ الظاهر بسيط. الأفراد يخضعون لأنانيتهم الفردية؛ في حين أن الحكام مُلزمون بالاهتمام بالمصلحة العامة. ولأنهم أكثر تنورا من الجماهير وخطبائها المتصنعين، يعرفون عبر تجارب تاريخية، أن أية أمة ضعفت سرعان ما جرى غزوها ونهب

خيراتها من قبل جيرانها[1]. الأمم الحديثة لم تفلت أيضا من هذا القانون كما من سبقها من حضارات قديمة. البولونيون، الأتراك، المصريون، الصرب، الخ.. لم يتجنبوا الغزوات المدمرة إلا بعد أن انتزعت منهم كل أراضيهم أو أجزاء منها.

تطور أو بالأحرى نقل العواطف، الذي بينّا للتو بعض نتائجه، يجري تحت تأثيرات متنوعة. الوسط الاجتماعي هو واحد من أهمها. ولأجل التكيف معه، يُضطر الفرد إلى القبول بتنويم بعض الحالات العاطفية واستخدام أخرى تُعززها الممارسة باستمرار. هكذا ينبغي أن يكون دور عملية تربوية شديدة التفهم، أي معنية بتطوير الخصائص الجوهرية للطبع، وعلى الأخص المبادرة والشجاعة والإرادة، التي يمكن لعواطف طبيعية أخرى أن تعوِّض عنها. فالخوف من تحمل المسؤوليات عندما يتصدى للمبادرة يلغيها ؛ والإخلاص للمصلحة العامة إذا ما قيدته الأنانية الشخصية سرعان ما يتلاشى، الخ....

---

[1] عبر مستشار الإمبراطورية الألمانية بقوة عن هذه الحقيقة في خطاب ألقاه في أذار 1911 أمام الرايخستاغ وإليكم ملخصه:

" قضية نزع السلاح تظلُّ بالنسبة لكل مراقب جاد قضية غير قابلة للحل طالما بقي الرجال رجالا وبقيت الدول هي الدول. *فمهما فعل الضعفاء* سيظلون دائما *فريسة للأقوياء*.والشعب الذي لا يريد أن ينفق النقود من أجل التسليح يسقط إلى المرتبة الثانية ويأخذ شعب قوي آخر مكانه." وكما أشار بجلاء المستشار نفسه إلى أن " الإجراءات التي يمكن أن تنتج عنها الحرب هذه الأيام تستمد جذورها من بعض العواطف الشعبية التي تتأثر بسهولة ".

3 ـ صراع العواطف ضد العواطف

الأفعال الكابتة

البدائيون كلهم: المتوحشون، الحيوانات الخ... يسعون دوما لإطلاق غرائزهم. ومع ذلك فما أن يعيش الأولون في قبيلة و أن يستأنس التالون حتى تعلمهم الضرورة لجم بعض هذه الغرائز.

وهم لا يتمكنون من ذلك إلا عبر معارضة عاطفة قوية جدا، ـ الخوف من العقاب، أو الأمل بالمكافأة على سبيل المثال، ـ بعاطفة أخرى قد يميل المرء لإتباع محرضاتها. وقد مثلت السيطرة على المحرضات العاطفية عنصرا جوهريا في الحضارة. فما من حياة اجتماعية ممكنة دون هذه القاعدة الأساسية لكل أخلاق.

ولا تمثل الأفعال الكابتة المصانة بفعل العرف، والأخلاق والقوانين صراعا بين العواطف والعقل، وإنما، كما بينت ذلك، صراعا بين عواطف مختلفة يضعها العقل وجها لوجه. الهدف الرئيس دائما للقانون المدني أو الديني هو ممارسة فعلا كابتا على تمظهرات بعض العواطف.

فكل حضارة تنطوي على الشدة والإكراه. عندما تعلم البدائي، بظل القانون الصارم للواجبات الاجتماعية الأولى، التحكم بمحرضاته قليلا، فإنه تخلّص من الحيوانية الخالصة و أطفأ البربرية. ولأنه كان مجبرا على كبح نفسه أكثر ارتقى إلى الحضارة. وهذه الأخيرة لا تدوم إلا بقدر ما تدوم سيطرة الإنسان على نفسه. مثل هذا الإكراه يقتضي جهدا في جميع الأوقات. وربما يكون شبه مستحيل إذا لم تؤدِ بعض العادات التي يمكن للتربية تثبيتها إلى تسهيله عبر جعله لاواعيا.

وهكذا يمكن للانضباط الداخلي إذا جرى تطويره بصورة كافية أن يصل إلى الحلول محل الانضباط الخارجي، لكن حينما لا يعرف المرء كيف يخلق الأول، فعليه القبول "بتحمل " الآخر. رفض الأول والثاني يعني العودة إلى عصور الهمجية. ستقودنا العواطف دائما، لكن أي مجتمع لم يستطع البقاء دون أن يتعلم أعضاؤه إبقاء العواطف ضمن الحدود التي دونها تبدأ الفوضى والانحطاط.

العواطف المكبوحة بالضرورات الاجتماعية التي تنظمها القوانين لم يتمّ تدميرها. فما أن تفلت الدوافع الطبيعية البدائية من عقالها حتى تعاود الظهور دائما. وهكذا يمكن أن تُفسر أعمال العنف التي ترافق الثورات. فالمتحضر أعيد إلى الهمجية.

الفصل الثاني

تنازع أشكال المنطق المختلفة في حياة الشعوب.

1 ـ نتائج تدمير الأفعال الكابتة للعواطف في الحياة الاجتماعية

ضرورة كبح العواطف الضارة للمجتمع بفعل عواطف أخرى ثبتتها التربية والأخلاق والأنظمة، تشكل كما قلنا للتو، المبدأ الجوهري للحياة الجماعية، ودائما كان تجاهل الشعوب له دون جدوى.

ولا يحرر المرء بعض العواطف التي كان المحيط الاجتماعي قد نجح بصعوبة كبيرة في احتوائها، دون أن يخلق الفوضى. وسيكون أول الأعراض التزايد السريع لمعدل الجريمة، كما نشهده في فرنسا حاليا، الذي يشجعه فضلا عن ذلك تطور النزعة الإنسانوية، التي تُشلّ عمليات القمع وتسعى بالنتيجة لتدمير كل الكوابح. وتختبر ديمقراطيتنا الحالية أكثر فأكثر نتائج قمع هذه الأفعال الكابتة التي كانت تستطيع وحدها مقاومة العواطف المعادية للمجتمع.

الحقد على ذوي الامتيازات والحسد اللذان أصبحا مصيبتا الديمقراطية ويهددان وجودها، يُشتقان من عواطف ليست طبيعية لأنها لم تستمر دائما. وحتى أن ظهورها في المجتمعات الطبقية السابقة كان صعبا.

و بعد أن اكتسبت اليوم زخما جديدا بتشجيع مستمر من سياسيين متلهفين للشهرة وجامعيين مستائين من قدرهم،. فإن هذه العواطف أخذت تمارس بدأب استبداديتها المدمرة.

وكان لابد من انفراط شديد للقوى الكابتة، التي ثبتت لدرجة ما بالوراثة، لكي تحصل بعض الأحداث مثل ثورة عمال البريد، وعمال السكك الحديدية وأخيرا الأحداث في عدة مدن في مقاطعة كبيرة.

هذا التفكك الاجتماعي لم يكن ليصبح ممكنا بالأساس لولا تنازلات الحكام المستمرة، المحكومين بالضعف الذي يورثه خوفهم حكما. وأمام عجز الأنظمة خُلقت تدريجيا الفكرة القائلة بأن استعمال التهديد والتنفيذ المباشر كان وسيلة موثوقة للعمل على إخضاع قوانين كانت تُعتبر سابقا غير قابلة للمس. وإذا كان الحكام قد انحدروا إلى الكثير من التنازلات المذلة فذلك نتيجة لتجاهل عميق لبعض المفاهيم النفسية التي لم يكن يجب لأي رجل دولة تجاهلها والتي ما كانوا ليجهلونها سابقاً.

من هذه المفاهيم، المفهوم الأساسي التالي: إن المجتمع يدوم بفضل الحفاظ على القناعة المتوارثة بأنه يجب تقديس القوانين التي تأسست عليها المنظومة الاجتماعية.

القوة التي تمتلكها الأنظمة لكي يتمّ الخضوع لها هي على وجه الخصوص قوة أخلاقية. ولن تنجح أية قوة مادية في فرض احترام قانون ما سيقوم الجميع بانتهاكه.

ولو أرادت عبقرية شريرة تدمير مجتمع من المجتمعات في بضعة أيام، فلن يكون عليها إلا أن تقترح على جميع أعضائه رفض الخضوع للقوانين. فالخراب سيكون أكبر من الخراب الذي يسببه اجتياح خارجي يعقبه احتلال البلد. فالمحتل يكتفي عموما في الواقع بتغيير أسماء الحكام الذين يمسكون بالسلطة، بينما تكمن مصلحته في الحفاظ بعناية على الأطر الاجتماعية التي يكون عملها أكثر فاعلية من عمل الجيوش.

تدمير الاعتقاد بضرورة احترام الكوابح الاجتماعية، المتمثلة بالقوانين، يعني التحضير لثورة معنوية أشد خطورة للغاية من ثورة مادية. فالأبنية المدمرة يمكن أن تُبنى مجددا بسرعة لكن من أجل إعادة بناء روح شعب غالبا ما تلزم قرون عديدة.

لقد عانينا سابقا من هذا التفكك الذهني في عصور مختلفة من تاريخنا، وفي كتابه عن جان دارك، أشار هانوتو **Hanotaux** إلى أحدها بعبارات مؤثرة:

" حينما أُلغيت كل تراتبية، وحينما بددت القيادة هي ذاتها سلطتها، وحينما سمحت، نتيجة لأخطائها، بفقدان احترامها، وحينما تناثرت المنظومة الاجتماعية على الأرض، صار الميدان مفتوحا للمبادرات الفردية. التي تبزغ، تبعا للقوانين الطبيعية، وتسعى لنموّها وازدهارها في ظل تفسخ المؤسسات المدمرة. "

المتعصبون الذين يقاتلون التقليد باسم التقدم ويحلمون بتدمير المجتمع للاستيلاء على ثرواته، كما كان آتيلا يحلم بنهب أثينا، لا يرون أن حياتهم ليست إلا سلسلة رفيعة من المكتسبات الوراثية التي دونها ما كانوا ليعيشوا يوما واحدا.

ونحن نعرف كيف تنتهي دائما مثل هذه المحاولات. ومع هذا سينبغي تحملها مجددا دون ريب، لأنها وحدها التجربة المكررة هي التي تعلم. فالحقائق المسطورة في الكتب ما هي إلا كلمات لا طائل تحتها. لا تتغلغل إلى أعماق روح الشعوب إلا على ضوء الحرائق وهدير المدافع.

2 ـ العناصر الدينية والعاطفية في حياة الشعوب

إن دور المنطق العقلي، المهيمن جدا في تطور العلوم وأحيانا في حياة الأفراد، ضعيف للغاية في وجود الشعوب. ومما لا ريب فيه، فإن سرد الأحداث يبدو، عند عدم تفحص إلا ظاهر الأشياء دون محاولة اكتشاف محركاتها الخفية، وكأنه يبطل الأطروحة السابقة. فالمؤرخون يدخلون السبب دائما في تفسيراتهم. وإذا ما توقفنا فقط عند الأزمنة الحديثة، ألا نسمع دائما ما يكرره البعض في كل مكان أن الثورة ترجع في أصلها إلى كتابات الفلاسفة وبأن غايتها الرئيسة كانت انتصار الأفكار العقلانية؟

لم يجر في أي عصر بالفعل مثل هذا التذرع بالعقل. ووصل الأمر حتى إلى تأليهه وبناء معبد له. وفي الواقع ليس ثمة فترة لعب فيها دورا أضعف مما لعبه في الفترة نفسها. سوف نكتشف ذلك

بالتأكيد حينما سيصبح ممكنا، بعد أن نتحرر من الموروثات التي تعمي أبصارنا، أن نكتب علم نفس الثورة الفرنسية. وحتى في بداياتها، لم تكن الثورة تستند إلى إلا عناصر عاطفية. فالبرجوازيون الذين كانوا المحرضين الأوائل كانوا على الأخص مدفوعين بشعور من الحسد الشديد ضد طبقة ظنوا أنهم صاروا متساوين معها.

لاشك أن الشعب لم يفكر بداية في اشتهاء بعض المناصب التي كانت بعيدة جدا عنه بحيث يحلم يوما ببلوغها، ومع ذلك فقد استقبل الحركة الثورية بالترحاب. وهو شعور طبيعي جدا، لأن التدمير الرسمي للقيود الاجتماعية والوعود الخلابة التي قدمت له فتحت له احتمال أن يكون مساو لأسياده السابقين وأن يستولي على ثرواتهم. في الشعار الثوري، المنقوش على عملتنا وعلى جدراننا، كلمة واحدة، كلمة المساواة، فتنت العقول كما لا تزال تفتنها حتى اليوم. أما الأخوّة فلم يعد أحد يتحدث اليوم عنها، بعد أن أصبح صراع الطبقات شعار الأزمنة الحديثة. أما الحرية فإن الجماهير لم تفهم معناها مطلقا ورفضتها دائما.

إذا كانت الثورات تغري الشعوب إلى هذه الدرجة، فذلك على الأخص لأنها تطلق بعض المشاعر التي كانت المقتضيات الاجتماعية تلزم بكبحها، ولكنها لم تُكبح مطلقا إلا بصعوبة وبشكل غير كاف.

لقد بينت في فصل سابق الدور الجوهري للأفعال الكابتة في العواطف، وأهميتها. وهي تظهر ضرورية بوجه خاص عند الشعوب ذات المحرضات القوية والمتحركة.

إذا كانت التربية، والعرف، والأنظمة لا تتمكن من توجيه هذه المحرضات والأعمال التي تنتج عنها، فإن مثل هذا الشعب سيكون نهبا ليس فقط للمتآمرين بل أيضا لكل الأعداء الخارجيين الذين سيعرفون كيف يستغلون حساسيته. ويقدم التاريخ الأدلة على ذلك في كل صفحة من صفحاته. فحرب عام 1870 على سبيل المثال مليئة بالدروس على هذا الصعيد. فالإمبراطور المريض وملك بروسيا العجوز كانا يريدان تجنب الأزمة بأي ثمن. ونظرا لرغبته في منع حدوثها تخلى ملك بروسيا في نهاية الأمر عن ترشيح قريبه لعرش إسبانيا وهكذا كان السلام يبدو أكيدا.

لكن من خلف هذه العقول غير الواثقة وذات الإرادة الضعيفة كان ثمة دماغ قوي، ذو إرادة حاسمة يمسك بخيوط القدر. فعرف، بعد أن حذف بمهارة بعض الكلمات من برقية مرسلة، كيف يثير حتى الغضب عاطفية شعب حساس وأجبره على إعلان الحرب دون استعداد عسكري لها، على أعداء مستعدين منذ أمد بعيد. وتمكن بعد أن تملق عواطف كل أمة، من الحفاظ على الحيادية الضرورية لنواياه. وقد رفضت إنجلترا التي أعمتها المشاعر التي قام هذا العالم النفسي الغامض بدغدغتها، المشاركة في مشروع مؤتمر دون أن تتوقع ما الذي يمكن أن يكلفها فيما بعد تشكيل قوة عسكرية ضاربة، وهو ما صار كابوسها اليوم. إن الخضوع للمحرضات العاطفية يقود لأن تكون محكوما من قبل أولئك الذين يعرفون كيف يحركونها. أن تعرف فن تحريك عواطف الرجال يعني أنك تصبح سيدهم.

3 ـ التوازن وفقده بين مختلف أشكال المنطق في حياة الشعوب

رأينا أنه في الحالة العادية كان يقوم عند الأفراد نوع من التوازن بين المحرضات المختلفة الصادرة عن أشكال المنطق المختلفة التي توجههم. والأمر عينه عموما في حياة الشعوب.

وعندما يتخلخل هذا التوازن بفعل بعض التأثيرات، تظهر بعض الاضطرابات وتغدو ثورة ما وشيكة الوقوع. وهذه الأخيرة تشكّل في أغلب الأحيان مرضا ذهنيا حقيقيا، ناجما عن نقص التوازن بين محرضات أشكال المنطق المختلفة والتي غالى أحدها في هيمنته.

هذه الهيمنة للمنطق الديني بالأخص هي التي تخلف الاضطرابات الكبرى في تاريخ الإنسانية. الحروب الصليبية، الحروب الدينية، الثورة الفرنسية هي أمثلة على ذلك. مثل هذه الحركات تجسد بعض أزمات هذه الروح الدينية التي لا تزال قوية، والتي لن يسع الشعوب كما الأفراد الإفلات منها.

تنتج عن الصراع بين أشكال المنطق المختلفة معظم الاضطرابات التاريخية. فحين يهيمن العنصر الديني، فهذا يعني الصراعات الدينية مع عنفها الإجباري. أما حينما يفوز العنصر العاطفي، فإننا نشهد بحسب العامل الشعوري المتنامي، إما الأعمال الحربية الكبرى، وإما بالعكس ازدهار النزعتين الإنسانوية والسلمية، اللتين لن تكون نتائجهما النهائية أقل دموية. الحروب الأهلية والدينية ما هي إلا صراعات بين أشكال المنطق المختلفة التي يصبح أحدها مهيمنا مؤقتا.

حينما يزعم المنطق العقلي التدخل حصرا في حياة شعب ما فإن الاضطرابات لن تكون أ قل عمقا ولن يكون العقل أكثر من ثوب مستعار، يخفي محرضات عاطفية أو دينية.

وفي أيامنا الراهنة، تظل الجماهير وقادتها، كما بينّا سابقا، مشبعة بنزعة دينية لا تقلّ عما كانته عند الأسلاف البعيدين جداً. فثمة كلمات وعبارات تنسب لها قوة سحرية ورثت القدرة المنسوبة للأرباب التي عبدها آباؤنا. فالأمل المُهلَس بجنات عدن الساحرة لا يزال حياً.

غالبا ما تكيف النزعة الدينية مظهرها على الرغم من جوهرها الثابت. وقد اتخذت حاليا شكلا عقلانيا. إذ يدعي رسل الأديان الحديثة إعادة بناء المجتمعات والبشر باسم العقل الخالص

القدرة على التغيير الاجتماعي المنسوبة إلى العقل حاليا تُفسّر بسهولة. كون النجاحات التي حققها العقل في ميدان العلوم عظيمة القدر فقد بات من الطبيعي الافتراض أن بعض الطرائق التي كانت قد أعطت مثل هذه النتائج تستطيع تحويل المجتمعات وأن تخلق السعادة الشاملة.

إن علم نفس أكثر تنورا يبين لسوء الحظ أن المجتمعات لا تتطور باستخدام العقول بل تحت تأثير دوافع عاطفية ودينية لا يملك العقل أية سلطة عليها.

إن المهمة الصعبة لقادة الشعوب الحالية تكمن في مصالحة دوافع مختلف أشكال المنطق، التي تحرك الشعوب في الحقيقة، مع المنطق العقلي الطامح لتوجيهها بطريقة حصرية. فإنكلترا التقليدية

ذاتها بدأت تواجه هذا الصراع. المؤسسات السياسية التي مثلت عظمتها تتعرض اليوم لهجمات عقلانية من قبل أحزاب طليعية تدعي قدرتها على إعادة تشييد الصرح باسم العقل، أي عقلها الخاص.

يتمثل دور رجال الدولة العظام في معرفة توجيه قدر الشعوب باستخدام الدوافع العاطفية والدينية التي تقودها وليس عبر محاولة تدمير هذه الدوافع باسم العقل.

لا يستمر للأبد تنازع مختلف أشكال المنطق، فهي تنحو كما رأينا سابقا نحو التوازن. التناقضات تستمر لكن يمكن الوصول إلى عدم رؤيتها مجددا. فالعنصر العقلي يسلّم أغلب الأحيان بتحمّل التأثيرات العاطفية والدينية دون الموافقة مع ذلك على الاعتراف بهزيمته. ولهذا بالذات نتخلى عموما عن مناقشة عواطفنا واعتقاداتنا. لأن تحليلها قد يكون في نهاية الأمر صعبا جدا؛ فالمرء لا يُخدع دائما بأكاذيب الآخرين لكنه يُخدع بسهولة بالغة بأكاذيبه الخاصة. ولحسن الحظ فإن الحكمة القديمة: " اعرف نفسك بنفسك "، مستحيلة التحقق، لأننا إذا ما عرفنا أنفسنا بأنفسنا، واكتشفنا الصراعات الدائمة التي يعيشها عقلنا، فإن حياتنا ستغرق في ركام من الشكوك. تجاهل النفس أفضل أحيانا من معرفتها.

لنستنتج من كل التأملات السابقة أن بعض العناصر الدينية والعاطفية، التي لها قوانينها الخاصة، تبقى دائما في الذهن وتستخدم قاعدة لسلوك الأفراد والشعوب.

وعلى الرغم من كونها متناقضة غالبا، فإن كل دوافعنا تنتهي إلى التوازن والتصرف كل في ميدانه إذا لم نثرها وعلى

الأخـص إذا لم نحـاول إقامـة مـصالحات مـستحيلة فيمـا بينهـا. فالحقائق العاطفية، والحقـائق الدينيـة، والحقـائق العقليـة هـي بنـات أشكال من المنطق مختلفة جدا بحيث لا يمكنها على الإطلاق أن تندمج معا.

الفصل الثالث

ميزان الدوافع

1 ـ الميزان الذهني. الفعل

المحرضات النفسية المتناقضة لمختلف أشكال المنطق التي تقودنا تثير الحيرة غالبا حول السلوك الذي يجب إتباعه. تتضمن الحالات الأشد بساطة خيارا بين عدة حلول. ينبغي بالتأكيد أن نختار، لأن متطلبات الحياة تُلزم بالتحرك. فكيف يُتخذ قرارنا؟

سوف يشرح المثال التالي آلية العمل بسهولة.

لنضع دون قصد في كفتي ميزان أشياء عادية، بعد انتهاء العملية سوف يميل العقرب الذي يترجم حركتهما إلى إحدى الجهات إذا كانت الكفتان محملتين بأشياء غير متساوية الوزن، وسيظل عموديا إذا كانتا متساويتين في الوزن.

عدا عن الموازين المادية توجد موازين ذهنية لها آلية عملها المشابهة، الأوزان هي دوافعنا للفعل، ويمثل العقرب العمل الذي يشير ثبات الكفة في موضع توازنها إلى إنجازه.

دوافع الفعل هذه يمكنها أحيانا أن تكون صادرة عن العقل، لكن تُضاف أغلب الأحيان إلى هذه الدوافع الواعية ذات الطابع

العقلي دوافع لاواعية جرى وصفها سابقا والتي تثقل بشدة إحدى الكفتين.

في التحليل الأخير، الدوافع هي طاقات متصارعة. والأقوى هي التي تكسب. فحينما تكون الطاقات المتناقضة متساوية الشدة نوعا ما، فإن الكفتين ستتأرجحان طويلا قبل أن تثبتا في موضع نهائي. إنها الطباع القلقة، المترددة. أما حينما تكون الطاقات المتصارعة غير متكافئة أبدا فإن إحدى الكفتين تجد في الحال توازنها، مدللة على طباع حازمة تنتقل بسرعة إلى اتخاذ القرار وتنفيذه.

2 ــ دور الإرادة في ميزان الدوافع

أوزان الميزان الذهني تكون غالبا تحت تصرفنا، أي أننا نستطيع أن نضيف إليها أو أن نقتطع منها. الأبطال الشجعان الذين اجتازوا لأول مرة جبال الألب أو بحر المانش محلقين في الجو أسقطوا بالتأكيد من كفتي الميزان الدوافع العقلية العديدة القادرة على منعهم من القيام بمغامرتهم الخطيرة التي لم يجرب كائن بشري قبلهم القيام بها.

مع ذلك، لا تتكفل إرادتنا دائما بوضع الأوزان في ميزان الدوافع. فعناصر الحياة العاطفية أو الدينية تقوم وحدها بإدخالها. وهذا ما يحدث في الأعمال الفورية الناتجة عن تأثر شديد، مثلا كأن نقفز في الماء شتاء من أجل إنقاذ شخص لا نعرفه. لو كان المرء قد شغّل تفكيره فإن تأثيره كان سيعدل تأثير العناصر

العاطفية وميلان العقرب كان سيغيّر وجهته. ولهذا إذا كانت البطولات الكبرى الفورية كثيرة الحدوث فإنه من النادر جدا أن نلحظ أعمالا من البطولة اليومية، كأن تحرم نفسك من المتع الحياتية من أجل العناية بأب عاجز. ولعله من المنصف جدا أن تقوم الأكاديميات المكلفة بتوزيع جوائز الفضيلة بمنح الأفضلية لأعمال البطولة الصغيرة المستمرة.

الإرادة الواعية يمكنها التأثير إذن في كفتي ميزان الدوافع لكن حين تكون هذه الإرادة لاواعية كما في المعتقدات، يبطل دورها تقريبا. المنطق الديني يعمل عندئذ بعيداً عنَّا، وعند الحاجة رغما عنا وضدنا.

حينما يتدخل المنطق العاطفي وحده نكون منزوعي السلاح بدرجة أقل لأنه إذا لم تكن العواطف شديدة القوة فإن العقل يمكن أن يتصرف ببعضٍ من الأوزان التي تمثل الدوافع.

ينبغي ألا نأسف ا كثيرا لضعف قوتنا مقابل محرضات المنطق العاطفي، لاشك أن لهذه الدوافع نتائج كارثية غالبا، لكنها أيضا تصبح أحيانا مولّدة لأعمال مفيدة جدا للإنسانية.

حينما يعرف الإنسان كيف يجمع دوافعه العاطفية والدينية مع الاكتشافات التي وحده المنطق العقلي قادر على انجازها، فإنه يتوصل كما في حالة الطيارين البواسل المذكورين سابقا إلى توسيع حدود الممكن.

في ميزان الدوافع، حيث تبدأ نشأة الآراء والمعتقدات والأعمال يوجد، كما نرى، الكثير من البواعث المستقلة عن إرادتنا. لو كانت كذلك دائما لأمكن للمرء القول، وعدة مدارس فلسفية لاتزال تعلّم ذلك، أن ثمة حتمية صارمة تقودنا.

هيمنت الحتمية في الواقع على مرحلة طويلة من التاريخ البشري. فقد كان البشر، العاجزون عن التصرف بأنفسهم، يخضعون للقوانين الحتمية لأشكال من المنطق الغريبة عن العقل.

3 ـ كيف يؤثر المنطق العقلي في موازنة الدوافع

مع الظهور البطيء للمنطق العقلي ولدت قوة جديدة في العالم. فسمحت للإنسان التأثير غالبا في كفتي ميزان الدوافع، اللتين كانتا بعيدتي المنال بالنسبة له سابقا.

عند دراستنا لتفكيك الحتميات في كتاب سابق، أظهرنا كيف أن المنطق العقلي، الذي تقوده إرادة قوية، يصبح العامل الأكبر في هذا التفكيك. يستطيع الإنسان، بفضل سلطته، التأثير في مجريات الأمور. وبعد أن كفّ عن أن يكون محكوما حصرا من قبل القوى اللاواعية التي كانت تقوده سابقا، تعلّم الإنسان كل يوم أكثر فأكثر السيطرة عليها وتحديد سلطتها.

وإذا لم يكن بوسع المنطق العقلي المدعوم بالإرادة أن يحدد المصير بعد، فذلك لأن غالبية عوامل الأحداث تظل مجهولة بالنسبة لنا، ولأن الكثير من أعمالنا تحفل بنتائج قابلة للتحقق فقط في مستقبل مليء دائما بالطارئ.

هذا الطارئ يقضي بالمخاطرة، أي أن يُدخِل في ميزان الدوافع أوزانا ذات قيمة غير معروفة. فالقادة الحقيقيون لأقدار الشعوب، الرجال العباقرة الذين يجود كل قرن بعدد قليل جدا منهم، عرفوا كيف يراكمون المزيد من الحظوظ الممكنة في إحدى الكفتين، مع أنهم يخاطرون كثيراً.

بسمارك الذي استشهدنا به عدة مرات بسبب نفسيته التي تعلمنا الكثير، يبرز بوضوح ضرورة المخاطرة. فالفكرة الرئيسة، وحدة وطنه، كانت تقوده، لكن كم واجه من الأخطار في حياته، وكم من الحظوظ المعاكسة، ومن عقبات متراكمة، كان على إرادته أن تتصدى لها! فقد كان يجب في البداية تدمير القدرة العسكرية للنمسا، التي أنعم عليها ماض مجيد بالكثير من القوة. ونصر سادوفا عام 1866 تحقق بجهد كبير جدا. بعد تحقيق هذا النصر الصعب، توجب المجازفة بمقاتلة نابليون الثالث الذي اشتهرت جيوشه بأنها لا تُقهر والتي ربما كانت لتكون كذلك فيما لو تحقق التحالف بين فرنسا والنمسا.

إن الرجل العظيم يستطيع إعداد كل هذه الترتيبات لكن لا يضمن نجاحها. إن طبعا جسورا، وذكاء واسعا مستنيرا بحدس العبقرية العظيم كانا يسمحان وحدهما بمواجهة مثل تلك الأخطار. كان يجب مواجهتها ومع ذلك وحيث أن عوامل لا تُحصى تقيدنا والتي يشكل مجموعها ما يمكن تسميته بالصدفة، تظل صعبة المنال.

المنطق العاطفي هو على وجه الخصوص ما يشجع على المخاطرة. فهو الداعم الأول في مغامرة يجب على المنطق العقلي أن يقودها أيضا. ثمة مخاطر كبيرة برزت أثناء عبور المانش وجبال الألب بالطائرة لكن المنطق العقلي كان يساند إرادة تستلهم الأمل بالمجد، ومتعة الصراع ضد الصعوبات، وعناصر أخرى ذات منشأ عاطفي حصرا.

إيكار الذي حاول، على حدٍّ زعم الأسطورة، محاولة مشابهة مزودا فقط بإرادته الشخصية، مات ضحية جهده. ينبغي التسلح بقوة إذا أردت تحدي الطبيعة والآلهة.

سادة التاريخ المنظور وغير المنظور، العلماء المرموقون، المفكرون العظام، القادة المشهورون، يدينون بعظمتهم لما أحسنوا استخدامه، دون أن يهملوا أيا من أشكال المنطق التي تقود الإنسان وأن يحركوا بفضلها ميزان الدوافع حيث يُحدد المستقبل.

ليس بالجماهير، اللعُب العمياء لغرائزها، تتقدم الحضارات، وإنما بالنخبة الصغيرة التي تعرف كيف تفكر لصالح الجماهير وتوجهها. عند محاولة وضع المنطق العقلي في خدمة المنطق الجمعي، من أجل تبرير جميع دوافعها، لم تقم جوقة السياسيين الرهيبة إلا بخلق فوضى عميقة.

تلخيصا لهذا الفصل والفصول التي سبقته، سنقول أن أحداث التاريخ تنتج عن توازن و تنازع أشكال المنطق المختلفة. في ميزان الدوافع حيث تتأثر مصائرنا، تلعب جميعها دورها. فما أن يرجح أحدها حتى يتغير قَدَر الإنسان.

المبالغة في المنطق العاطفي يقود إلى الاستسلام دون تفكير لمحرضات غالبا ما تكون لها نتائج مشؤومة. المبالغة في المنطق الديني تورّث الحياة الدينية المحكومة بالاهتمام الأناني بخلاصها، ودون أية فائدة اجتماعية. المبالغة في المنطق الجمعي تؤدي إلى هيمنة العناصر الدنيا من الشعب وتقود إلى الهمجية. المبالغة في المنطق العقلي تقود إلى الشك وعدم الفاعلية.

الكتاب الخامس

الآراء والمعتقدات الفردية

الفصل الأول: العوامل الداخلية في الآراء والمعتقدات

الفصل الثاني: العوامل الخارجية في الآراء والمعتقدات

الفصل الثالث: لماذا تختلف الآراء ولماذا لا ينجح العقل في تصويبها

الفصل الرابع: تصويب الآراء عبر التجربة

الفصل الأول

العوامل الداخلية في الآراء والمعتقدات.

(الطبع، المثال الأعلى، الحاجات، المصلحة، الأهواء، الخ...)

1 ـ تأثير العوامل المختلفة في الآراء والمعتقدات.

كتبت الصحيفة الإنجليزية كومينتاتور **Commentator** حول علم النفس السياسي ما يلي: " ربما سيظهر يوما ما كتاب مدهش حول فن الإقناع. إذا افترضنا أن علم النفس توصل لأن يصبح علما متقدما جدا بمستوى الهندسة والميكانيك، فإنه سيصبح في الإمكان التنبؤ بآثار عَرَض ما على عقل الإنسان بالتأكيد ذاته الذي نستطيع به التنبؤ الآن بخسوف القمر. إن علم نفس متطور إلى هذه الدرجة ستصدر عنه سلسلة من القواعد تسمح بتحويل أي فرد إلى رأي بعينه. وستكون آلية عمل أيّ عقل عندئذ شبيهة بعمل آلة الكتابة حيث يكفي الضغط على زر ما لينطبع في الحال الحرف المطلوب. إن علما على هذه الدرجة من القدرة وبالتالي من الخطورة سيصبح بالضرورة حكرا على الحكومة ".

يمكن نظريا قبول وجود مثل هذا العلم المستقبلي الذي يعرف الآن العظماء من رجال الدولة والقادة بعض الشذرات منه، لكن

القدرة على ابتداعه بصورة تامة يعود لبشر يتمتعون بذكاء أعلى من ذكائنا الحالي.

والسبب في ذلك واضح. فواحدة من المسائل الأشد صعوبة في علم الفلك والذي لم يقدم لها حتى الآن إلا حلّاً جزئيا هي المدعوة بالأجسام الثلاثة، والتي تتطلب تحديد مسارات ثلاثة أجسام متحركة **mobiles** تؤثر في آن واحد في بعضها البعض. والحال فإن العناصر النفسية التي يمكن أن تدخل في قرار واحد هي ليست فقط أعظم عددا بل إن تأثيرها يتنوع تبعا لحساسية كل شخص.

وإذا كانت توقعات سلوك البشر ليست مع ذلك مستحيلة دائما، فذلك لأنه توجد غالبا وسط المجموع المعقد من المشاعر التي تشكل الطبع عناصر راجحة توّجه الأخرى، مثل البخل، الأنانية، احترام الذات، الكبرياء، الخ.... والأشخاص المحكومون على هذا النحو هم الأسهل انقيادا، لأن المرء يعرف على أي زر عاطفي ينبغي الضغط. أما الفرد المتوازن جدا والذي لا يظهر علامة مهيمنة، فإنه يكون على العكس صعب الاختراق وصعب الانقياد.

كل العوامل التي سوف نعددها لا تدخل في نشأة رأي ما. وإذا أثر أحدها على هذا الشخص فإنه سيظل دون تأثير على آخر. فما يستهوي شعب ما لا يثير اهتمام الشعب المجاور.

وفي الواقع، فإن تشكيل غالبية الآراء يتضمن عددا قليلا من العناصر. فالعرق، والوسط والعدوى بالنسبة للمعتقدات الكبرى، والانطباعات والمنفعة الشخصية بالنسبة للآراء اليومية، ستكون كافية. ونحن ملزمون مع ذلك بأن ندرس غيرها وأن نضعها في

المستوى ذاته تقريبا، لأنها إذا لم تكن كلها تؤثر دائما، فلا يُعدم أن يكون أحدها قادرا في لحظة معينة على التدخل.

2 ـ الطبع

تتوضع الطباع المتغيرة للأفراد فوق الأساس المشترك لطباع الأعراق. ويكون دورها في نشأة الآراء والمعتقدات عظيم الأهمية. وحتى الفيلسوف الأكثر حكمة لا ينجو من تأثيرها. فنظرياته المتفائلة أو المتشائمة تنتج عن طبعه أكثر مما تنتج عن عقله، ويؤكد، و. جيمس **W. James** محقا إذْ أن: " تاريخ الفلسفة هو ولدرجة كبيرة، تاريخ تصارع الأمزجة البشرية. هذا الاختلاف الخاص بالأمزجة، يضيف، كان يؤخذ في الحسبان في ميدان الأدب والفن والحكم والأخلاق وبالقدر نفسه كما في ميدان الفلسفة. فإذا تعلق الأمر بالأخلاق: فإننا سنصادف فيها من جهة الناس الذين يجاملون، ومن جهة أخرى أولئك الذين لا يجاملون. وإذا ما تعلق الأمر بالحكم: فهناك المتسلطون، وهناك الفوضويون. في الأدب هناك الحريصون على اللغة، أو الناس المأخوذون بالأسلوب الأكاديمي وهناك الواقعيون. "

فإذا اقتنعنا بهذا التأثير للطبع الشخصي على الآراء فإننا سنلاحظ بسهولة لماذا يكون بعض الأشخاص محافظين ويكون آخرون ثوريين.

هؤلاء، الثوريون، يميلون دائما، بفعل مزاجهم فقط، للثورة ضد كل ما يحيط بهم، أيّاً يكن نظام الأشياء القائم. وهم يُجندون عموما من ذوي الطباع التي انحل ثباتها الوراثي بفعل تأثيرات

مختلفة. وبالتالي لا يعودون قادرين على التأقلم مع وسطهم. كثيرون منهم ينتمون إلى عائلة المنحطين الواسعة الذين يندرجون في عالم المرضى. ولأنهم أصبحوا غير قادرين على التأقلم مع الحالة الاجتماعية، فإنهم سيصبحون بالضرورة معادين لها مثل همجي أُخضع بالقوة للعيش في حضارة ما.

جيش الثوريين يتكون حاليا من بين عامة الناس على الأخصّ من المنحطين الذين تطفح المدن الكبيرة بأمراضهم، الكحولية، والزهرية، والملاريا، والتسمم الرصاصي، الخ... إنهم حثالة لا ينفك تقدم المدنية يضخم من عددها كل يوم. إن واحدة من أخطر مشاكل المستقبل ستكون كيف نخلص المجتمعات من الهجمات الضارية لهذا الجيش من غير المتأقلمين.

وقد لعبوا أحيانا دورا عظيما في التاريخ، لأن قدرتهم على الإقناع تؤثر بقوة في روح الشعوب. ثمة أشباه معتوهون مثل بطرس الزاهد ولوثر قلبوا العالم.

3 ـ المثال الأعلى

يحدد المثال الأعلى لشعب من الشعوب عددا كبيرا من آرائه ومعتقداته. فهو يمثل حصيلة طموحاته المشتركة، وحاجاته ورغباته. وهذه الحصيلة محددة بعرقه وماضيه وبالكثير من العوامل الأخرى التي لن أحفل بها الآن. وقد بينت في مكان آخر قوته وأظهرت أنه لا يمكن أن ينهار دون أن تكون قد انهارت أيضا أسس البناء الاجتماعي الذي يدعمه هذا المثال. وإذا كان هناك كثير من الناس

المترددين اليوم في آرائهم ومعتقداتهم ويخضعون للدوافع الأكثر تناقضا، فذلك لأنه على الرغم من امتلاكهم عقلا رفيع المستوى أحيانا فإنهم لا يمتلكون إلا مثالا أعلى ضعيفا جدا.

تتعلق قوة المتعصبين تحديدا بكونهم يخضعون خضوعا تاما لمثالهم الأعلى الخطير. ويمكن ملاحظة الأمر اليوم بالنسبة للمثال الأعلى الاشتراكي، الوحيد الذي مازال يغري الجماهير. فهو يثقل على مجموع حياتنا الوطنية ويولّد طائفة من القوانين المدمرة لرخائها.

المثال الأعلى إذن ليس مفهوما نظريا على الإطلاق يمكن للمرء تجاهل تأثيره. فهو ما أن يصبح عاما حتى يمارس تأثيرا مهيمنا في أدق تفاصيل الحياة. وحتى أولئك الذين يجهلون تأثيره يخضعون له.

المعتقدات الدينية الأخلاقية أو السياسية لا تكتسب سلطتها إلا بعد أن تكون قد تجسَّدت في مثال أعلى مقبول من الجميع. وحينما يتكيف هذا الأخير مع ضرورات وإمكانيات اللحظة التاريخية فإنه يحدد عظمة أمة ما. وبالعكس من المسار الطبيعي للأشياء فإنه يسبب انحطاطها.

4 ـ الحاجات

تبرز الحاجات من بين المولدات الكبرى لآرائنا، وسلوكنا وتطورنا الاجتماعي. الجوع هو الحاجة الأقوى من بينها، فقد قاد أسلافنا الأوائل من الكهوف البدائية إلى فجر المدنية والغالبية

الواسعة جدا من الناس لا تعمل إلا لإشباعه. وهو من طرد البرابرة من سهوبهم لينقضّوا على روما ويغيروا مجرى التاريخ. و في أيامنا هذه لم يخفت دوره. وقد قيل بحق أن الاشتراكية هي مسألة معدة.

ويضيف تقدم المدنية باستمرار حاجات جديدة إلى قائمة الحاجات القديمة الطويلة أصلا. حاجات التغذية، والتكاثر واللباس، حاجات دينية، حاجات معنوية حاجات جمالية والكثير غيرها، هي جميعها تعبيرات عن ضرورات بيولوجية وعاطفية تقودنا وتحفظ العاملين الكبيرين اللذين لا يقهران للنشاط البشري، ألا وهما اللذة والألم.

يعني خلق حاجات جديدة بين الجماهير إيجاد أراء جديدة. رجال الدولة المرموقون هم من يعرفون كيف يثيرون حاجات مفيدة لأوطانهم. فالحاجة لوحدة ألمانيا و فيما بعد الحاجة لأسطول بحري حربي كانا من الحاجات المفروضة اصطناعياً. وقد أورث التطور العلمي للصناعة حاجات جديدة، مثل السكك الحديدية والهاتف، سرعان ما أصبحت ضرورات لا غنى عنها. ولسوء الحظ فإن هذه الحاجات نمت بسرعة أكبر من سرعة نمو وسائل إشباعها. وباتت تمثل أحد مصادر الاستياء التي تغذي الاشتراكية.

وهي أيضاً الدافع الحقيقي للتسلح الذي يؤدي أكثر فأكثر إلى إفلاس أوروبا. حاجات الشعوب التي كبرت كثيرا والصراع من أجل الوجود أصبح أكثر فأكثر حدة، فصار كل شعب يغذي أمله المقدس بالإثراء على حساب جيرانه. فالألماني قبل خمسين عاما، آكل الشكروت البسيط، كان مسالما لأنه كان دون رغبات.

لكنه أصبح بعد أن زادت حاجاته فجأة، محاربا ومهددا. إن ألمانيا بعدد السكان المتزايد بسرعة كبيرة ووصوله عما قريب إلى الرقم الذي تعجز البلد عن إطعامه، تقترب من اللحظة التي ستقوم فيها، لكي تعيش، تحت ذريعة ما، وحتى بدون أية ذريعة سوى حق الأقوى، بغزو الشعوب المجاورة. هذا السبب وحده كان يكفي لإقناعها بضرورة النفقات الباهظة لتنمية بحريتها وجيشها.

5 ـ المصلحة

لن يكون من الضروري التركيز على دور المصلحة في تشكيل أرائنا. فهو موضوع يتعلق كلٌّ منا به.

وغالبية الأشياء يمكن أن يُنظر إليها من وجهات نظر مختلفة: مصلحة عامة أو مصلحة خاصة بالطبع. واهتمامنا المنصبّ طبيعيا على الجهة الني تفيدنا، يمنع من ملاحظة مصالح الآخرين.

تملك المصلحة كما الهوى، القدرة على تحويل ما يفيدها الاقتناع به إلى حقيقة. فهي إذن أقوى أحيانا من العقل وحتى في مسائل قد يبدو أنه يجب أن يكون العقل فيها هو الدليل الوحيد. في الاقتصاد السياسي، مثلا، توحي المصلحة الشخصية بالقناعات لدرجة أن المرء يمكن أن يعرف مسبقا، تبعا للمهنة التي يمارسها فرد ما، إن كان من أنصار التبادل التجاري الحر أم لا.

وتتبع تقلبات الآراء بالطبع لتقلبات المصلحة. في الشأن السياسي، تشكل المصلحة العامل الرئيس. ففلان الذي سبق له أن قاتل بضراوة في لحظة معينة ضد الضريبة على الدخل، سيدافع

عنها بضراوة لا تقل فيما بعد إذا كان يأمل بأن يصبح وزيرا. والاشتراكيون الذي يثرون ينتهون عموما إلى محافظين، وناقمو حزب ما يتحولون بسهولة إلى اشتراكيين.

المصلحة في جميع أشكالها ليست فقط مولّدة للآراء، فهي، وقد نخستها حاجات شديدة الحدة، تضعف بسرعة أخلاقية الإنسان. فالقاضي الطماع بالترقية، والجرّاح أمام عملية جراحية غير مجدية لكنها مربحة، والمحامي الذي ستزيد من غناه تعقيدات الدعوى التي كان بإمكانه تجنبها، سرعان ما ستتراجع أخلاقياتهم إذا ما حرَّضت حاجات الترف القاهرة مصلحتهم. وهذه الحاجات يمكنها أن تشكل لدى الأشخاص السامين حافزا للنشاط والتقدم، لكنها بالعكس تولّد أحيانا عند الأشخاص المتواضعين انحطاطا أخلاقيا متسارعاً.

المصلحة المعنوية هي غالبا أحد عوامل الرأي القوية كما المصلحة المادية. الكبرياء المجروحة على سبيل المثال تولّد أحقادا شديدة وكل الآراء التي تنتج عنها. كراهية برجوازيي الثورة ضد طبقة النبلاء وعمليات ثأرهم الدامية كانت نتيجة على الأخص لمشاعر الإذلال السابقة. فقد كان مارا يثأر من وضعه الاجتماعي السابق، هيبير هجّاء الأب ديشيسن، **Père Duchesne** – اسم صحيفة - الذي أمر بقطع الكثير من الرؤوس، كان في البداية ملكيا متحمسا. ولو عاشا لينعما بالمناصب أو الألقاب في العهد الامبرطوري، كما حدث للكثيرين من أقرانهما لأصبحا محافظَين متحمسين.

6 ـ الأهواء

تشكل العواطف الثابتة وذات الشكل المستحوذ الموصوفة بالأهواء كذلك عوامل قوية في الآراء والمعتقدات، وبالتالي في السلوك. وبعض الأهواء المعدية تصبح، لهذا السبب، جماعية بسهولة. ويصبح عندئذ تأثيرها لا يقاوم. وقد دفعت الكثير من الشعوب لمهاجمة بعضها بعضا في مختلف مراحل التاريخ.

الأهواء يمكنها أن تحرض نشاطنا، لكنها يمكن أن تحرف الآراء عن الصواب أغلب الأحيان، وتمنع من رؤية الأشياء على حقيقتها ومن فهم نشأتها. وإذا كانت كتب التاريخ تطفح بالأخطاء فذلك لأن الأهواء في أغلب الأحيان هي التي أملت الحكاية. ولن يُذكر على الإطلاق، كما أعتقد، مؤرخ روى أحداث الثورة دون تحيز.

إن دور الأهواء، كما نرى، عظيم الأهمية في تكون أرائنا وفي أصل الوقائع. ولسوء الحظ فليست الأهواء الأكثر نبلا هي التي مارست الكثير من التأثير. فقد اُضطر كانط للاعتراف بالقوة الاجتماعية الكبيرة لأسوأ الأهواء. فالخبث ربما كان حسب رأيه رافعة التقدم الإنساني القوية. إذ يبدو من المؤكد تماما لسوء الحظ أنه لو كان البشر اتبعوا وصايا الإنجيل: " أحبوا بعضكم بعضا "، عوضا عن الخضوع لقانون الطبيعة الذي يطلب إليهم تدمير بعضهم بعضا، لبقيت الإنسانية حتى الآن تعيش خاملة في أعماق الكهوف البدائية.

الفصل الثاني

العوامل الخارجية في الآراء والمعتقدات

(الإيحاء، الانطباعات الأولى، الحاجة للتفسير، الكلمات والصور، الأوهام، الضرورة، الخ..)

1 ـ الإيحاء

تنتج الغالبية العظمى من أرائنا ومعتقداتنا، السياسية، والدينية، والاجتماعية عن الإيحاءات. كتب جيمس: " هذه الكلمة، إيحاء، تشير إلى السلطة التي تمارسها الأفكار على المعتقدات والسلوك. " وهذا التعريف لا يبدو مصيبا تماما. فالإيحاء هو في الواقع القدرة على الإقناع التي تمارسها ليس الأفكار فقط، بل أية مسألة كانت: التأكيد، الهيبة، الخ. فالأفكار وحدها وعلى الأخص المحاكمة تتمتع بالعكس، بقوة إيحاء ضعيفة جدا.

الإقناع لا يعني مطلقا الإيحاء. الإيحاء يُخضِع. التدليل العقلي يمكن أن يُقنع لكنه لا يجبر على الخضوع. طرق الإيحاء متعددة جدا :الوسط، الكتب، الخطاب، الأعمال الفردية، الخ... الكلام يمثل واحدة من أكثرها فاعلية. أن تتكلم يعني أساسا أن توحي، أن تؤكد يعني أن توحي أكثر، أن تكرر التأكيد بشغف يعني أن

تدفع الفعل الإيحائي إلى حده الأقصى.

تكون آثار الإيحاء ذات شدة متنوعة جدا. فهي تمتد من الفعل الخفيف للبائع الذي يسعى لبيعنا بضاعة ما وحتى تلك التي يمارسها المنوم المغناطيسي على المرْيض العصبي الذي يخضع بشكل أعمى لكل أوامره. في السياسة، المنوم يسمى القائد. وتأثيره عظيم الأهمية.

آثار إيحاء ما تخضع للحالة العقلية لمن يتعرض له. فتحت تأثير عاطفي شديد: مثل الكراهية أو الحب الخ.. والذي يضيّق حقل وعيه، سيكون الشخص مستقبلا جدا للإيحاء وستتحول آراؤه بسهولة كبيرة.

لا يُستثنى العالِمُ الأكثر نباهة من تأثير الإيحاء. فقد صور لنا جيل لوماتر **Jules Lemaitre** في محاضراته حول فينلون **Fénelon** هذا الحبر الخاضع لسيطرة مريضة عصبية، هي مدام غييون التي بعد أن كانت قد عينته موجِّها لها، تحولت لتصبح بسرعة موجهة له. فقد نجحت بجعله يقبل بصواب أوهامها حول عقيدة الطمأنينة العبثية التي تبشر باللامبالاة حيال الخلاص وبالأعمال. وقد كان فينيلون متأثرا بإيحائها لدرجة أنه لم يتردد في عرض هذه العقيدة أمام اجتماع للأساقفة برئاسة بوسييه **Bossuet**. وسرعان ما اكتشف هذا الأخير الإيحاء الذي مورس على الحبر المرموق فقال: " إني أتراجع مندهشا من رؤية شخص ظريف معجب بامرأة قليلة الذكاء وقليلة القيمة وذات أوهام شديدة الوضوح وتدّعي النبوة." والأشخاص العارفون بمجريات التاريخ المعاصر لن يشعروا بالدهشة

ذاتها. فثمة قضايا مدوية (آمبير، دوبريه دو لاماهيري الخ..) أثبتت أن مصرفيين أذكياء، ومحامين و رجال أعمال دهاة أمكن أن يتأثروا بالإيحاء لدرجة أن يتركوا ثرواتهم بين أيدي محتالين عاديين لم يكونوا يمتلكون إلا قوتهم الفتانة.

هذا السحر هو شكل لا يقاوم من الإيحاء. يتعرض له الإنسان كما هو حال العصفور أمام الأفعى. ومما لا جدال فيه أن بعض الأفراد، لكنهم نادرون جدا على أية حال، يمتلكون قدرة سحرية حتى على الحيوانات، كما أتيحت ملاحظة ذلك لكل الأشخاص العاملين في ميدان ترويضها. وثمة جرائم عديدة أساسها هذا الفعل السحري. فقد كانت الكونتيسة المعروفة تارنوفيسكا توحي لعشاقها بسهولة ارتكاب بعض الجرائم. فقد كانت قدرتها من القوة بحيث كان يتوجب تبديل رجال الدرك المرافقين لها وحراس سجنها باستمرار.

وثمة أمثلة عديدة مشابهة يمكن تقريبها من أعمال يقوم بها بعض الوسطاء الروحيين أو بعض الدراويش الذين يوحون للمحيطين بهم الاعتقاد بظواهر لا وجود لها على الإطلاق. وهكذا فقد سقط عدد من العلماء المرموقين ضحية لإيحاءات مارسها عليهم الوسيطة الروحية الشهيرة أوزابيا كما سأبين في قسم آخر من هذا الكتاب.

بعد أن أصبح دور الجماهير مؤثرا أكثر فأكثر ولأن هذه الجماهير لا يمكن لشيء التأثير فيها أكثر من الإيحاء فإن دور القادة أخذ يتعاظم يوميا. والحكومة التي تدعي الشعبية ليست في الحقيقة سوى أوليغارشية قادة يظهر تأثيرهم الاستبدادي في كل لحظة. فهم يأمرون بالإضرابات ويجبرون الوزراء على الخضوع لهم

وإصدار قوانين عبثية.

وقدرتهم على الإيحاء كبيرة بحيث يجبرون الجماهير على الخضوع الأعمى. في العيد السنوي الأخير لموظفي شركة أورليان، لفت مديرها النظر إلى أن موظفيه بدؤوا إضرابا بعد أن كان قد وافق على كل مطالبهم بتحسين ظروفهم، وأضاف: " ومع ذلك فلابد أنه كان للإضراب سبب ما، نعم كان له سبب: كان من تدبير مجموعة صغيرة من المحرضين الذين تقوم طريقة عملهم، التي هي ذاتها دوما، على استبدال الحجة بالتهديد، والشتيمة و الإهانة. "

وعمل هؤلاء القادة لم يكن فيه شيء مخفي، فقد ذُكرتْ في هذا الخطاب نفسه مقاطع من مقالاتهم. إن علم نفس أكثر ثقة كان سيُفهم هذا المدير الدور الإيحائي لهؤلاء الزعماء ولكان أبطله وذلك بطردهم من شركته. العبرة ليست فقط كابحا فعالا بل أيضا وسيلة إيحاء قوية. ولأن الإيحاء من طبيعة عاطفية فلا يمكن مقارعته إلا بالإيحاء. الاستسلام للقادة مثلما يحدث دائما يقوي من تأثيرهم.

2 ـ الانطباع الأول

الانطباع الأول هو ما نشعر به للوهلة الأولى في مواجهة شخص أو حدث أو شيء مجهول. ولأن إعداد حكم ما يكون بطيئا وشاقا، فإن المرء يكتفي عموما بالانطباعات الأولى، أي بإيحاءات حدس محض.

النساء والأطفال والبدائيون وحتى كثير من الناس المتحضرين يثقون بانطباعاتهم الأولى.

في بعض جوانب الحياة الاجتماعية ترتبط الانطباعات الأولى أحيانا ببعض المحاكمات العقلية. لكن في جوانب أخرى، مثل المواضيع الفنية والأدبية خاصة، تبقى انطباعاتنا الأولى هي دليلنا الوحيد تقريبا. وبما أنها تخضع لحساسية قابلة للتغير على الدوام فإن المفاهيم المشتقة منها تتحول بسهولة. وفي الواقع نراها تتغير مع الأزمنة، والأفراد والأعراق. والانطباعات الأولى المتولدة عن الأشياء ذاتها لدى بارون إقطاعي، و راهب كالفيني، ومثقف، وإنسان عادي وعالم الخ... لا يمكن أن يكون بينها أي شيء مشترك بالتأكيد.

وهذه الاختلافات قلما تُلحظ في مسائل العلم النظري التي تنأى عموما عن الميدان العاطفي، لأن الأحكام فيها لا تتشكل بتأثير الانطباعات الأولى. في حين أن حساسيتنا التي توجهها بديهيات لا تُدحض مجبرةٌ على قبول ما يصدمها أكثر من غيره أحيانا.

انطباعاتنا الأولى قد تُدمّر فجأة أحيانا بفعل انطباعات مخالفة، لكن يحدث أيضا أن تكون قوية جدا بحيث لا تزول إلا ببطء بفعل تآكلها نفسه. والأحكام المستندة إليها تدوم عندئذ لزمن طويل. ربما كان ينبغي اعتبار الانطباعات الأولى إشارات غامضة ينبغي التحقق من صحتها دائما. فالاستسلام لها دون تمحيص كما يحدث غالبا يقضي بعيش الحياة في الضلال. لأن ليس لها في الواقع من سند سوى قبول أو نفور غريزي لا يبرره أي عقل.

وعلى مثل هذه القواعد الهشة جدا تبنى مع ذلك في أغلب الأحيان مفاهيمنا عن الصالح والطالح، وعن الخير والشر، وعن الحقيقة والوهم.

3 ـ الحاجة للتفسير

الحاجة للتفسير حاجة لا يمكن قهرها مثلها مثل الحاجة للإيمان، وهي ترافق الإنسان من المهد إلى اللحد. وقد ساهمت في خلق آلهته وتحدد يوميا نشأة عدد كبير من الآراء.

هذه الحاجة الشديدة يمكن إشباعها بسهولة. فالأجوبة الأكثر بدائية تكفي. والسهولة التي تُشبع فيها كانت مصدر عدد كبير من الأخطاء.

فالروح الإنسانية النهمة دوما لليقين القاطع تحتفظ لأمد طويل بالآراء الخاطئة المؤسسة على الحاجة للتفسيرات وتعتبر عدوا لراحتها كل ما يناقض هذه الآراء.

الضرر الرئيس للآراء المؤسسة على تفسيرات خاطئة يتمثل بأن المرء لا يعود بعد أن اعتبرها نهائية للبحث عن تفسيرات غيرها. تخيُّل معرفة علل الأشياء هو الوسيلة الأكيدة لعدم العمل على اكتشافها. جهلنا بجهلنا أخّرَ تطور العلوم خلال قرون طويلة ومازال فوق ذلك يحدّ من تطورها حتى الآن.

والتعطش للتفسير كان شديدا لدرجة أنه كان يتمّ دائما العثور على تفسير حتى للظواهر الغامضة. فالعقل يشعر بالرضا أكثر عندما يقبل أن جوبيتر يرسل الصواعق أكثر من أن يعترف بأنه يجهل أسباب حدوثها. وحتى العلم ذاته غالبا ما يكتفي بتقديم بتفسيرات مشابهة عوضا عن الاعتراف بقصوره في بعض المواضيع.

4 ـ الكلمات، والعبارات، والصور

تعتبر الكلمات والعبارات من أكبر المولدات للآراء والمعتقدات. قوى رهيبة أفنت من البشر أكثر مما أفنت منهم المدافع في ميادين القتال.

قوة الكلمات تنبع من كونها تثير مجموعة العواطف التي ارتبطت بها لزمن طويل. وقد بينت في كتب أخرى دورها الأساسي في السياسة[1].

إن القوة الإيحائية لبعض العبارات تكون عظيمة الأهمية في أيّ مجلس. بالكلمات يثير السياسيون العواطف. فالسيد كليمانصو رئيس مجلس الوزراء الذي كان يبدو مطلق القوة سرعان ما جرى إسقاطه على الفور لاستعماله كلمة أثارت عند أعضاء البرلمان مشاعر الذل التي عاشوها آنذاك إثر حادثة فاشودا **Fachoda**[2]. وقد كاد خلفه يسقط للسبب ذاته، فقد استخدم جملة صحيحة

---

(1) في مقالة منشورة في 29 كانون الثاني عام 1911 عبرت صحيفة Le Temps بالصيغة التالية:

"في الكتب المعمقة جدا التي كرسها لدراسة علم النفس السياسي والاجتماعي، أشار د.غوستاف لوبون بحكمة نادرة إلى الأثر الذي يمارسه سحر الكلمات على الجماهير وعلى المجالس البرلمانية وغيرها.وقد أثبت ذلك مؤخرا مجلس العموم.فمنذ بضعة أيام وقع تحت سحر مشروع فخم حول " اللامركزية ". فقد صدحت في المجلس عندما تعلق الأمر بتنظيم صناديق التقاعد العمالية والفلاحية، العبارة الكبيرة الموحية بأفكار تسهيل الإجراءات الإدارية. "

(2) مواجهة وقعت في السودان بين بعثة فرنسية والقوات الانكليزية انتهت بخروج الفرنسيين من حوض النيل نهائيا. (م. م.. ع)

جدا لكنها محزنة لأنها كانت تذكيرا بصور مثيرة للقلق، أثارت لدى المستمعين عبارات سخط واستياء أوشك أمامها أن يُسقَط.

ثمة كلمات، كما أشار إلى ذلك موريس باريس، لها وقع سحري، وتتمتع بهذه الخاصة الكلمات المفضلة عند السياسيين الحاليين: الرأسمالية، البروليتاريا، الخ.....

الكلمات سلاطين متجبرة بحيث أن سطوتها تفعل فعلها حتى على الأشخاص الأكثر روية. فأمام ظاهرة غير مفهومة، تستعيض النفس باختراع عبارة لها. فهؤلاء العلماء لأنهم يجهلون كل شيء عن لغز الحياة وغير قادرين على القول لماذا تتحول البلوطة إلى شجرة سنديان، وكيف تتبدل حالة الأشخاص، يقبلون عبارات تحل محل التفسيرات. وقد يجبرهم تطور العلوم على تبديلها أحيانا. فالتكيف حل محل سنّة الحياة، والإليكترون المتعذر الحصول عليه حل محل الذرة التي لم تكن أقل منعة منه. هذه الكلمات التي تُطلق على مجهول تُشبع حاجتنا للتفسير إشباعا كافيا.

توحي الكلمات بصور ذهنية، بيد أن الصور المجازية أكثر قوة أيضا، وقد بينت في كتابي علم النفس السياسي أي دور كبير لعبته الإعلانات المصورة في الانتخابات الانجليزية الأخيرة. فقد حفّزت المشاعر عبر رسم حدودها. ويستخدم الصناعيون والناشرون هذه الطريقة يوميا من أجل لفت الأنظار.

وحتى الحكام أنفسهم أخذوا يوظفون دور الصور النفسي في تكوين الآراء. أمام الانخفاض السريع في أعداد المتطوعين في صفوف الخيّالة خطرت لعالم نفس عسكري ذكي، منذ عدة

سنوات، فكرة أن يعرض في كل مكان إعلانات مصورة بالألوان تمثل فرسانا في منتهى الأناقة وهم ينفذون مختلف أنواع التدريبات، وفوقهم تعداد للمزايا الممنوحة للمتطوعين وللمتطوعين مجددا. كانت النتائج كبيرة إلى حدٍّ أنه في بعض الكتائب توجب على قادتها رفض قبول المتطوعين بسبب عدم وجود أمكنة لهم.

5 ـ الأوهام

ربما يعني إبراز دور بعض الأوهام في تكون الآراء والمعتقدات إعادة كتابة تاريخ الإنسانية. فمنذ الطفولة وحتى الممات يغمرنا الوهم، ونحن لا نعيش إلا بالوهم ولا نلاحق إلا الوهم. أوهام الحب، والضغينة، والطموح، والمجد، وكل هذه الأشكال المختلفة من سعادة مرجوة باستمرار، هي ما يحافظ على نشاطنا. إنها تخدعنا حول عواطفنا الخاصة تماما كما حول عواطف الآخرين وتحجب عنا قساوة القدر.

الأوهام العقلية نادرة نسبياً، أمَّا الأوهام العاطفية فهي يومية. وهي تنمو من واقع أننا نصرّ دائما على رغبتنا في أن نفسر تفسيراً عقلانياً بعض العواطف التي لا تزال غالبا مدفونة في ظلمات اللاوعي. الوهم العاطفي يقنعنا أحيانا بأن نحبُّ كائنات وأشياء لا تبالي بنا في الواقع. وهو ما يحملنا على الاعتقاد بديمومة عواطف يحكم تطور شخصيتنا بتلاشيها القريب.

كل هذه الأوهام تنعش وتجمّل الطريق المؤدية إلى الهلاك الأبدي. ليس علينا أن نأسف لأنها نادرا ما خضعت للتحليل. فالعقل لن ينجح في تفكيكها إلا إذا شلَ في الوقت ذاته بواعث هامة

للفعل. من أجل الحركة لا يلزم الكثير من المعرفة. إن الحياة طافحة بأوهام ضرورية.

تتضاعف دوافع عدم الإرادة عند مناقشة أسباب الإرادة. ويغرق المرء عندئذ في عدم الاتساق والتردد. وقد كتبت مدام دو ستايل: " أن نرى كل شيء وأن ندرك كل شيء سبب كبير للتردد ". فالعقل الذي يمتلك، القدرة المنسوبة إلى الآلهة، أي القدرة على أن يحيط بلمحة عين بالحاضر والمستقبل، لن يعود يثير اهتمامه أي شيء وسوف تُشلّ بواعث حركته إلى الأبد.

يبدو الوهم، منظورا إليه من زاوية الرؤية هذه، السند الحقيقي لوجود الأفراد والشعوب، والوحيد الذي يمكن للمرء أن يعتمد عليه دائما. وهذا ما تتساه كتب الفلسفة بعض الشيء أحيانا.

6 ـ الضرورة

أعلى من أهواء الطغاة أو المشرعين الذين يسنّون دون انقطاع القوانين من أجل إصلاح المجتمع، يهيمن سيد حاكم هو: الضرورة. فالضرورة التي لا تعبأ بمداولاتنا، تمثل القدر القديم الذي وجب حتى على الآلهة الخضوع له.

يتعمق كل يوم الاختلاف بين تعاليم المشرعين معميي البصر والضرورات التي تحكم الأشياء. والمجتمع الفرنسي الحالي يعيش على الرغم من قوانينه وليس بقوانينه.

وهم السلطة المطلقة التي يتخيلون امتلاكها ينتزع من المشرعين حسَّ الإمكانات. إذ يكفيهم أن يبدو لهم شيء ما صوابا

لكي يصبح ممكنا.

لكن عاجلا أم آجلا، تبعد الضرورة بذراعها الحديدية كل الأوهام. وما أن يعلن فعلها عن نفسه حتى تتبخر أشدُّ النظريات الإنسانوية تماسكا. وسنجد على ذلك مثالا صارخا في الإجراءات الوحشية التي اتخذت في أوستراليا لمواجهة الإضرابات التي تهدد حياة البلاد وتقودها إلى الخراب، على الرغم من أن حكومتها مكونة من اشتراكيين طليعيين [1].

تمثل الضرورة دون ريب محصلة القوى المجهولة التي تقودنا والتي بدأنا فقط نعرف مناهضة بعضها.

على الرغم من قصره، فإن هذا التعداد لعوامل الآراء والمعتقدات المعروضة سابقا يكفي للبرهنة على ثقل الحتميات التي تنوء بحملها النفس البشرية.

---

[1] " انظروا، كتبت صحيفة le petit temps الصادرة بتاريخ 26 آذار من عام 1911، إلى أية إجراءات جائرة لجأت الحكومة: الإضراب وحتى الحث على الإضراب تحت أي شكل كان لا يعتبران بعد من الجنح بل من الجرائم التي تستوجب غرامة قدرها 2500 فرانك وفوق ذلك الأعمال الشاقة لمدة عام. وحصل البوليس على حق الدخول إلى أي مكان يشك فيه بتداول أحاديث تدعو لإضراب إجرامي، ويمكنه أيضا مصادرة جميع الوثائق المتعلقة بذلك، وهي وسيلة سهلة لتفكيك صناديق الإضراب من خلال الاستيلاء على حسابات أمناء الصناديق؛ وقد وصل الأمر حتى التهديد بشمول الملاحقات أي شخص يوافق على تقديم مساعدة ما لصالح عائلات المضربين؛ وخلال بضعة أيام تمت السيطرة على القادة وأودع أخطرهم في السجن."

الفصل الثالث

لماذا تختلف الآراء
و لماذا لا ينجح العقل في تصويبها

1 ـ اختلاف الذهنيات يخلق اختلاف الآراء

تبرز حول جميع المواضيع التي يستحيل تقديم برهان علمي صارم عليها اختلافات في الآراء لا تحصى. ولأنها تقوم بصورة رئيسة على عناصر عاطفية أو دينية، فإنها تخضع فقط لردود فعل فردية يقوم الوسط، والطبع، والتربية، والمصلحة الخ.. بتغييرها باستمرار. لكن هذه التغيرات تسمح مع ذلك ببقاء بعض التوجهات العامة، التي تدفع دائما الأفراد أنفسهم نحو مجموعات آراء بعينها. فمن أين تنشأ أقطاب التوجيه المختلفة هذه؟

نكتشف ذلك من معاينة أن أي شعب لا يتشكل فقط من أفراد يختلفون وفقا للتربية والطبع الخ.... بل على الأخص وفقا لموروثات غير متشابهة.

يتكون المجتمع عند بداياته من أفراد مختلفين قليلا، لا يمتلكون عقلية إلا عقلية قبيلتهم. وسرعان ما تبدأ عناصر التطور والانتخاب عملها، ويبدأ الأفراد بالتمايز تدريجيا. وفي حين

يتطور بعضهم بسرعة كبيرة، فإن آخرين يتقدمون بخطوات متفاوتة وتظل تفصل بينهم مراحل مختلفة من الطريق ذاته.

ينتج عن ذلك أن هذا المجتمع بات يضمّ في مرحلة ما من تطوره ممثلين عن كل الأطوار التي قطعها تباعا. ولن تكون ذهنية كل منهم لأنها لم تتجاوز ذهنية العصر الذي يشكلون مكوناته، قادرة على التكيف مع مرحلة أخرى.

إن الحضارة على الرغم من إصلاحها الناس لم تقم إذن بتغييرهم بصورة متساوية. وعوضا عن السير نحو المساواة كما تحاول أوهامنا الديموقراطية الحالية أن تقنعنا، فإنهم يتجهون بالعكس نحو تفاوت متزايد. فالمساواة التي كانت قانون العصور الأولى لا يسعها أن تكون قانون الحاضر وأقل من ذلك في المستقبل.

إذن، قامت الحضارة بفعل تصاعدها التدريجي وحده فقط بعمل الساحر عندما بعثت في الوقت نفسه وفوق الأرض ذاتها أناس الكهوف، والسادة الإقطاعيين، و فناني عصر النهضة، والعمال، والعلماء العصريين. ما الذي يمكن أن يكون مشتركا بين مكونات شعب مؤلف من خليط شديد التنافر؟ إنهم سيصلون بسرعة دون ريب إلى التحدث ظاهريا اللغة نفسها، لكن الكلمات تثير داخلهم أفكار وعواطف، وبالتالي آراء مختلفة تماما. وتتمثل المهمة الشائكة للحكومات العصرية في جعل كل هؤلاء، الذين ورثوا الذهنيات المختلفة جدا وبالتالي غير القادرة على التكيف بقدر متساو مع بيئتها، يعيشون معا دون الكثير من الاختلاف. وسيكون من غير المفيد التفكير في المعادلة ما بينهم. فهذا غير ممكن لا عبر المؤسسات ولا عبر القوانين ولا حتى عبر التربية.

إحدى أخطاء عصرنا الكبرى تتمثل في اعتقاد أن التربية تساوي بين البشر. إنها تستخدمهم لكنها لا تساوي بينهم مطلقا. فكم من السياسيين أو من الجامعيين، المثقلين بالشهادات، يتمتعون بذهنية الهمج ولا يستطيعون إذن أن يقتدوا في الحياة إلا بروح الهمجي.

على هذه الذهنيات، المختلفة جدا، سيؤثر بصورة متفاوتة جدا مقوّمو الآراء الذين سنتفحص الآن قيمتهم.

2 ـ عناصر تصويب الآراء

ليس للآراء عموما رسوخ المعتقدات. بل حتى إنها متحركة جداً غالبا لدرجة أن تقويمها قد يبدو سهلا. والحال فإن العكس هو ما نلاحظه. إن منهجي تقويم الآراء اللذين يخطران لنا بداية وقبل كل شيء هما العقل والتجربة.

وكما نعرف، فإن دور العقل في التأثير على الإيمان المبني بثبات معدوم تماما. وسوف نرى الآن إذا كان هذا العقل يمارس تأثيره أحيانا على الآراء العادية، فتأثيره فيما عدا الأمور العلمية، ضعيف جدا بالطبع.. وسوف نرى أيضا أن الاعتراف الضمني بعدم كفاية العقل لتصويب أحكامنا قد أنتج النظامين السياسيين اللذين ترجع إليهما كل حكومات الشعوب، منذ فجر التاريخ.

لكن إذا كان العقل غير كاف لتقويم آرائنا، فما الذي يبقى عندئذ من أجل إجلاء الحقيقة وسط حشد من الأسئلة الأخلاقية، والسياسية والاجتماعية؟ سوف أبين في الفصل القادم أننا لا نملك إلا

وسيلة وحيدة فعالة: هي التجربة. لنتفحص بداية الدور المنسوب إلى العقل.

3 ـ دور العقل في تكوين الآراء واتخاذ القرارات الهامة

يلعب العقل في جميع الآراء العلمية والتقنية دورا أساسيا. ويتركز خطأ غالبية علماء النفس والفلاسفة في اعتقادهم أنه يلعب الدور ذاته في ميدان الآراء العادية.

وقد إدّعى منظرو الأحزاب المختلفة دائما أنهم يؤسسون آراءهم على العقل. وقد أشاد له أنصار الجمعية التأسيسية التماثيل وباسمه يدّعي متحذلقو اللغة المعاصرون وضع القواعد.

وتبين الملاحظة لسوء الحظ – وهذا ما ينبغي أن نكرره دائما – أن العقل لا يمارس في حياة الشعوب كما في السلوك اليومي للأفراد إلا تأثيرا محدودا جدا. وقد أشار تين **Taine** بقوله " لو كنا بحاجة للإيمان بأن التماسيح آلهة لأقام لها الناس منذ الغد معبدا في ساحة الكاروسيل". ليس فقط سيقيمون المعبد بل في اليوم ذاته ستنبري كوكبة من المدرسين والمحامين الأذكياء لتبرير قيام هذا المعبد من خلال براهين عقلية. فكم وُضِع العقل بخنوع في خدمة دوافعنا العاطفية والدينية الأضعف حجة.

وفي الواقع، فإن الآراء اليومية تُبنى ليس بطريقة منافية للعقل دائما، وإنما مستقلة عن كل عقل. ونظرا لأننا نثق بالدوافع الدينية والعاطفية التي تنتجها، فإن صوابها يبدو لنا مؤكدا و لا نتسامح

أبدا مع من يعارضها. ومن الواضح مع ذلك أنه لو كان عقل واحد هو الدافع الحقيقي لآرائنا فإنه لما كان هناك إلا رأي واحد حول كل موضوع.

في القضايا العلمية حيث تكون كل معطياتها معروفة، هكذا يجري الأمر دائما. يستحيل الاختلاف حول صيغة رمز ما، أو حول قانون الجاذبية، أو حول مسار كوكب ما. وإنما تظهر الاختلافات فقط في النظريات، لأنها مجرد تفسيرات ولأن المنطق العقلي يقبل التأثر أحيانا ببعض العناصر العاطفية أو الدينية.

ما أن يبتعد المرء عن العلوم النظرية، أي أن ينتقل من ميدان المعرفة إلى ميدان الاعتقاد، فإن تضارب الآراء حول كل المواضيع يغدو بالعكس من ذلك قانونا ثابتا. وهذا التضارب يظهر حتى حول المواضيع التي يبدو العقل وحده، كما قد يبدو لنا، هو من كان يجب أن ينطق كما في القرارات القانونية على سبيل المثال.

سوف نستخدم هذه الحالات الأنموذجية لكي نبرهن كم يصعب على المنطق العقلي الإفلات من التأثيرات العاطفية والدينية. لنضع بداية تصنيفا ما للأشخاص المدعوين للحكم على آخرين.

في أدنى درجة نجد الأشخاص الذين يتشكل رأيهم تحت تأثير المنطق العاطفي فقط، الدرجات الأعلى ستكون مكونة من أشخاص لا يتأثرون إلا بحجج المنطق العقلي حصرا.

ينتمي محلفو محاكم الجنايات إلى المرتبة الأولى من الفئات السابقة وبسبب عددهم الكبير يشكلون جمهورا وبالتالي يمتلكون طباعه لذا فالحجج العقلية تمارس دورا ضعيفا عليهم. ويجري توجيه قناعاتهم من خلال إثارة عواطفهم. فالمرأة المتهمة

بارتكاب جريمة مروعة، لكنها محاطة بأطفال باكين يريدون أمهم، ستحظى بالتسامح. والمرأة الجميلة، التي قتلت عشيقها بفعل غيرة شديدة، ستحظى بتسامح أكثر أيضاً. المحلفون الإنكليز كانوا سيعملون على شنقها، أما المحلفون الفرنسيون فإنهم يعفون عنها في الحال تقريبا. إنها إحدى الحالات التي يظهر فيها بوضوح تأثير العرق في نشأة الآراء.

أعلى بقليل من هذه الفئة المحكومة بالعاطفية الصرفة نجد قضاة محاكم البداية، فهم لا يزالون شبابا بما يكفي للحجج ذات الطابع العاطفي أن تثير شفقتهم. وستؤثر فيهم هيبة المحامي المشهور في الحال. غير أنه يمكن التأثير فيهم بالأدلة العقلية، لكن فقط إذا كانت هذه الأدلة لا تتعارض مع بعض المصالح الشخصية. كما تمارس أحيانا الرغبة في الترقي الوظيفي، والضغوط السياسية تأثيرا مرجحا على آرائهم. وهم يصدرون أحكاما على درجة كبيرة من التردد لأن قضاة محكمة الاستئناف يبطلون ثلثها تقريبا. إنهم يخطئون في قضية من كل ثلاث قضايا تقريبا.

قضاة محكمة الاستئناف يشكلون درجة أعلى في التصنيف السابق، وكونهم أكبر سنا وأكثر علما فهم أقل خضوعا للمنطق العاطفي مما يخضعون للمنطق العقلي.

أخيرا، في القمة، يظهر قضاة محكمة التمييز. فهم وقد باتوا عجائز، وشبه فانين، ولم يعد لديهم ما يأملون به، ومجردين من كل عاطفية، وغير مكترثين بالمصلحة الشخصية أو بالشفقة فهم لا يأبهون بالحالات الفردية ويظلون متشبثين بالحق المطلق. فإن أي

محام لن يحاول أن يعرض أية حجج عاطفية أمامهم، والدليل العقلي وحده هو ما يؤثر فيهم. وحرفية القانون هي ما يحكم عملهم تماما. فالقانون أصبح بالنسبة لهم نوعا من حقيقة دينية، معزولة عن البشر. ولا يخلو هذا الغلو في العقلانية من الخطر، لأن القانون الذي يكون عادلا لحظة تشريعه سرعان ما يكفّ عن أن يكون كذلك نتيجة للتطور الاجتماعي الذي يتجاوزه بسرعة. عندئذ ينبغي تعلم تفسيره بهدف ضمان صحة تحوله، كما يفعل بعض القضاة الذين تصبح قراراتهم مرجعا قضائيا، قابلة للأعراف الجديدة ومصدرا لقوانين جديدة. وهكذا تحولت المبارزة من حالة جرمية إلى حالة الجنحة غير الملاحقة؛ الخيانة الزوجية التي كانت تجرّ سابقا سنوات من السجن لمرتكبيها ويحكم فيها القانون بوصفها جريمة خطيرة لدرجة أن الزوج يبرئ لقتله زوجته، صارت تُعتبر جنحة من الجنح الثانوية وحتى أن مشروع قانون جديد يقترح بعدم الحكم عليها إلا بغرامة مالية زهيدة.

لقد بينّا أنه حتى لدى أشخاص متنورين، وغير منحازين عموما وبعيدين عن الأهواء الشخصية، كانت الآراء حول مواضيع محددة تماما خاطئة أغلب الأحيان. لقد تبين أن العقل لم ينورهم بصورة كافية إذن.

ولو أننا تأملنا عوضا عن هؤلاء الأشخاص المختارين، اجتماعات كالاجتماعات البرلمانية، التي تتحكم أكثر في أفرادها المصالح الفردية والنظريات المسبقة والأهواء السياسية لكنا سنشهد أن دور العقل في قراراتهم معدوم تقريبا. والحجج العقلية التي تُطرح أحيانا، لا يسمعون بها حتى، وعمليات التصويت تقودها فقط المصالح الحزبية أو مصالح المُنتخِبين الذين تبغي مسايرتهم.

ومما لاشك فيه أنه يجري استحضار العقل في الاجتماعات البرلمانية لكنه في الواقع أضعف العناصر القادرة على التأثير فيها. القادة النادرون الذي ينجحون أحيانا في تعديل التصويت في اجتماع سياسي ما يعرفون جيدا أنهم لن ينجحوا في ذلك باستخدام العقل وإنما فقط عبر تحريك المشاعر العنيفة. بعض العبارات الغامضة الملقاة بذكاء تكون ذات مفعول أكيد.

4 ـ دور العقل في تشكيل الآراء اليومية

رأينا قبل قليل دور العقل الضعيف في اتخاذ القرارات الهامة من قبل مختلف فئات الأشخاص المختارة. وأما دوره في اتخاذ الآراء اليومية فهو أقل فاعلية أيضاً. فنحن نشهد باستمرار في الواقع آراء متضاربة حول مواضيع يفترض أن العقل يجب أن يوصلها إلى نتائج متطابقة.

وهذا التضارب يتضح تماما عندما نعرف دور العوامل الدينية والعاطفية في تشكيل آرائنا. إن تضارب الآراء لا ينتج، كما نفترض أحيانا، عن التفاوت العلمي بين هؤلاء الذين يبدونها. بل نشهده في الواقع عند أشخاص متقاربي الذكاء والعلم. وسوف نقتنع بذلك إذا ما استعرضنا الإجابات المقدمة في الاستطلاعات الكبيرة العامة الهادفة لإيضاح بعض المسائل المحددة تماما.

من بين أمثلة لا تُحصى تقدمها قراءة التقارير المقدمة منهم، سأذكر فقط مثالا أنموذجيا، نشرته مجلة السنة البسيكولوجية

للسيد بينيه **Binet**. فقد أراد الاستفسار عن النتائج المترتبة على تقليص البرنامج الخاص بتاريخ الفلسفة في المدارس الثانوية، فأرسل استمارة إلى كل مدرس مكلف بتدريس هذه المادة. كانت الإجابات متناقضة بصورة واضحة، فبعضهم اعتبر كارثياً ما اعتبره غيرهم ممتازا. " كيف يحدث، يستنتج بينيه بمرارة، أن الإصلاح الذي يكدرٍ مدرسا يبدو أمرا رائعا لأحد زملائه؟ أي درس لهم عن نسبية الآراء الإنسانية، وحتى لدى الأشخاص المختصين ! "

لقد كانت تناقضات عديدة من النمط نفسه تظهر بصورة ثابتة حول كل المواضيع في كل العصور. ولكي ينتقل الإنسان إلى الفعل توجب عليه مع ذلك أن يختار ما بين هذه الآراء المتناقضة. فكيف يجري مثل هذا الاختيار، باعتبار أن العقل عاجز عن تقرير ذلك؟

ثمة طريقتان فقط تمّ اكتشافهما حتى الآن: قبول رأي الأغلبية أو رأي شخص واحد جرى تنصيبه قائدا. وعن هاتين الطريقتين في الاختيار تنشأ جميع النظم السياسية.

من المؤكد أن أصوات الأغلبية أو حتى الأغلبية العظمى التي يحوزها رأي ما لا تجعل منه أرقى من الرأي المناقض. ورأي شخص واحد، قد يكون مفروضا بالقوة، لا يعني أنه الأفضل دائما. إن اختيار هذه الطريقة أو تلك يظل مع ذلك ضروريا للخلاص من التردد المعرقل لإرادة العمل. وحتى الفلاسفة أنفسهم لم يستطيعوا اكتشاف طرائق أخرى.

آراء العالم الضليع تكون عموما أرقى بكثير من آراء جماعة ما لكن إذا لم يكن هذا العالم ضليعا فإن قراراته يمكن أن

تكون خطيرة جدا. إن تاريخ ألمانيا وفرنسا منذ خمسين سنة يقدم أدلة عديدة عن فضائل ومساوئ هاتين الطريقتين: الاستبداد الفردي والاستبداد الجماعي.

الفصل الرابع

تصويب الآراء عبر التجربة

1 ـ التجربة في حياة الشعوب

رأينا كيف أن المنطق العقلي لا يقدم حول غالبية المواضيع، وباستثناء المسائل العلمية، إلا إشارات مترددة، لذلك وجب التخلي عن أخذ رأي الأكثرية أو رأي فرد واحد اتُخذ قائدا، دليلا لنا. إن قبول رأي ما لا يكفي لكي يتحول إلى حقيقة. فكيف ننجح في اكتشاف قيمته الحقيقية؟

لا يمكن استكشافه إلا بوضعه قيد التجربة، وهي طريقة بطيئة ومكلفة كما لا يمكن من جهة أخرى تطبيقها على كل المواضيع. وفيما يتعلق بالمعتقدات الراسخة بقوة على وجه الخصوص سيكون عجزها كبيرا بقدر عجز العقل.

فيما يتعلق بالآراء الجماعية، بعض الآراء السياسية مثلا، يمكن لها أن تعمل لكن بشرط أن تكون مؤثرة جدا ومتكررة جدا. وتبرهن حياة الشعوب على ضرورة هذا التكرار المؤثر، فأكوام الدمار وأنهار الدم كانت أحيانا ضرورية لكي تستوعب روح عرق ما بعض الحقائق التجريبية.

وغالبا ما لا تستفيد منها لزمن طويل، لأنه بسبب قصر أمد الذاكرة العاطفية فإن المكتسبات التجريبية لجيل قلما تفيد جيلا آخرا.

فمنذ بدايات العالم تعرف كل الشعوب أن الفوضى تنتهي دائما إلى الديكتاتورية، ومع ذلك فإن هذا الدرس الخالد لا يعلمها شيئاً. وتبرهن وقائع متكررة على أن الاضطهاد هو أفضل وسيلة لتشجيع انتشار عقيدة دينية ومع ذلك فإن هذا الاضطهاد يستمر دون توقف. وتعلّمّ التجربة أيضا أن الاستسلام الدائم للتهديدات الشعبية يعني الحكم بجعل كل إدارة مستحيلة ومع ذلك نرى السياسيين ينسون كل يوم هذه البديهة. وقد بينت التجربة أيضا أنه من أجل أسباب نفسية حقيقية، فإن كل منتج تصنعه الدولة يتجاوز سعره أسعار الصناعة الخاصة ومع ذلك فإن الاشتراكيين يجبرون الدولة على احتكار بعض الصناعات الجديدة باستمرار.

قلت سابقاً إن التجارب لا تؤثر بسرعة، إلا إذا كانت مؤثرة جدا. وإليكم مثالا قريبا وهاما. علماء النفس والاقتصاديون والتجار، جميعهم، كانوا قد تنبؤوا بأن استرجاع خط سكة حديد ouest وإدارته من قبل الدولة سوف يعتبر عملية مكلفة جدا. لو كانت مكلفة فقط لكاد الشعب أن لا يلحظها، لكن الإدارة الحكومية لهذا الخط خلفت في بضعة أشهر كل ذلك الكم من الكوارث المرعبة وحوادث الموت الرهيبة، بحيث أن درس التجربة سرعان ما تمّ استيعابه بحيث لن يجرؤ أي شخص اليوم على المطالبة باسترجاع خطوط جديدة.

2 ـ صعوبة فهم العوامل المولّدة للتجربة

لكن إذا كانت بعض التجارب الواضحة جدا كما التجربة السابقة يمكنها أن تحول الرأي، فلا ينتج عن ذلك أن العوامل المولّدة لهذه التجارب يمكن فهمها بسهولة. ففيما يتعلق بالحوادث التي ذكرتها على سبيل المثال، لم يدرك وزير الأشغال العامة بتاتا الأسباب الخفية لفوضى يستحيل إنكارها، واضطُرّ للاعتراف بأن الكوارث العديدة الناجمة عن تصادم القطارات نتجت بصورة خاصة عن عدم انضباط الموظفين الذين لم يعودوا يحترمون الأنظمة، وظنَّ أنه يمكن معالجة الأمر عبر عزل مدير الشبكة. ولم يكن بيد خليفته حيلة لتقليص عدد الحوادث سوى تقليص عدد القطارات وسرعتها تقليصا كبيرا، وهي بالتأكيد وسيلة غير مشرفة لكنها مضمونة النتائج.

ما الذي كان يستطيع فعله في الأصل ضد أثار نتجت عن أسباب غريبة عن عمله؟ فهو لا يستطيع منح الإدارة الحكومية أهلية صناعية هي لا تملكها أساسا، ولا أن يخلق لدى المستخدمين الذين يحرضهم قادة طموحون، الانضباط، والحمية، واحترام الأنظمة الضرورية لمهنتهم. وقد كتبت صحيفة الزمن **le Temps**:

> ***كيف يمكن امتلاك طاقم من الموظفين الممتازين في شبكة خطوط لم يصوّت سياسيو الدائرة لصالح استعادتها إلا ليوظفوا فيها محاسيبهم ويجعلوا منهم أنصارا لهم؟ وكيف يمكن الحصول على خضوع هؤلاء العمال التام الذين تُغفر جميع قبائحهم في الحال مجموعة من النواب الديماغوجيين؟***

وإلى أن يتحقق ذلك، تابعت الصحيفة ذاتها، فإن الدولة التي تتخبط على نحو يرثى له في إدارة شبكة خطوطها الخاصة ستفعل عين العقل لو تركت الشركات تستثمر شبكاتها الخاصة بحرية كاملة ولا تفرض عليها ممارسات ضارة رأت نتائجها الكارثية في شبكتها.

أمل باطل، فالدولة، أي السياسيون الذين يهيمنون عليها، لا تكفّ عن اضطهاد الشركات، وإرهاقها بالتهم وبتشجيع الفوضى وبمطالب عمالها.

لكن حتمية المقادير التي تتحكم بالخطاب قدمت درسا عمليا جديدا سينتهي الأمر باستيعابه حتما.

منذ بضع سنوات، توقعت في مقالة نشرت في إحدى المجلات بأن نتيجة التدخلات التسلطية الحكومية ستؤدي بسرعة إلى هبوط قيم أسهم الشركات، أي العنصر الأكثر استقرارا في الثروة العامة لأنه موزع بين أكبر عدد من الأيدي. هذه النبوءة تحققت بسرعة. فقد واجهت غالبية الأسهم انخفاضا ضخما في قيمها وصل بالنسبة لشركة " ليون " حوالي 17 بالمئة. فأسهم هذه الشركة التي بلغت في شباط من عام 1909 حدّ 1، 385 فرنكا في البورصة، هبطت إلى 1، 150 فرنكا في شباط من عام 1911. وسينبغي أن يكون الهبوط إلى درجة أدنى أيضا وعلى الأخص أن تتجلى بوضوح انعكاساته لكي يمكن لهذا الدرس العملي أن يكون مفيدا.

إن الأسباب ذاتها تعطي عموما النتائج ذاتها، لذا يجب ألا ندهش عندما نرى في أسطولنا الحربي فوضى مشابهة للفوضى التي شهدناها سابقا في شبكة الخطوط الحديدية. فقد قدم تقرير موازنة الأسطول الحربي الدليل القاطع:

"ما بين عامي 1891 و 1906 أنفقت ألمانيا على أسطولها الحربي 2، 508 مليون بينما أنفقت فرنسا للغرض نفسه مبلغ 3، 809 مليون، ومع ذلك وعلى الرغم من هذا الفرق البالغ 1، 300 مليون فقد تمكنت ألمانيا من إنشاء أسطول أقوى بشكل ملموس من أسطول فرنسا. وهذه الأرقام تشكل إدانة لإدارتنا.

لكن الرأي العام ظل لا مباليا. كان يلزم أكثر من الكلمات من اجل تحريكه وبطريقة غير مباشرة لدفع البرلمان للتصرف: حوادث، كوارث، ودماء! بعد غرق سيللي و شانزي ولانيف وفيينا هاهي فارفاديه وليتان تغرقان. فوق ظهر الكورون تنفجر المدافع ويموت سدنتها، في طولون واحدة من أجمل قطعاتنا "لايينا" تلتهب مثل بركان. وبعد هذه النكسة الأخيرة والرهيبة لم يعد يصلح اتهام الحظ وحده، فتوجب المباشرة بالتحقيق.

عرف الرأي العام مذهولا ومنفعلا أنه على الرغم من مئات ملايين الفرنكات التي خصصت له، فن الأسطول الحربي يفتقد ليس فقط لسفن حربية قوية بل أيضا للمدافع، والذخائر والتجهيزات وأحواض

الترميم. وعرف أنه بعد معركة واحدة وحتى لو كانت قصيرة جدا، فإن أي مكان وأي ميناء لن يسعه تزويد أية عمارة لا بالفحم ولا بالقذائف.

ليست النقود هي التي كانت تنقصنا، فقد كنا نملك منها أكثر مما يلزم من أجل مضاهاة ألمانيا ل هذه الإثباتات، ختم المراقب، مرهقة [1].

مرهقة بالفعل. لسوء الحظ، ليس ثمة فرصة للأمل بأنه يمكن أن تزول الأسباب المتعددة التي خلّفت نتائج مثل: عدم انضباط متزايد (فالعمال في ورش السفن الحربية واقعون تحت تأثير تحريضات يومية، فوضى كاملة في الخدمات، ناتجة عن التدخلات السياسية والمنافسات بين الموظفين الذين يتحاسدون، تأثيرات اشتراكية تجبر الدولة على الالتزام ببناء السفن بينما تعهد به ألمانيا إلى الصناعات الخاصة الخ...

في الحالات السابقة، تجلت نتائج التجارب بسرعة، لكن يحدث أحيانا أن لا تتجلى إلا ببطء.

فالتدمير شبه الفوري للأسطول الروسي من قبل البوارج اليابانية الكبيرة وعجز سفن الطوربيد كانا ضروريين لكي نفهم الخطأ الفادح المرتكب منذ عدة سنوات المتمثل بالتخلي عن بناء البوارج واستبدالها بأسطول من الطرادات الصغيرة وقاذفات

---

[1] مقتطف من تقرير نشرته الصحيفة في 25 شباط عام 1911.

الطوربيد التي نقرّ الآن بعدم فائدتها. وهكذا بُددت مئات الملايين. ظلت بلادنا دون دفاع، إلى يوم أن تمت البرهنة عمليا على وجود الخطأ فتوجب اتخاذ القرار بالبدء ببناء أسطول جديد.

إذا كانت التجربة ضرورية غالبا من أجل التأكد من أهمية الآراء، فذلك لأن معظم هذه الآراء تتشكل دون الأخذ بعين الاعتبار إلا العناصر السطحية من الأمور. ففي الحالة المذكورة آنفا، أمكن عبر محاكمات ذكية مبنية على بعض الأمور الظاهرية البرهنة بأن قاذفات الطوربيد الاقتصادية يمكنها بسهولة تدمير البوارج الضخمة الباهظة الكلفة، فالتخلي عن هذه البوارج كان يبدو عملا عقلانيا إذن.

إن النتائج البعيدة للإجراءات ذات المظهر العقلاني ليست مرئية إلا للعقول الحادة وغالبا لا تكون هي من يحكم. وقد بينت في كتابي علم نفس السياسة كم كانت ضارة في نهاية المطاف قوانين عديدة بدت صادرة عن عقول ممتازة. وقد بينت التجربة أن غالبية هذه القوانين الجائرة كانت تعمل عموما بطريقة معادية تماما لمصالح أولئك الذين كانت تريد حمايتهم.

وكنموذج لتلك النتائج المتحققة بتلك الطريقة، تمَّ تقديم واحدة من أشدها غرابة مؤخرا من قبل مدينة ديجون. فقد قادت مصادفات فقد البصيرة إلى انتخاب بلدية اشتراكية، وقد ارتأى هؤلاء الأشاوس تحبيذ العمال باستبدال المكوس بضرائب باهظة تُفرض فقط على مالكي الثروة المفترضين. وقد ظهرت الانعكاسات الحتمية لهذا القرار في زمن قصير جدا، وبدل أن تنخفض تكاليف معيشة العمال ارتفعت بشكل هائل. فأدرك

الاشتراكيون بالتجربة لكن على حساب مواطنيهم أن القوانين الاقتصادية المُزدراة حينما لا يفهمها المرء تجعل من المستحيل أبدا فرض ضريبة ما على طبقة واحدة من المواطنين لأنها عن طريق رد الفعل سوف تتوزع سريعا على الطبقات الأخرى جميعها وليس على من فُرض عليه بالتصويت دفعها.

وما دامت عِبَر التجربة في أغلب الأحيان شديدة الوضوح، فلماذا لا يستوعبها الكثير من رجال السياسة الذين لا ينقصهم الذكاء دائما؟

لقد ذكرت سابقا أن التجربة، لا تأثير لها تقريبا على الاعتقاد. والحال، ولأن المفاهيم السياسية للأحزاب النافذة ليست آراء وإنما هي معتقدات، فإنها تستند إلى عناصر دينية وعاطفية كنا قد أشرنا إلى قوتها التي لا تُقهر.

والعقل الذي ما انفك السياسيون يتذرعون به لا يمارس عليهم من التأثير أكثر مما يمارسه على المؤمنين بأي دين. إذ ثمة يقين ديني وعاطفي يفرض عليهم سلوكهم. إنهم سادة خطبهم لكنهم ليسوا سادة الإيحاءات الخفية التي تُملي تلك الخطب.

لن يسع المرء، بعد أن عرفنا النشوء السري للآراء التي ليس فيها من العقلاني إلا المظهر، أن يسخط على عدم تفهم صانعيها. فبعض الحقائق الصارخة بالنسبة للعقول التي يقودها المنطق العقلي المنفلت من كل عنصر غريب، ستظل غير مفهومة دائما من قبل الأشخاص الذين لا يقودهم إلا إيمانهم الساذج، لأنهم لا يعرفون العقل و لا الملاحظة و لا التجربة.

الكتاب السادس

الآراء والمعتقدات الجمعية

الفصل الأول

الآراء المكَونة تحت تأثيرات جمعية.

(العرق، البيئة، العرف، المجموعات الاجتماعية، الخ...)

1 ـ تأثير العرق في المعتقدات

للمؤثرات الجمعية النصيب الأوفر في نشوء عدد كبير من الآراء وهي تشكل نواظمها الحقيقية. فالغالبية العظمى من الناس لا تمتلك إلا بعض الآراء الجمعية. وحتى أكثرهم استقلالية يجهرون عموما بآراء المجموعات الاجتماعية التي ينتمون إليها. لقد قلنا ذلك سابقا، وسوف نبينه بوضوح أكبر عبر تفحص متلاحق لدور المؤثرات الجمعية في تكون آرائنا ومعتقداتنا: العرق، البيئة أو الوسط، المجموعة الاجتماعية، الخ...

لندرس بداية تأثير العرق.

برهنت ملاحظات قديمة متكررة أن الشعوب صاحبة الماضي الطويل تقدم وحدة كبيرة في الآراء والمعتقدات حول بعض المواضيع الأساسية. وهي تنتج عن تشكل الروح القومية. ولأن هذه الروح تتغير من شعب لآخر فإن الأحداث ذاتها ستثير لدى كل شعب ردود فعل مختلفة.

لم يعد يوجد اليوم أعراق صافية بالمعنى الانثروبولوجي لهذه الكلمة، لكن عندما تكون شعوب ذات أصل مشترك أو من أصول مختلفة لكنها ليست بعيدة جدا عن بعضها قد خضعت طوال عدة قرون للمعتقدات ذاتها، وللمؤسسات ذاتها وللقوانين ذاتها وتتحدث اللغة ذاتها فإنها تشكل ما كنت دعوته في مكان آخر عرقا تاريخيا. وهذا العرق يمتلك عندئذ في الأخلاق وفي السياسة وحول كم كبير من المواضيع، مجموعة من الأفكار والعواطف المشتركة، وتكون راسخة في الروح لدرجة أن الجميع يقبلونها دون مناقشة.

روح أي شعب ليست إذن مفهوما ميتافيزيقيا، بل هي واقع حي جدا. وهي مكونة من تتابع وراثي، من تقاليد و من أفكار وطرق تفكير وحتى من أحكام مسبقة. وتخضع قوة أي شعب لتماسكها. الأشخاص المجتمعون كيفما اتفق بفعل خطر خارجي عنيف يشكلون تركيبة مؤقتة، غير متماسكة وسهلة التفكك، لأنها لا تمتلك بعد روحا قومية. طالما لم تكتسب هذه الروح، ستظل مجموعة من الهمج. تدمير مؤثرات الماضي في روح الشعب كانت نتيجته الثابتة دوما إعادته إلى الهمجية.

التعارض في الآراء لدى شعب يمتلك روحا قومية قوية جدا سيدور حول مواضيع هامشية فقط. أما في مواجهة مصلحة كبرى معرضة للخطر فإن التوافق سيكون مطلقا. وقد قدم الانجليز مثالا ساطعا في حرب الترانسفال. فقد كانت الهزائم المذلّة والمتكررة للقطعات العسكرية البريطانية على يد فلاحي البيورز البسطاء

ستقدم لصحف المعارضة فرصة ممتازة لمهاجمة الحكومة. لكن أيا من تلك الصحف لم تفكر في ذلك مطلقا. لأن الروح القومية ما كانت لتسمح بذلك.

هذه الروح الجمعية للعرق لا تبرز أصلا إلا إذا تعلّق الأمر بمصالح عامة شديدة الأهمية. لكنها لا تقيد نهائيا وجود أرواح فردية شديدة الحيوية، وكما في التاريخ الطبيعي، لا تمنع الطباع المتباينة لكل نوع من امتلاكه أيضا طباع الصنف الذي ينتمي إليه.

وسوف نرى أن العناصر المكونة للأعراق البدائية التي لا تختلف كثيرا لم تكن تمتلك إلا روحا جمعية. فقط عند الأعراق المتطورة جدا تتوضع الطباع الفردية فوق الطباع الجمعية.

لقد لاحظنا سابقا أن تشكل روح عامة كان ممكنا فقط عند شعوب متقاربة الأصل. فإذا كانت متباعدة جدا فإن أي اندماج لن يمكنه الحدوث. ولأنهم لا يمتلكون الروح ذاتها، فإن كل فرد يتأثر بصورة مختلفة عن الآخر بالأشياء الخارجية، و بالتالي لن يعود ممكنا وجود آراء عامة مشتركة حول أي موضوع. فالتشيك والهنغاريون في النمسا والايرلنديون في إنجلترا الخ... يبرزون دقة هذا القانون. إدعاء فرض قوانيننا على السكان المحليين في المستعمرات يبرهن أنه ذو تأثير. ضعيف.

تزاوج الأعراق المختلفة جدا يغير المؤثرات الوراثية، لكنه ينتزع من الأفراد في الوقت ذاته كل استقرار نفسي. فشعب من الخلاسيين لا يمكن حكمه. والفوضى التي تعيشها الجمهوريات اللاتينية من أمريكا دليل على ذلك.

يستقر الموروث العقلي الماضي بقدر ما يشيخ مجتمع ما. فما كان يشكل قوة له ينتهي ليصبح مع الزمن مصدر ضعفه. و يصبح تكيفه مع التقدم الجديد أكثر فأكثر صعوبة ويغدو فكره وآراؤه أقل فأقل حرية. وثمة صراع يومي بين الوعي الذي يقوده العقل والنوازع الوراثية التي تفلت من سيطرته. الثورات العنيفة التي تحاول الشعوب عبرها الإفلات أحيانا من النير القاهر لماض ثقيل جدا تكون ذات مفعول قصير الأمد. يمكنها تدمير الأشياء لكنها نادرا ما تغير النفوس. وهكذا فإن آراء ومعتقدات فرنسا القديمة لا تزال تضغط بثقل لا يقاوم على فرنسا الجديدة. الواجهات وحدها تغيرت.

2 ـ تأثير الوسط الاجتماعي والمجموعات البشرية

يمارس الوسط الاجتماعي تأثيرا مركزا على آرائنا وعلى سلوكنا. فهو ينتج دون علمنا استنتاجات لاواعية تتحكم بنا باستمرار. فالكتب، والصحف، والحوارات، والأحداث في عصر ما تخلق بيئة تعيّن اتجاهنا على الرغم من كونها غير مرئية. فهي تضمّ بذور المفاهيم الفنية والأدبية والعلمية والفلسفية التي تحولها العبقرية أحيانا إلى تآليف ساطعة.

الآراء التي ينتجها الوسط الاجتماعي تكون قوية جدا لدرجة أن الفرد المجبر على ترك هذا الوسط يُضطر أيضا لتغيير آراءه. فالاشتراكي الثوري يصبح بسهولة محافظا متزمتا منذ وصوله إلى السلطة. ونعرف السهولة التي حوّل نابليون فيها إلى دوقات وحجّاب

وبارونات أعضاء الجمعية المتوحشين الذين لم يعد لديهم الوقت ليتبادلوا قطع رؤوس بعضهم بعضا.

يؤثر الوسط الاجتماعي بشكل عام، لكن من يؤثر على وجه الخصوص فإنها الجماعة التي ننتمي إليها. فالآراء والمعتقدات الفردية المستخلصة من ملاحظاتنا الخاصة ومحاكماتنا تكون قليلة جدا عموما. فمعظم الناس لا يمتلكون إلا آراء ومعتقدات الجماعة: الطائفة، أو الطبقة، أو الشيعة، أو الحزب، أو المهنة التي ينتمون إليها ويتبنونها جملة.

كل طبقة من شعب ما: من عمال، أو فقهاء، أو سياسيين، يبشرون إذن بالآراء الأساسية لمجموعتهم المهنية. وتكون معيار أحكامهم. ويحكمون بصحة الأشياء أو بطلانها تبعا لتطابقها مع آراء هذه المجموعة أم لا. وكل مجموعة تشكل ما يشبه لقبيلة مغلقة تمتلك آراء عامة مقبولة جدا لدرجة أنها حتى لا تُناقش. ومن لا يتبنى أفكار مجموعته لن يسعه العيش وسطها.

التطور الحالي نحو الاشتراكية والنقابية يضخم هذه الجماعات كلها وخاصة تلك التي تدير الدولة بواسطتها احتكاراتها، فهي تتنافس بوحشية ولاشيء يجمع فيما بينها سوى سلسلة من العدائية والازدراء. ولأنه لا تجمع بينهم أية روح تضامنية فإنه ينتج عن ذلك تفكك تدريجي يتزايد كل يوم للمصالح التي تديرها الدولة وهذا واحد من الأسباب العميقة، على الرغم من كونه الأقل تنويها به، لتدهور الاحتكارات الحكومية وبخاصة سلاحنا البحري. وقد قدمت الأدلة على ذلك في كتاب سابق وبينت أن مجرد استلام الدولة لاحتكار ما يمثّل كارثة للأموال العامة.

قلما يظهر للجمهور التنافر في الآراء بين مجموعات الموظفين الذين هم، بفضل الغفلية، السادة الحقيقيون للبلاد. أما آراء التجمعات العمالية فهي بعكس ذلك صاخبة جدا بحيث لا يمكن أن تمر بصمت. وأحقادهم حيال الطبقات الأخرى تنحو لتصبح من العوامل القوية في تطور السياسة الحالية. ونظرا لتصورهم، بناء على تأكيد قادتهم بأنهم المنتجون الوحيدون للثروة، فإنه لا يخطر في بالهم مطلقا دور رأس المال والعقل. ولأنهم يعتبرون أنفسهم مواطني العمال الأجانب أكثر من كونهم مواطني البرجوازيين الفرنسيين فقد أصبحوا أمميين ومعادين للروح العسكرية. وطنهم الحقيقي رفاق مهنتهم من أي شعب كانوا.

3 ـ تأثير العرف

العرف، شكل من العادة، يمثّل قوة المجتمعات والأفراد. فهو يغنيهم عن واجب التفكير بضرورة تشكيل رأي خاص عند بروز كل حالة.

الوسط، والتقليد العفوي والتربية تحافظ على العرف فينا. أما القوانين فلا تقوم إلا بالمصادقة على العرف وتكون قوية فقط حينما تعمل على تثبيت عرف قائم من قبل.

دور العرف الذي سبق أن تحدثت عنه في فصل آخر من هذا الكتاب يتعلق بالعادة، تمت دراسته باستفاضة منذ زمن بعيد وخاصة من قبل مونتاني ويكفي أن نورد هنا ما كان قد كتبه هذا الفيلسوف:

إن العرف في، الحقيقة، معلّمة مدرسة عنيفة وخائنة، فهي ترسّخ داخلنا شيئًا فشيئًا وبصورة موارية أقدام سلطتها: لكن، من خلال هذه البداية اللطيفة والمتواضعة تكون قد صلّبتها ووطدتها بمساعدة الزمن، تكشف لنا تارة وجها مخيفا ومتسلطا لم تعد لنا حرية حتى أن نرفع أبصارنا ضده.....

لكننا نكتشف أكثر آثارها من خلال المشاعر الغريبة التي تحدثها في أنفسنا، حيث لا تجد الكثير من المقاومة.... قواعد الضمير التي ندعي أنها تلد من الطبيعة تلد من العرف؛ على الرغم من أن كلا منا يتمسك بتقديس داخلي بالآراء والأخلاق المُقرة والمستمدة مما حوله فإنه لا يستطيع الخضوع لها دون شعور بتأنيب الضمير ولا أن يثابر عليها دون تصفيق. عندما كان سكان كريت يريدون في الزمن القديم لعن شخص ما كانوا يرجون الآلهة أن تورطه بعرف ما.... فالتخيلات العامة التي نجدها منتشرة حولنا ومبثوثة في أنفسنا عبر ما زرعه آباؤنا فينا، يبدو أنها عامة وطبيعية: من هنا يحصل أن من يخرج عن إطار العرف نظنه خارج إطار العقل؛ ويعلم الله كم نكون مخطئين في أغلب الأحيان !... وبواسطة العرف يكون كل منا سعيدا بالمكان الذي أحلّته الطبيعة فيه؛ وهكذا فليس لدى متوحشي إيكوسيا ما يفعلونه في تورين ولا السيت في تيسالي... فالعادة تنسينا الوجه الحقيقي للأشياء...

سوف ندرس الآن المواصفات الخاصة، وقيمة وأثر الآراء الجمعية التي أشرنا إلى تكونها.

الفصل الثاني

تطور تأثير الآراء الجمعية ونتائجها

1 ـ سمات الآراء الشعبية

الأثر المتزايد أهمية للجماهير في الحياة السياسية يمنح أهمية كبيرة لدراسة الآراء الجماهيرية. ولأنها فُسِّرت من قبل جوقة من المحامين والمدرسين الذين حرّفوها وأخفوا حركيتها وعدم اتساقها وبساطتها، ظلت غير معروفة بما يكفي. اليوم، بات الشعب السيّد مُدللا بالدرجة ذاتها التي كان عليها أسوأ الطغاة. فأهواؤه الوضيعة، وشهواته الصاخبة، وطموحاته الأشدُّ غباء تثير المعجبين. وفي نظر السياسيين، خدام الدهماء، لا وجود للوقائع والحقائق ولا قيمة لها، وعلى الطبيعة أن تخضع لتقلبات العدد.

الروح الشعبية، التي درسناها في كتب أخرى، تتمثل خاصتها الرئيسة في كونها محكومة تماما بالعناصر العاطفية والدينية. وبما أن المناقشة العقلانية لن تستطيع أن تكبح داخلها الدوافع التي تخلقها هذه العناصر فإنها تخضع لها في الحال.

يكون الجانب الديني في روح الجماهير غالبا أكثر نموا من الجانب العاطفي. الأمر الذي ينتج عنه حاجة شديدة لعبادة شيء ما: إله، صنم، شخصية ما أو عقيدة. هذه الحاجة تتدفق اليوم نحو

المذهب الاشتراكي، الدين الجديد الذي ينبغي لقوته فوق الطبيعية أن تعيد خلق الناس.

كانت النزعة الدينية الشعبية معروفة أصلا في جميع العصور. وحينما لم تكن تظهر في المعتقدات الدينية كانت تسود في المفاهيم السياسية. فتاريخ الثورة يثبت ذلك في كل صفحة من صفحاته. ربما تكون النقطة الأكثر جوهرية في علم نفس الجماهير، وأكرر ذلك، تكمن في ضعف تأثير العقل عليها. فالأفكار الجديرة بالتأثير في الجموع ليست هي الأفكار العقلانية وإنما العواطف التي تتخذ شكل الأفكار.

مثل هذه الحقائق كان يجب أن تكون مألوفة منذ زمن بعيد. ومع ذلك فإن سلوك السياسيين من الأصل اللاتيني يثبت أنهم لم يفهموها بعد. وهم لن يتخلصوا من الفوضى إلا بعد أن يفهمونها تماما.

2 ـ كيف يدوم بعض الثبات في ظل حركية الآراء الشعبية

من بين صفات الآراء الشعبية، نعثر على صفتين متناقضتين هما الحركية والثبات. الحركية تبدو وكأنها قانون هذه الآراء، وهي كذلك بالفعل، لكنها تشبه أمواج المحيط المتطية المياه الساكنة، حركية السطح هذه تخفي العناصر المستقرة جدا. ويمكن لنا أن نكتشفها تحت كل التغيرات التي يقدِّم تاريخنا منذ قرن لوحة عنها.

خلف الحركية الدائبة للجمهور، وخلف غضبه وحماسته وعنفه وأحقاده المولدة للكثير من الاضطرابات، تبقى هناك غرائز

محافظة عنيدة. فالجماهير اللاتينية الأشد ثورية تظل محافظة جدا، ومتعلقة جدا بالتقاليد. لذلك فإن الأنظمة، التي تحطمت علي يديها سرعان ما أعيد ترميمها لكن تحت أسماء جديدة.

هذا المنحى المزدوج، ثوري في الأفعال، محافظ في المشاعر، يغيب عموما عن قادة الجماهير. ولذلك تراهم لا يقودونها لزمن طويل في الاتجاه نفسه. يمكن في الآراء السياسية اليومية، وخاصة في العواطف تجاه الأشخاص أرجحة الروح الشعبية بسهولة. أما على ذهنيتها الأساسية فالزمن وحده هو القادر على التأثير.

أحد الأمثلة التي تبرهن في الوقت ذاته و بأفضل صورة على عدم فهم الروح الشعبية عموما وعلى الثبات اللاطي تحت حركيتها، تقدمه تجربة حديثة للحكومة الانجليزية. فلأن البرلمان المنتخب بعد حلّه لم يعطها، في موضوع إصلاح مجلس اللوردات، أغلبية كافية، اعتقدت أنها تستطيع بفضل حملة دعائية قوية الحصول من الجماهير الانجليزية على المندوبين الذين تحتاج إليهم فجرى حلُّ المجلس من جديد. وعلى الرغم من ممارسة أشد الضغوط فإن المرشحين أنفسهم أعيد انتخابهم. قبل الحل كانت الأغلبية الحكومية تتمتع ب124 صوتا، بعد الانتخابات الجديدة ارتفع العدد إلى 126 صوتا. لقد أدى كل هذا الجهد الضخم إلى كسب لا معنى له لصوتين.

ليس ثمة حاجة لعلم النفس شديد التحذلق لتوقع هذه النتيجة. إذ كيف يتمُّ افتراض أنه بعد أن تمّ التأثير أول مرة على الرأي الشعبي باستخدام كل الوسائل التي تمتلكها الحكومة، سيمكن بعد زمن لم يتجاوز بضعة أشهر بعد ذلك الحصول على

نتائج مختلفة؟ الوزراء كانوا يفترضون ذلك دون شك مستندين إلى حركية الجماهير وتقلباتها المعروفة جدا، لكنهم كانوا ينسون ثباتها على بعض القضايا الجوهرية. والحال، إنه على هذه القضايا الأساسية كان يجب على المقترعين أن يصوتوا. وهي تتطابق مع الميول التقليدية التي لا تقهر لمختلف شرائح الشعب الانجليزي.

لا يمكن أن يتم توجيه الروح الجمعية إلا عبر الدخول إليها. وقد بينت مرات عديدة إلى أية درجة يجهل معظم رجال دولتنا آلية الدخول هذه. وقد أثبت ذلك مرة أخرى القانون الأخير حول التقاعد العمالي. ويجهلون أكثر أيضا الروح الجمعية للشعوب الأخرى كما برهنت أفكار الدمج المفروضة على مستعمراتنا.

3 ـ قوة الرأي الشعبي قبل العصر الحديث

تأثير الآراء الشعبية الذي أصبح اليوم طاغيا سبق أن مورس أيضا في مختلف العصور التاريخية. لم يكن يُلحظ دائما لأن تاريخ الأمم لم يكن على الإطلاق، خلال زمن طويل، إلا تاريخ الحكام. وكل مآثر حكمهم كانت تبدو وكأنها إبداعات إرادتهم.

وعلى الرغم من تجاهل الكتب التاريخية لها إلاّ أنَّ التأثيرات الشعبية كانت مع ذلك عظيمة الأهمية، فبعدما يتمُّ الانتهاء من تاريخ الملوك سيجري الاهتمام بتاريخ الشعوب، وسيتضح تماما أن الجماهير كانت الصانع الحقيقي للأحداث الخالدة: الحروب الصليبية، الحروب الدينية، مذبحة سانت بارتلمي، إبطال مرسوم نانت، إعادة الملكية، وإقامة حكم نابليون الخ... إن أي طاغية ما

كان ليجرؤ على القيام بمذبحة سانت بارتلمي، وعلى الرغم من سلطة لويس الرابع عشر المطلقة ما كان ليستطيع إلغاء مرسوم نانت.

ودون الخوض في التفاصيل هنا مكتفيا بإيراد مثال على آخر الأحداث التي جئت على ذكرها سأشير إلى أن لويس الرابع عشر لم يأمر بذلك إلا مدفوعا بالإرادة العامة. وقد كتب فاغيه **Faguet** بحق: " لم يكن هناك ما هو أكثر شعبية من إلغاء مرسوم نانت ؛ فقد كان إجراء يتعلق بالسيادة الوطنية، وكان إجراء يمثل قهر الأكثرية للأقلية، كان إجراء ديمقراطياً في غاية الكمال. "

معظم الأحداث التي أنجزتها الجماهير كانت عموما الأحداث التي لعبت الدور الأكثر شؤما في التاريخ.. والكوارث ذات الأصل الشعبي كانت لحسن الحظ قليلة العدد بفضل تأثير النخب الذي، وإن بات ضعيفا جدا اليوم، كان ينجح حينذاك في تحديد نزوات العدد و هيجانه.

4 ـ تطور التأثيرات الجمعية الحالية في نشوء الآراء ونتائجه

نظرا لأن الأثر المتعاظم لسلطة الجماهير بات واحدا من العوامل التي لا يمكن تجنبها في الحياة المعاصرة ينبغي معرفة كيفية مواجهته. وقد سبق لباسكال أن أعلن استسلامه قائلا: "لماذا يتم إتباع الأكثرية؟ هل لأنهم يمتلكون عقلا أكبر؟ لا، بل لأنهم يمتلكون قوة أكبر ".

ونتيجة فقط لأن القوة من نصيب العدد، أو على الأقل إلى أولئك الذين يقودون العدد، فقد اقتنع العدد، أن بوصفه كل شيء، يستطيع كلّ شيء، وتبع ذلك أن متملقي هذه القوة الجديدة صاروا يتضاعفون كل يوم في خدمتها. بات مشرِّعون ووزراء من عبيدها

السياسيون ضعفاء جدا اليوم أمام العجيج الشعبي. وأكثرهم اتزانا يتراجعون مرتجفين، ولن يترددوا مطلقا، كما رأينا، مشدوهين، في بريست، في توقيع بيانات لصالح فوضوي خائن لوطنه، مرشح للبرلمان، إذا ما أمرتهم بذلك لجان انتخابية دنيا.

هذه الدناءة كانت مع ذلك سائدة في كل العصور. ما أن يطمح شعب إلى الحرية، الأمر الذي نادرا ما يحصل له، أو يندفع نحو العبودية، وهو الميل الأكثر تكرارا، فإنه سيجد دائما مدرسين ومحامين مستعدين لإسباغ شكل فكري على نوازعه، مهما يمكن أن تكون درجة خطورتها.

آراء الجماهير تملي على المشرعين اليوم القوانين التي ينبغي أن يصوتوا لصالحها وبما أن هذه القوانين تتطابق مع نزوات عابرة وليس مع ضرورات معينة، فإن نتائجها النهائية تفكيك الحياة الصناعية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد. أما بالنسبة للحكام فإنهم يكتفون بإتباع تحركات هذا الرأي لشعورهم بالعجز عن توجيهها وهكذا يتركون الأحقاد تتراكم.

ونحن نشهد ذلك في كل يوم حاليا، وقد قدم إضراب المُسجّلين البحريين الذي كاد أن يهلك تجارة الجزائر، مثالا مؤلما

جدا لذلك. و ما أن يُعلن إضراب بحري ما، ولأن الإبحار محصور بالبحرية الفرنسية حتى تجد الجزائر نفسها في حالة حصار، تتعفن بضائعها في موانئها. وهكذا في عام 1904 انقطعت الاتصالات لمدة ثلاثة أشهر؛ وفي عام 1907 لمدة شهر، وفي عام1909 لمدة شهرين. وكان يكفي لمعالجة هذا الحصار كسر احتكار النقل كسرا مؤقتا على الأقل. ومن أجل مسايرة كتلة المسجلين البحريين الانتخابية سيفضلون خسارة الملايين في الجزائر.

تصبح الجماهير، أمام هذه السلبية الخانعة وهذا الخضوع لأوامرها، أكثر تسلطا كل يوم. وصارت بعد أن دُمِرت الكوابح التي كانت تضبط حركتها، تجبر ممثليها أحيانا على سنّ تشريعات دون مراعاة لأي إنصاف كما كان ليفعل البارونات الإقطاعيون.

ربما ينبغي الخوض في الكثير من التفاصيل لنبين كيف تفككت تدريجيا المؤثرات الكابحة التي كانت تلطف في السابق من نزوات الجماهير واندفاعاتها، وكيف استُدرجت حالتهم الثورية الدائمة. فروح العصيان هذه تنتج قبل كل شيء من فكرة أنه يكفي أن تهدد وإذا لزم الأمر أن تخرّب لكي يتمّ الخضوع لك، كما حدث في ناربون وفي شامباني.

عديدة الوقائع التي توضّح أطوار هذا التحول البطيء في الروح الشعبية وتبيّن أية تغيرات ذهنية تمكنت من تهديم مبادئ القانون العريق، التي كانت تُعتبر أزلية. سأكتفي على سبيل المثال بإيراد قصة قانون ذي مظهر إنساني وغير عدائي في بداياته، لكن نتيجته النهائية أدت إلى توقف مؤقت للحياة العامة، نتيجة لإضراب عمال الخطوط الحديدية.

منذ زمن طويل، تدفع الشركات لعمالها رواتب تقاعدية كانت غالبا أعلى من رواتب بعض موظفي الحكومة.، ففي حين كان عمال المناجم وحسب الأرقام المقدمة في البرلمان يقبضون أجرا يصل في حده الأقصى إلى 360 فرنكا، والمعلمون 1000 فرنكا والمدرسون الثانويون 1385 كان راتب رؤساء المحطات والميكانيكيين يمكن أن يبلغ 3500 فرنكا. وأضاف الخطيب الذي كان يقدم هذه الأرقام في البرلمان، أنها ليست حال عمال الشركات هي التي تستدعي التحسين.

لاشيء أشدُّ وضوحا. ولكن بما أن عمال السكك الحديدية يمكن أن يصبحوا عناصر انتخاب جيدين، ومن جهة أخرى، كانوا يرددون عبر الصحف التي يؤثِّرون فيها تهديدات عنيفة، فقد ارتأى المشرعون بمنتهى البساطة استخدام سلطتهم المطلقة لينالوا رضاهم، فسارعوا إذن إلى التصويت لصالح زيادة ضخمة في الرواتب التقاعدية، تُدفع بالطبع من حساب أصحاب الأسهم في الشركات. قلة من الطغاة من كانوا سيجرؤن على استخدام هذه الطريقة وأن يقولوا لأصحاب الأسهم: يطيب لي أن أقلص أرباح أسهمكم الهزيلة من أجل زيادة تقاعد شريحة من العمال أحتاج لأصواتها الانتخابية. اخضعوا وادفعوا.

إن الخطوط الحديدية بوصفها شركات خاصة، ترتبط بعقود لا يحقُّ لأحد المتعاقدين نقضها. هذه الحقيقة كان يجب التفكير فيها من قبل مشرعين لم تغش أبصارهم نظرية سيادة الدولة الممثلة للجماهير. ومع ذلك لم يكن في مجلس الشيوخ إلا سيناتور واحد هو

السيد ريمون بوانكاريه ليبيّن الطابع البشع لتدخل يهدف لنهب طبقة من المواطنين لصالح طبقة أخرى. فقد قال: " هذا سلوك أمير في غاية الاستبداد. نحن نشرّع للمستقبل ؛ وثمة من سيطلب منا غدا التشريع إن لم يكن للماضي فعلى الأقل من أجل الحاضر.... إلى أين نحن ذاهبون، أيها السادة، إني أتساءل؟ سوف نقاوم دون أدنى شك، ولكن لكم من الوقت. وحينما يحلّ ذاك اليوم، هل سنكون قادرين على الصمود؟ "

ليس طويلا، بالتأكيد، لأن رجل الدولة القدير، بعد أن أوضح بجلاء الأخطار الرهيبة لمشروع الحكومة، لم يتردد في التصويت لصالحه، مشاركا بذلك في خرق مبادئ قانونية جوهرية. عمال السكك الحديدية الذين شجعهم نجاح تهديداتهم، طالبوا على الفور بزيادات ضخمة لرواتبهم التقاعدية. حاولت الشركات المقاومة فنتج عن ذلك في نهاية المطاف الإضراب الكارثي لعمال السكك الحديدية الذي دمَّر كل شبكات خطوطنا.

زد على ذلك أن تلك لم تكن سوى البداية. فالعمال الذين يتقاضون مائتين أو ثلاثمائة فرنك لم يعودوا يقبلون بها بعد أن شاهدوا كيف أن زملاءهم، عمال السكك الحديدية حصلوا عبر وسائل العنف على ألفين أو ثلاثة آلاف فرنك. بعد تصويت مجلس الشيوخ بدأت بالطبع تنهال كالمطر المطالبات بزيادات نسبية في الرواتب التقاعدية: فطالب مرممو الطرق وعمال مصانع الأسلحة والمناجم ومصانع التبغ بزيادات كبيرة. لكن في كل ذلك كان المستقبل، المستقبل الرهيب الذي وحدها المطامع الانتخابية يمكنها أن تمنع رؤيته. و يا له من عمى مدمِّر!

وقد رأينا في الثورة الأخيرة، من بين عدة ثورات في إحدى المقاطعات، الثورة المترافقة بأعمال النهب والحرق، تصاعُد عنف الطبقات الشعبية حينما يُرفض الخضوع لها في الحال.

وتتضح أكثر الغاية المرجوة كل يوم. فهي تقوم على محاولة نزع الملكية من أصحابها. وهذا الهدف الأعلى الذي يبشر به باستمرار القادة المحركون يقع في أصل كل هذه المطالبات.

وفي الانتظار، يصادق المشرعون بخنوع على الإجراءات التي يطلبها الجمهور. فقد فقدوا الإحساس بالممكنات وبالوقائع، ولم تعلمهم التجارب الأشد قسوة. فهم يتخيلون السير بذلك نحو التقدم والحرية في حين أن أصواتهم تقودنا نحو العبودية والانهيار وكل أنواع الاستبداد التي تتبع ذلك.

5 ـ تأثير الجماعات في استقرار بعض العناصر الاجتماعية

الدور المدمر لآراء الجماهير ليس إلا أحد وجوه تأثيرها. فتحت الحركية الشعبية الظاهرة، توجد كما كنا قد أسلفنا، روح محافظة يصعب تدميرها، وبفضلها تعود الجماهير بسهولة إلى الماضي. ويُلحظ الجانب المحافظ في الروح الشعبية خاصة في المجموعات الاجتماعية: الطبقات، المجالس، الروابط المهنية، النقابات، الجامعات الخ.... وتأثير هذه المجموعات المتجانسة يكون غالبا مختلفا بشدة عن تأثير الجماهير غير المتجانسة التي انشغلنا به أعلاه. فهو ليس مدمرا ولا مبدعا يرسخ، بفعل سلطة العدد، بعض

الآراء الجديدة التي تنتجها بعض النخب و يثبّت بذلك بعض العناصر الهامة في الحضارة: اللغة، الفنون، طرز اللباس، المعتقدات وحتى النظريات العلمية.

التأثير الفردي رئيسي بالتأكيد والعبقرية، في أجمل تفتحها هي دائما شخصية ؛ ومع ذلك فإن إبداعاتها لا يمكنها أن تتفتح على مداها إلا بعد أن تصبح جماعية. دون الباحثين المنفردين لما كان هناك حتما لا حضارة ولا تقدم لكن العمل الفردي لا يكتسب كل قوته إلا بعد أن تتشرَّبه الروح الجماعية.

الفصل الثالث

ذوبان الروح الفردية في الروح الجمعية

1 ـ تفكك الجماعات الكبيرة الحالي إلى تجمعات صغيرة

بعد أن تخلصت الروح الفردية بصعوبة عبر عمل بطيء مزمن من الجماعية، ها هي تسعى اليوم للعودة إليها تحت شكل غير متوقع ومختلف جدا عن الشكل الذي تخيله بعض المنظرين السياسيين الحالمين بمساواة عامة في ظروف العيش والثروات تحت إدارة الدولة.

فقد كانت تنمو إلى جانب النظريات الاشتراكية وسرعان ما صارت ضدها، مجموعات صغيرة منفصلة الواحدة عن الأخرى انفصالا واضحا بآرائها ومصالحها. هذا التفكك لمجتمع ما إلى شظايا لا رابط مشترك بينها يشكل ما كان سمّاه البعض بالحركة النقابية.

إن الحركة النقابية وبدل أن تبقى كما الاشتراكية شأن منظرين نظريين، غريبين عن حقائق الواقع، تمثل إبداعا عفويا مطلوبا من ضرورات اقتصادية فرضت نفسها في كل مكان، كما يدلُّ على ذلك انتشارها تحت أشكال مختلفة، وعند شعوب من

ذهنيات متباينة. ويتمثَّل الفرق الوحيد في أن النقابية تكون ثورية في بعض البلدان بينما تظل سلمية في غيرها.

لقد قاد التطور الصناعي الذي أنتج هذه الحركة، الأوطان الكبيرة الحديثة إلى الانقسام إلى أوطان صغيرة لا تنصاع إلا إلى قوانينها الخاصة وتزدري قوانين الجماعة العامة التي تضمها. الاتحاد المؤقت لهذه المجموعات المختلفة، على الرغم من المصالح المتباينة، منحها قوة كبيرة بحيث تستطيع غالبا فرض إرادتها.

صحيح أنَّ كلا منا يشهد بسهولة نتائج هذه القوة لكننا نلحظ بسهولة أقل عموما أن الاتحاد المؤقت لكل هذه المجموعات لا يسعه الاستمرار. فما أن تنفرط الكتلة الاجتماعية القديمة تماما إلى أجزاء صغيرة مُشكَّلَة بقوة حتى يقود تنافر مصالح هذه الأجزاء بصورة حتمية إلى صراعات لا تتوقف. وإذا كانت كل مجموعة مؤلفة في الواقع من عناصر متجانسة ولها المصالح والآراء المتماثلة فإنها ستجد نفسها في صراع مع مجموعات أخرى قوية لكن ذات مصالح متعارضة بوضوح.

ويمكن منذ الآن توقع هذه الصراعات القادمة، بين مصالح متناقضة من خلال دراسة تاريخ الجمهوريات الإيطالية القديمة، وتاريخ سيان وفلورنسا بوجه الخصوص. فقد كانت محكومة من قبل نقابات عمالية وقد خضبت خلافاتها الداخلية بالدم لعدة قرون كل المدن التي كانت تحت حكمها. لن يفيدنا الاعتراض بالقول أنَّ هذا جرى منذ زمن بعيد جدا. فالقوانين الاجتماعية الكبرى ليست كثيرة العدد وهي تتكرر باستمرار.

صراع المجموعات على وشك أن يبدأ، لأن السلطة المركزية التي ما تزال قوية، تكبح مزاحماتها، لكن هذه السلطة أخذت تفقد أكثر فأكثر تأثيرها. وما أن تكون قد فقدت تماما هذا التأثير حتى تأخذ صراعات هذه التجمعات الجماعية بالظهور بداية ضد السلطة كما في ناربون ثم فيما بينها كما في شامامباني، حيث تقاتلت بضراوة نقابتان متنافستان في قطاعين من المصالح المتناقضة. وستغدو عندئذ أعمال النهب والحرق والمجازر كما كان حالها دائما، المظاهر المحتمة لغضب الجماهير الشعبية أمام أدنى مقاومة لرغباتها، حين لا يعود أي كابح ليقف في وجهها.

لم نبتعد كثيرا عن مسالة تكون الآراء والمعتقدات كما يمكن للعرض السابق أن يوحي فكيف سنفهم وحدة آراء مجموعة ما دون أن نكون قد حددنا بداية تحت أية تأثيرات تشكلت هذه المجموعة؟

في الفصول المكرسة لدراسة الآراء الفردية، كنا نجد غالبا صعوبة في تحديد العوامل التي تلعب دورا حاسما من بين العوامل القادرة على التأثير. وبالعكس، لم يكن هناك ما هو أسهل من ذلك فيما يتعلق بالمجموعات المتجانسة جدا، والمغلقة جدا، مثل تلك التي تحدثنا عن تشكلها.

فهي في الواقع مكونة من أفراد لا يمتلكون من الآراء سوى آراء بيئتهم الصغيرة. ولكي تحافظ هذه المجموعة على قوتها فإنها تضطر لعدم التسامح مع أي انشقاق. وعبر رأي واحد من أعضائها يعرف المرء رأي أعضاء المجموعة الآخرين كلهم.

وسوف تسهل كثيرا مسالة تكون الآراء والمعتقدات عندما لا يعود مقبولا إلا رأي المجموعة التي يجد المرء نفسه محصورا داخلها، وسيصبح استقلال الأفكار عندئذ مستحيلا أكثر فأكثر.

وإذا ما وقعت المجتمعات القادمة تحت نير الاشتراكية أو النقابية، أو المستبدين، الذين تفرّخهم أشكال الفوضى المتولدة من هاتين العقيدتين، فإنها لن تكون عقليا أقل استعبادا.

2 ـ كيف خرجت الروح الفردية من الروح الجمعية وكيف تعود اليها

يسعى التطور الحديث، كما رأينا، إلى تفكيك المجتمعات إلى وحدات صغيرة متباينة، تمتلك كل منها عواطف، وأفكاراً وآراء متماثلة، أي روح مشتركة. ومن غير المجدي النقاش حول قيمة هذا التطور، فالعقول لن تغير في الأمر شيئا.

لكن إن لم نستطع الحكم على الوقائع لنحاول على الأقل تفسيرها. والحال، من السهل توضيح أن اتحاد الأرواح الفردية في روح جمعية يشكّل عودة إلى أطوار بعيدة جدا من التاريخ يمكن ملاحظة أنها ما تزال في حالة البقاء عند الشعوب البدائية المتأخرة. فهذه الشعوب البدائية تتألف في الواقع من مجموعات صغيرة تسمى قبائل، تتحالف مؤقتا، تتقاتل غالبا. دور الفرد فيها يبدو ضعيفا جدا لأن الروح الفردية لم تنطلق بعد، فليس لديهم إلا روح جمعية ولذلك فإن كلّ أفراد القبيلة الواحدة يُعتبرون مسؤولين عن أعمال أي فرد منهم.

معرفة هذه الفكرة المميزة ضرورية من أجل فهم القانون المتبع عند كل البدائيين أو حتى شبه المتحضرين مثل الآناميين (بلاد وسط الفييتنام – م.ع.) على سبيل المثال. وقد أشار أحد القادة الإداريين للهند- الصينية هو السيد بول جيران إلى أن القانون الجماعي في هذه البلاد يبدو غريبا في نظر المشرعين الأوروبيين الذين يُرسلون إلى تلك البلاد لأنهم يعتبرون من البديهي غير القابل للنقاش أن يكون مرتكب الجرم وحده المسؤول عن فعلته، وقد بدت لهم فكرة أنَّ شخصا ما بعيد عن الجريمة يتحمل بفعل هذه الجريمة عقوبة ما، فكرة فظيعة. ومع ذلك فهذه الفكرة ليست كذلك في نظر الآناميين. ففي حالات عديدة تمّ إعدام أقارب ينتمون إلى عائلة المجرم، ولماذا؟ لأجل السبب النفسي المشار إليه سابقا، بأن أفراد كل مجموعة اجتماعية لا يختلفون عن بعضهم، ويُعتبرون حاملين لروح جماعية واحدة. وهذا المبدأ عام لأنه ينظم المشاعية السياسية والدينية والاجتماعية لدى كل الشعوب في بداياتها.

القانون البدائي الذي لا يميز الشخصية الفردية، غير المختلفة عن مجموعتها، يعاقب المجموعة كلها أو جزءا منها. فكيف للقوانين التي لا تعكس إلا العرف أن تحكم بعكس ذلك؟ زد على ذلك أن المحكوم لا يعترض مطلقا على مثل هذا القانون، الظالم في نظر المتحضرين، لكنه العادل في نظر الشخص المشبع بشعور واضح بتضامنه مع مجموعة لا يحسب نفسه قابلا للانفصال عنها.

الأوروبيون أنفسهم يعودون لتطبيق هذا القانون البدائي في زمن الحروب، عندما يقومون بإعدام الرهائن، معتمدين على مبدأ المسؤولية الجماعية. ويبدو أنهم صائرون للعودة إليه بصورة أكثر

شمولية أيضا إذا ما استمرت المجتمعات في التفكك إلى مجموعات كتلك المجموعات التي درسناها سابقا.

إن عدم التفريق النفسي بين مختلف أفراد القبيلة لدى البدائيين يترافق أيضا مع عدم اختلاف تشريحي. وقد بينت سابقا عبر أبحاث أجريتها على آلاف الجماجم أن التشابه التشريحي لشعب ما يغدو أكبر كلما رجعنا إلى أصوله الأولى وأنه كلما تقدَّم وتطور فإن جماجم أفراده تختلف أكثر. وهذا الواقع ينبغي مقاربته مع ملاحظات الرحالة القائلة بأنَّ كل الأفراد لإحدى القبائل المتوحشة يتشابهون تشابها مثيرا للدهشة وحتى أنه يصعب التفريق بين الجنسين.

روح البدائيين الجماعية، تمتلكها الشعوب المتحضرة أيضا. بيد أن الروح الفردية تُحدّ من تأثيرها. الروح الأولى تشكل ما كنا دعوناه روح العرق. وهي تظهر بوجه خاص في الأحداث الكبرى التي تُعني مصير الشعب كله. وبالعكس تظهر الروح الفردية في أبسط الحوادث المألوفة في الحياة اليومية. هذا التراكب للروح الفردية مع الروح الجمعية هو، كما بينت ذلك سابقا، ظاهرة مشابهة للظاهرة المعروفة عند كل الكائنات التي تمتلك أنواعها بالإضافة إلى الخصائص العامة للجنس الذي تنتمي إليه، الصفات الخاصة بكل نوع.

لن نتحدث هنا عن الجهود الطائلة التي بذلتها ببطء الروح الفردية للإفلات من شباك الروح الجمعية حيث كانت المصلحة الاجتماعية تسعى للإبقاء عليها فيها عبر التأثير القوي للمعتقدات الدينية، والبيئة والأعراف والتقاليد والقوانين. واستعراض هذه

الجهود المتتابعة سيعني إعادة كتابة التاريخ. وكانت هذه الدراسة ستعلمنا مثلا أنَّ عدد الرجال الذين نجحوا على مرّ الأزمنة في التخلص من حمل الروح الجمعية الثقيل كان نادرا جدا دائما. كما كانت ستخبرنا أيضا أن البشرية تدين لهم بكل تقدمها المتحقق خلال تطورها البطيء. وكانت ستقول لنا أخيرا أن المجتمعات التي عاشت بأفعالهم قد وقفت مع ذلك ضدهم دائما. وإذا ما جرى التسامح معهم أحيانا، في المراحل الانتقالية، فإن ذلك لم يدم أبدا لفترات طويلة. إن الحركات الاشتراكية والنقابية الحالية تمثل أطوارا جديدة من المحاولة الدائمة للمجتمعات لتوحيد الناس وتثبيتهم في الآراء ذاتها والمعتقدات ذاتها والسلوك ذاته.

أهم الأمور المعروضة في هذا الفصل هي بداية تفكك المجتمعات الحالية إلى مجموعات صغيرة مستقلة، تتبادل العداء، وتسعى أكثر فأكثر للانعزال وبذلك تنزع عن الشعوب وحدتها. إن الروح الفردية التي استغرقت قرونا للتخلص من الروح الجمعية قليلا، تعود إليها حاليا. إننا نشهد إذن هذه الظاهرة الفريدة من قبل الشعوب المتحضرة وهي تسعى للعودة نحو ذهنية أدنى من ذهنية العصور الأولى. إن الصراعات الكبرى في المستقبل غالبا ما ستكون بين المجموعات المتكونة داخل الشعب أكثر مما ستكون بين الشعوب المختلفة.

إن ذوبان الروح الفردية في الروح الجمعية لمجموعة ما هو دون ريب قوة لهذه المجموعة لكنه بالتأكيد لا يمثل تقدما لا للمجتمع ولا للأفراد. إن المرء لن يصبح شخصية قوية إلا عندما سيتخلص من الروح الجمعية.

الكتاب السابع

انتشار الآراء والمعتقدات

الفصل الأول: التأكيد، التكرار، المثال الهيبة

الفصل الثاني: العدوى الذهنية

الفصل الثالث: الدرجة (الموضة)

الفصل الرابع: الصحف والكتب

الفصل الخامس: تيارات الآراء وظهورها الفجائي

الفصل الأول

التأكيد، التكرار، المثال، الهيبة

1 ـ التأكيد والتكرار

بما أنه سبق لي أن درست دور العوامل المذكورة في هذا الفصل في العديد من كتبي فإني سأقتصر على تلخيص تأثيرها باقتضاب.

التأكيد والتكرار هما عنصران قويان جدا في خلق ونشر الآراء. وتقوم التربية جزئيا عليهما، ويستخدمهما السياسيون والقادة من جميع الأشكال يوميا. أكّدْ ثم كرّرْ يمثل الجوهر الرئيس لخطابهم. التأكيد لا يحتاج للاتكاء على أي برهان عقلي، ينبغي فقط أن يكون قصيرا، حماسيا ومؤثرا. ويمكن اعتبار البيان التالي المنشور مؤخرا في عدد من الصحف نموذجا لهذه الصفات الثلاث.

من الذي ينتج القمح، أي الخبز للجميع؟ الفلّاح ! ومن الذي يزرع الشوفان والشعير وكل الحبوب؟ الفلّاح ! من الذي يربي الماشية لتأمين اللحم؟ الفلّاح ! من الذي يربي الخراف لتأمين الصوف؟ الفلّاح! من الذي ينتج

النبيـذ، والـسيدر، الخ..؟ الفلّـاح ! مـن الـذي يغـذّي الطرائد؟ الفلّاح !

ومع ذلك، فمن الذي يأكل أشهى الخبز وأطيب اللحم؟ ومـن الـذي يرتـدي أجمـل الثيـاب؟ ومـن الـذي يـشرب البـوردو والـشامبانيا؟ ومـن الـذي يـستفيد مـن الطرائد؟ البرجوازي !

من الذي يلهو ويرتاح على هواه؟ ومن الذي يحصل على كامل متعه؟ ومن الذي يقوم برحلات الاستجمام؟ ومن الذي يقعد في الظل صيفا، وإلى جانب نار دافئة شتاء؟ البرجوازي!

من الذي يعاني سوء التغذية؟ ومـن الـذي نـادرا ما يشرب النبيذ؟ومن الـذي يعمـل دون توقـف؟ ومـن الـذي يحترق صيفا ويتجمد شتاء؟ ومـن الـذي يعـاني الكـثير من البؤس والكثير من المتاعب؟ الفلّاح !

إن التأكيد إذا ما كُرر بما يكفي سيؤدي في النهاية إلى خلق الـرأي بدايةً وفيمـا بعـد الاعتقـاد. والتكـرار هـو المكمـل الـضروري للتأكيد. فأن تكرر كلمة أو فكرة أو عبارة يعني غالبا أن تحولها حتمـا إلى معتقـد. ومـن مؤسـس الـدين إلى بـائع الملابـس يـستخدم التكرار كل الرجال العاملين على إقناع غيرهم.

إن التكرار يبلغ من القوة بحيث إنَّ المرء ذاته ينتهي إلى الإيمان بالكلمـات المكـررة وإلى القبـول بـالآراء الـتي يعـبر عنهـا بـشكل اعتيـادي. لقـد رجـا مجلـس الـشيوخ الرومـاني بـومبي العظـيم اتخـاذ

الخطوات الضرورية من أجل الدفاع عن الجمهورية لكن هذا لم يكن يكف عن تكرار أن قيصر لن يهاجم روما ، ويشير مونتيسكيو، " لأنه كان قد قال ذلك مرات كثيرة فإنه ظل يقوله دائما ". فالاقتناع الذي تكون في ذهنه نتيجة هذا التكرار منعه من اللجوء إلى الوسائل التي كانت ستتيح له حماية روما والحفاظ على رأسه على الأقل لبعض الوقت.

يطفح التاريخ السياسي بالقناعات المتشكلة من خلال التكرار. قبل عام 1870 لم يكن قادتنا العسكريون والسياسيون يكفون عن تكرار أن الجيوش الألمانية أضعف بكثير من جيوشنا. لكثرة ما كرروا ذلك صدقوه بقوة. وكلنا نعرف ما كلفنا ذلك.

إن السياسي الذي تبنى أراء لأنها ببساطة مفيدة له انتهي أمره لشدة دعمه لها لأن يؤمن بها بقوة بحيث لا يعود يستطيع فيما بعد التخلص منها بسهولة حينما يغدو من المفيد له تغييرها. فعادة مدح الفضيلة ربما هي ما أدت لجعل طرطوف رجلا فاضلا.

القناعات القوية يمكن على هذا النحو أن تنتج عن القناعات الضعيفة وحتى المصطنعة. وكان باسكال يقول: " افعل كل شيء كما لو كنت تؤمن، وهذا سيقودك لأن تؤمن. "

إن دور التأكيد والتكرار في تشكيل الآراء والمعتقدات لا يمكن أن يكون مبالغا فيه. فهو يقع في أساس وجودها. وإذا كانت النتائج المحققة من قبل خطبائنا السياسيين الحاليين متواضعة جدا أحيانا فذلك لأنهم يفتقدون أكثر من اللازم لعنصر سوف نبرز لاحقا قوته هو: الهيبة.

ليست البلاغة البرلمانية ، كتب نائب سابق هو السيد جيرار ڤاريه نقضا لشهادة كما في القصر العدلي، ولا نصًا إنشائيا أدبيا كما في السوربون. فالجمهور يأنف بطريقة لا تُردُّ من بذل جهد للتفكير ومن همِّ البرهنة والإثبات: إنه يريد التأكيد القاطع والعقيدة الملّحة والحاسمة. وهذه العقيدة يريدها أن تنحو نحو رغباته؛ وهو أصمّ حيال الانتقادات، متلهف للمداهنة، ثمل بشعوره بلا مسؤوليته. فالخطيب الذي يعرفه يتوجه مباشرة نحو عواطفه الأولية وغرائزه الفطرية: الغرور، الغضب، الحسد، الأمل. فيصرخ متحدثا عن البؤس غير المستحق، والمظالم وعن التعويضات المطلوبة، ويتذرع بالطموحات المسيحية وبالأحلام الفردوسية. إن خطبة المنبر لهي سيل من الغنائية، إنها لعنة أو ترتيلة.

2 ـ المثال

المثال هو شكل قوي من الإيحاء، لكنه لكي يعمل فعليا ينبغي أن يكون مؤثِّرا. في علم التربية، مثال واحد قوي يكفي ليُحفَظ أكثر من أمثلة ضعيفة تتكرر منذ زمن طويل. وقد أُتيحت لي الفرصة لأتأكد من صحة هذا المبدأ عندما كنت أدرِّب بعض الخيول الشموسة. إن انطباعا قويا على الرغم من كونه وحيدا مثل نخسة مهماز مؤلمة جدا كان يؤثر بسرعة أكبر بكثير من أفعال

ضعيفة مكررة غالبا. وتأثير الأمثلة التي تدهش المخيلة ظهر بوضوح في المناورات العسكرية الأخيرة من عام 1910. فقد كررت فيها الطائرات عملياتها المعتادة دون أي تمرين جديد باستثناء نقل برقية مستعجلة لكن هذا المثال عن الفائدة المفترضة للطائرة في زمن الحرب دفع الحكومة في الحال لإنشاء طاقم من الطيارين وليعلن وزير الحرب أن الطيران يشكل سلاحا جديدا يجب إضافته إلى الأسلحة الثلاثة الأخرى: المشاة والمدفعية والخيالة.

في السياسة يلعب إيحاء المثال دورا حاسما في تشكيل وانتشار الآراء. وقد وجّه نجاح بعض المرشحين الاشتراكيين جمهورا من المدرسين الشباب نحو أسوأ شكل من أشكال العقيدة. وقد أوضح ذلك بجلاء السيد بوردو كما في السطور التالية:

في حين أن الشبيبة الجامعية في ألمانيا، الشبيبة البرجوازية، الذكية والمتعلمة، التي كانت تجذبها الاشتراكية سابقا، أخذت تبتعد عنها اليوم وتعود إلى بعض المشاعر من الوطنية الخالصة والمعظمة لدرجة أن الاشتراكية – الديموقراطية الألمانية لم تعد تجد تقريبا أي متطوع من بين صفوفها؛ أما في فرنسا فعلى العكس فقد صار الانضمام إلى الطلاب أنصار الجماعية والأمميين دُرجة سائدة. والقدوة تأتي من الأعلى من المجازين في الفلسفة وطلاب دار المعلمين العليا. لقد تحولت دار المعلمين العليا إلى منجم للاشتراكية.

3 ـ الهيبة

تصف أبحاث المنطق بدقة مختلف عناصر تكوين حكم ما. لكنها نسيت مع ذلك العدوى والهيبة. والحال فإن هذين بالضبط هما اللذان يحددان الغالبية العظمى من آرائنا.

ولأنه يتوجب تكريس فصل خاص للبحث في العدوى الذهنية، فإني لن أدرس هنا إلا تأثير الهيبة. وهذه الدراسة ستكون موجزة، لأنه سبق لي معالجة هذا الموضوع في كتب أخرى.

يعلموننا في الثانوية، دون شك، أن مبدأ السلطة، الجزء الأساسي في الهيبة، قد حلّت محله التجربة والملاحظة، لكن زيف مثل هذا التأكيد يسهل كشفه.

وحتى لو وضعنا جانبا الآراء الدينية والسياسية والأخلاقية، حيث لا تتدخل نهائيا المحاكمة العقلية، واهتممنا فقط بالآراء العلمية، فإننا سوف نرى أنها تتخذ سلطة الشخص الذي يعلنها منطلقا وحيدا لها في غالبية الأحيان وتنتشر بفعل العدوى البسيطة. ولا يمكن من جهة أخرى للأمور أن تكون بخلاف ذلك. فالقسم الأعظم من التجارب والملاحظات العلمية ونظرا لكونها شديدة التعقيد بحيث لا يسهل تكرارها فإنه علينا أن نصدق دون نقاش العالم الذي يعلنها. إن سلطة المعلم هي سلطة عليا اليوم، تماما كما كانت أيام آرسطو. لا بل تصبح أكثر فأكثر مطلقة القوة كلما ما أصبح العلم أكثر تخصصا.

ولأن عمومية الآراء التي رسختها التربية في أذهاننا اتخذت من السلطة فقط قاعدة لها، فقد اعتدنا بسهولة أن نقبل دون صعوبة أي رأي يدافع عنه شخص محاط بهالة من الهيبة. فيما يتعلق

بالموضوعات التقنية الخاصة بمهنتنا، فنحن قادرون على إصدار أحكام مؤكدة جدا.. أما فيما عداها من الأمور فإننا لا نحاول حتى التفكير، مفضلين أن نقبل بعيون مغمضة آراء تفرضها علينا شخصية ما أو جماعة محاطين بالهيبة.

وفي الواقع فإن قَدرَ أن يكون المرء رجل دولة، أو رب عمل ما، أو فنانا أو كاتبا أو عالما، يخضع على الأخص لمقدار الهيبة التي يمتلكها وبالتالي لدرجة الإيحاء اللاواعي التي يمكن له أن يخلقها. إن السيطرة الذهنية التي يمارسها شخص ما هي ما يحدد نجاحه. مع ذلك فالأحمق كلية ينجح أحيانا، وذلك لأنه بسبب عدم وعيه لحمقه، لا يتردد مطلقا في أن يؤكد أمراً ما بحزم، والحال فإن التأكيد الحاسم والمتكرر يمتلك هيبة ما. وحتى أكثر الباعة الجوالين ابتذالا عندما يؤكد بشدة على أفضلية منتج ما، يمارس نوعا من الهيبة على الجمهور المحيط به.

وعندما سنعود إلى هذا الموضوع في القسم المخصص للدراسة التجريبية للمعتقدات في هذا الكتاب، سنبين عبر أمثلة قوية أنه حتى عند بعض العلماء المرموقين، تكون الهيبة أحيانا واحدا من العوامل الأكثر ثقة في ترسيخ قناعة ما. أما بالنسبة للأشخاص العاديين فإنها تكون كذلك دائما. إن الهيبة، بوصفها خالقة الآراء وسيدة الإرادات، قوة معنوية أعلى شأنا من القوى المادية. والمجتمعات تُبنى على أساسها أكثر مما تُبنى على القوة، فقد استعاد نابليون العائد وحيدا تقريبا من جزيرة إلبا، فرنسا في بضعة أيام بفضل هيبته. وأمام هالته، ظلت مدافع الملك صامتة وتلاشت جيوشه. وكان هذا التأثير عظيما و كان يمارسه حتى على أعدائه. فقد

أعُجبت ماري - كارولين، ابنة ماري – تيريز، وزوجة واحد من أسرة بوربون الملكية، التي يفترض أن تمقت هذا العدو الرهيب بالنسبة لها أشد المقت، أعُجبت به وكأنه إلها. وإليكم ما كتبته عنه في إحدى رسائلها:

" إنه أحد أعظم الرجال الذين جاد ت بهم القرون. قوته، طاقته، روحه المثابرة، نشاطه، موهبته، أكسبته إعجابي. وكم ستكون سعيدة البلاد التي تحظى بحاكم مثله ! فعنده كل شيء عظيم... أقصد سقوط الجمهورية، لكن الإبقاء على اسم بونابرت... وإذا ما مات فقد ينبغي تحويل جثته إلى مسحوق ناعم وإعطاء جرعة منه لكل حاكم، واثنتين لكل وزير من وزرائه... "

إن نصيب الهيبة في سطوة الحاكم كان عظيما دائما. وقد قال باسكال بحق: " ربما ينبغي للمرء امتلاك عقل خالص لكي لا يحسب كأي رجل آخر هذا السيد الكبير الذي يحيط به في قصره الفخم أربعون ألفا من الانكشاريين... "

وحتى في عصرنا عصر المساواة الديموقراطية احتفظت الهيبة بقوتها، وسيحسن الملوك العصريون صنعا عندما لا يسمحون بالمساس بها.

وقد كتب مراسل صحيفة هامة هو السيد نوزيير: " كل أولئك الذي حضروا جنازة ملك انجلترا أصيبوا بدهشة كبيرة لشدة الانطباع الذي تركه إمبراطور ألمانيا في نفوس الجماهير. كان

يتقدم وسط الملوك ويحوز على اهتمام الجميع. كان غوييوم يشعر بأنه فارس الرب فوق الأرض. وعندما عبّر عن هذه الفكرة لم يمتنع البعض عن الابتسام. لكن قناعته هذه منحته جلالا فريدا ظل الجمهور مبهورا به. إنه حاليا العاهل الأكثر تأثيرا. "

إن حاجة الجماهير للعبادة سرعان ما تجعل منها عبيدا للأشخاص الذين يمارسون عليها هيبتهم. فقد عبدت بجنون كل قاهريها. ولا يمكن للمرء على الإطلاق أن يحافظ على هيبته عبر مداهنتها، صحيح أنّها تبحث عن مداهنين لكنها سرعان ما تحتقرهم. لزمن طويل أيضا ستتحقق الحكمة القديمة:

إذا أكرمت اللئيم أهانك

وإذا أهنته احترمك.

كل الانضباط العسكري مؤسس على هيبة القادة. وثمة جهل مشوش بعلم نفس الجماهير أدى إلى نسيان هذا المبدأ تماما اليوم، فقد تصور البعض أنه يمكن إحلال الإقناع محل الانضباط. فأمُر الضباط بأن يكونوا أخوة كبارا للجنود، محاولين الحصول على الخضوع بالنقاش العقلي، الأدنى يقبل بطيبة خاطر هذه النظريات، لكنه يحتقر جدا القادة الذين يطبقونها ويفقد هؤلاء تدريجيا كل سلطة. فكيف سيكون حال الجيش حينما سيكون قادته قد خسروا سلطتهم تماما؟

إن الفوضى الحالية تنتج في جزء منها عن أن رخاوة الطبقات الحاكمة قد جردتها من هيبتها. فالملوك والشعوب والأفراد والمؤسسات، أي كل عناصر الحياة الاجتماعية بكلمة أخرى،

محكومون بالفناء بعد أن يكفّوا عن ممارسة الهيبة. ويمكن بسهولة أن نلخص في أسطر قليلة تأثير مختلف عوامل انتشار الآراء والمعتقدات المذكورة في هذا الفصل. لولا الهيبة لما ولد أي رأي أو معتقد، ولولا التأكيد لما فُرض أي رأي أو معتقد، ولولا المثال والتكرار لما بقي أي رأي أو معتقد.

الفصل الثاني

العدوى الذهنية

1 ـ أشكال العدوى الذهنية

تشكل العدوى الذهنية ظاهرة نفسية تكون نتيجتها التسليم اللاإرادي ببعض الآراء والمعتقدات. ولأن مصدرها اللاوعي فإنها تتم دون أن يساهم فيها أي تفكير أو محاكمة، ويمكن ملاحظتها لدى جميع الكائنات من الحيوان إلى الإنسان، وخاصة حينما تكون متجمهرة. إن تأثيرها عظيم الشأن فهي تهيمن على التاريخ.

في الواقع، تمثل العدوى الذهنية العنصر الأساسي في نشر الآراء والمعتقدات. وتكون قوتها كبيرة جدا أحيانا بحيث أنها تدفع الفرد للتصرف بخلاف مصالحه الأشد وضوحا. ومثالنا على ذلك قصص لا تحصى عن الاستشهاد والانتحار والجدع الخ... التي تدفع إليها العدوى الذهنية. وكل مظاهر الحياة المادية يمكن أن تكون معدية لكن الانفعالات بشكل خاص هي التي تنتشر بهذه الطريقة. والأفكار المعدية إنما تكون تركيبات من عناصر عاطفية.

في الحياة العادية يمكن محاصرة العدوى بفعل الإرادة الكابح، لكن إذا قام سبب ما: تغير عنيف للوسط زمن الثورة، أو

هيجان شعبي الخ.... بشلّ عمل الإرادة فإن العدوى ستمارس تأثيرها بسهولة وستتمكن من تحويل أشخاص مسالمين إلى محاربين أشداء، وبرجوازيين هادئين إلى طائفيين متوحشين. وتحت تأثيرها سينتقل الأشخاص ذاتهم من حزب إلى حزب وسيعملون بذات العزم على إخماد الثورة التي ساهموا في إشعالها.

لا تنتقل العدوى الذهنية عبر الاتصال المباشر بين الأفراد فقط بل يمكن للكتب والصحف والأخبار البرقية وحتى الإشاعات البسيطة أن تقوم بنقلها. وكلما تعددت وسائل الاتصالات تداخلت الإرادات وتبادلت العدوى. إننا نرتبط أكثر فأكثر يوميا بمن يحيطون بنا، وتكتسي الذهنية الفردية بسهولة شكلا جمعيا.

ومن بين أنواع العدوى الذهنية المختلفة التي تضيّق الخناق علينا، عدوى من أشدها قوة هي، كما بينت ذلك سابقا، عدوى المجموعة الاجتماعية التي نشكل جزءا منها، وليس ثمة إرادة تحاول الفكاك منها. وهي تملي حتى في أغلب الأحيان أرائنا وأحكامنا دون أن نلحظ ذلك.

2 ـ أمثلة مختلفة للعدوى الذهنية

إن العواطف طيبة كانت أم خبيثة معدية ولذلك فإن دور المحيط في العملية التربوية له أهمية كبيرة.: " قلّ لي من تصاحب أقول لك من أنت " هو مثل صائب جدا. فإلى العدوى الذهنية على سبيل المثال يُنسب تشكل حشد من الفتيان المجرمين الذين طُردوا من المصنع بفعل بعض القوانين الإنسانية المزعومة. فمنذ أن باتوا

ولا شيء يشغلهم سوى التسكع في الشارع أقاموا علاقات مع رفاق كانوا يسرقون بعض الأشياء الصغيرة من البضائع المعروضة وسرعان ما اخذوا يقلدونهم. وازداد حجم المسروقات تدريجيا وتشكلت عصابات لتقليد هذه الزمر الشهيرة، وسرعان ما سيصبح هذا المتسكع على وجهه لصا محترفا وستتصرّم حياته بين سجن و آخر. وسوف يتقبل مصيره بسهولة كبيرة لاسيّما وأنه ليس ثمة فعل كابح ليحدّ من آثار العدوى. فالقضاة في الواقع يفيضون عطفا حيال كل المجرمين بينما يعمل بعض محبي الإنسانية، الحمقى نوعا ما، على بناء سجون فاخرة، جيدة التدفئة ومزودة بكل سبل الراحة الحديثة.

العدوى الجرمية تحصل غالبا جدا أيضا، بسبب حكايات الجرائم المثيرة التي ترويها الصحف اليومية وهكذا فإن جاك باقر البطون الشهير صار له مقلّدون عديدون في عدد من مدن إنجلترا.

إن الوقائع التي تفصح عن العدوى الذهنية واضحة جدا لدرجة أنه قد يبدو من غير المجدي التركيز عليها. غير أن الإجراء الشهير الذي أقرّه مجلس الوزراء القاضي بإدخال المتسكعين إلى الجيش يبين إلى أية درجة تجهل الحكومة هذا الأمر. إذ أن أبسط عالم نفس كان سيخبر هؤلاء القادة القليلي الذكاء كم ستكون وخيمة عواقب هذا القرار وبأنه يجب التراجع عنه حالا، وهذا ما حصل بالفعل.

ومن بين أكثر الانفعالات المختلفة سريانا بالعدوى ربما يكون الخوف، ونحن نعرف دوره الرئيس في حياة الأفراد والشعوب على حدٍّ سواء، فالخوف إذا لم يكن كافيا لخلق الآلهة، كما كان

يؤكد ليكريس **Lucrèce**، فإن تأثيره كان واضحا في نشوئها. وهو شديد القوة الآن كما في بداية التاريخ بحيث يخلق حالات الرعب التي تقود إلى خسارة المعارك وحتى يمكن أن يدفع بضحاياه إلى الانتحار. فالرعب من الكوكب الأخير الذي كان يجب حسب البعض أن يصطدم بالأرض قاد أشخاصا عديدين إلى الانتحار.

الخوف لا يوجه فقط الأفراد والجماهير بل أيضا رجال السياسة الذين يقودونهم. وفي كتابي علم نفس السياسة بينت أن الخوف كان وراء عدد كبير من القوانين التي جرى التصويت عليها منذ عشرين عاما والتي تقع نتائجها المشؤومة كل يوم.

يمكن القول أنه في الأوقات المضطربة يبسط شبح الخوف سلطته المطلقة على الاجتماعات السياسية ويحدد آراء المجتمعين وأصواتهم. فهو الذي دفع إلى اتخاذ أقسى قرارات الجمعية التأسيسية. وتحت سطوة الخوف أباد كاريي **Carrier** ضحاياه تحت صنوف التنكيل الرهيبة وتحت سطوة الخوف أرسلهم فوكيي – تانفيل **Fouquier-Tinville** بالمئات إلى المحرقة.

إن معظم المشاعر معدية كما الخوف. والخطباء الحقيقيون يعرفون ذلك جيدا. فتصويت مجلس العموم الذي أطاح بكليمانصو في دقائق كان، وقد ذكرت ذلك سابقا، نتيجة لانفعال معدي عرف أحد خطباء المعارضة كيف يستثيره.

تترجم تعابير الوجه والإشارات والحركات العواطف: الغضب، والعطف، والخبث، والغبطة الخ... هي أيضا معدية. فيكون من الحكمة حينما يستجدي المرء حظوة ما أن يتخذ مظهرا بشوشا

بدلا من هيئة مُكرهة. وهكذا تكون لديه الفرصة لأن يدفع نحو التعاطف بالعدوى الشخص الذي يستمع له.

3 ـ قدرة العدوى الذهنية

العدوى الذهنية ظاهرة عامة بصورة مطلقة ويمكن ملاحظة وقوعها عند الحيوانات بقدر وقوعها عند البشر. فما أن يأتي حصان ما بحركة حتى تقلدها في الحال كل خيول الإسطبل. وإذا نبح كلب ضمن رهط فإن الكلاب الأخرى سرعان ما تأخذ في النباح. ، وعندما يهرب خروف، فإن جميع الخراف تلحق به.

إن العدوى الذهنية يمكن أن تكون شديدة القوة، كما قلت سابقا، بحيث تتغلب على غريزة البقاء عند الفرد وتقوده للتضحية بحياته. وطالما رددنا حكاية العجزة الخمسة عشر الذين شنقوا أنفسهم على كلّاب أحد المعابر ذاته، وقصة الجنود الذين انتحروا في المحرس ذاته. إن الحوادث المشابهة لا تعّد ولا تحصى. وسوف أستعير بعضا منها من الدكتور ناس **Nass**:

> ***ما أن تروي الصحف بالتفصيل قصة انتحار مؤثرة حتى تتكرر سريعا وبأقل قدر من الفنية من قبل بعض المختلين. وغداة قضية سيفتون Syveton سُجلت عدة حالات اختناق مقصود بالغاز......***
>
> ***و على وجه الخصوص ففي روسيا، بلاد التدين، سببت جائحات الانتحار الذاتي خسائر مروعة... وفي زمن الاضطهاد الديني كان الرسل يبشرون بالانتحار حرقا. في إحدى المرات القى600 شخص بأنفسهم دفعة***

واحدة وسط النار. ويقدّر أحد مؤرخي الأديان الروسية عدد الضحايا ما بين عامي 1675 و1691 بعشرين ألفاً. ويذكر السيد ستووكين Stohoukine حالة التهمت فيها المحرقة 2500 شخص ضحوّا بأنفسهم آملين العيش في عالم أفضل.

وثمة أمثلة عديدة من هذا النوع تقع حتى في أيامنا. بسبب العدوى الذهنية ينتشر في روسيا أشخاص قبلوا الخصاء الطوعي وطائفة أخرى يدفن أفرادها أنفسهم أحياءً. إن العدوى الذهنية قوية جدا بما يكفي لأن تخلق في الذهن تمثيلا معينا، وإذن فإنها تولّد بسهولة أعراض مرض ما يمكن مع الوقت أن يصبح مرضا حقيقيا. وقد أورد مؤخرا عالم جراح هو الدكتور بيكي في تقرير له أنه إثر حالة وفاة ناجمة عن التهاب الزائدة الدودية فقد لزم الفراش 15 ضابطاً من أصل 25 ضابطا تضمهم قطعة عسكرية، مظهرين كل الأعراض المعروفة للمرض، وقد تمّ شفاؤهم بالإيحاء.

4 ـ تأثير العدوى في نشر المعتقدات الدينية والسياسية

توضّح الأفكار السابقة بسهولة دور العدوى الذهنية في نشر الآراء والمعتقدات.

بصورة عامة ودون أن يكون على المرء طرح الكثير من الاستثناءات، فإن المعتقدات الدينية والسياسية تنتشر على الأخص عن طريق العدوى، و خاصة بين الجماهير. وهي تحدث بقوة أكبر

كلما كان الجمهور أكثر عددا. والاعتقاد الضعيف سيعزز اجتماع الأشخاص الذين يتشاركونه من قوته بسرعة كبيرة جدا.

بفضل قدرة العدوى تغدو القيمة العقلانية للمعتقد المنتشر دون أهمية. ولأن العدوى تمارس تأثيرها على اللاوعي فإن العقل لا يلعب فيها أي دور. وتنتقل العدوى غالبا من الجمهور إلى من هم في مرتبه أعلى منه ؛ فلا يجب أن نندهش إذن إذا كانت المعتقدات الأكثر خطراً والأكثر ضرراً تجد من يدافعون عنها من بين الناس المتنورين. كثيرة هي الأمثلة الشبيهة بمثال مقدم العرائض في مجلس الدولة الذي كان يدافع عن إضراب الموظفين حين كان إضراب عمال البريد يهدد فرنسا بالكارثة.

عن طريق العدوى يؤول الأمر في نهاية المطاف دائما ببرجوازيين ومثقفين ومدرسين الخ... إلى الوقوع بدرجة ما تحت تأثير الآراء الشعبية. يمكن للعدوى الذهنية إذن استعباد كل العقول، وكما العدوى بالميكروبات، فإنها لا توفر إلا بعض أصحاب البنية الشديدة المقاومة وهم قليلو العدد.

دائما ما كانت الحركات الدينية الكبرى في التاريخ نتيجة للعدوى الذهنية. ولم يكن تأثيرها كبيرا قط إلا في عصرنا وذلك بداية، بسبب أن السلطة أخذت، مع انتشار الأفكار الديموقراطية، تقع أكثر فأكثر بين أيدي الجماهير، ثمّ لأن الانتشار السريع لوسائل الاتصال يسمح للحركات الشعبية بالانتشار بصورة فورية تقريبا، ونحن نعرف بأية سرعة انتشرت إضرابات عمال البريد والسكك الحديدية والثورات في روسيا وتركيا والبرتغال.

تغدو الحكومات الموهنة عاجزة عن مقاومة العدوى، ليس فقط لأنها اعتادت الاستسلام لجميع الأوامر الشعبية بل أيضا لأن هذه الأوامر سرعان ما تدعمها في الحال فرق من المثقفين تقودها العدوى الذهنية، بعد أن عززت دوافع مصالحها، إلى اعتبار أشد المطالب ظلما عادلة ومحقة. وتصبح النزوات الشاذة للحشود في نظرهم معطيات جديرة بالاحترام كما كانت في نظر أنصار الملكية المطلقة في السابق إرادة سيدهم صاحب العرش.

لا تُدمّر الأفكار المنتشرة بالعدوى إلا بواسطة أراء منتشرة بالطريقة ذاتها. وهذه القاعدة من علم النفس إذا ما طبقها بعض رجال السياسة ربما تتيح لهم، بفضل الوسائل التي يتصرفون بها، مقارعة العدوى بالعدوى.

هذه النقطة الأخيرة قد تحرفنا قليلا عن موضوعنا لذا لن نلحّ عليها أكثر هنا. وإذا كان هذا الفصل قد فُهم جيدا فإن القارئ بات يمتلك أحد المفاتيح الرئيسة لآلية انتشار الآراء والمعتقدات، أي للعوامل الجوهرية في التاريخ.

الفصل الثالث

الدُرجة (الموضة)

1 ـ تأثير الدرجة في كافة عناصر الحياة الاجتماعية

تخلق تغيرات الحساسية تحت تحولات الوسط والحاجات والاهتمامات الخ.... روحا عامة تتبدل من جيل إلى آخر لا بل عدة مرات في مدى الجيل الواحد. هذه الروح العامة التي سرعان ما تتسع بفعل العدوى الذهنية تعيّن ما نسميه الدرجة (الموضة). إنها عامل فعّال في نشر غالبية عناصر الحياة الاجتماعية، وغالبية آرائنا ومعتقداتنا.

ليس اللباس وحده خاضع لإرادتها. بل المسرح والأدب والسياسة والفنون وحتى الأفكار العلمية تخضع لها ولذلك تمتلك بعض النتاجات الأدبية أساسا من التشابه يسمح بالتحدث عن أسلوب عصر ما.

بسبب فعلها اللاواعي يقع المرء تحت تأثيرها دون أن يلحظ ذلك.. ولم تفلت من حبائلها قط العقول الأكثر استقلالية، وهم نادرون جدا الفنانون والكتّاب الذين جرؤوا على إبداع عمل ما يبعد جدا عن الأفكار الدارجة.

ويبلغ تأثير الموضة من القوة حدٌّ أنها تجبرنا أحيانا على الإعجاب بأشياء لا أهمية لها بل ستبدو بعد عدة سنوات في منتهى البشاعة. إن ما يثير إعجابنا في عمل فني ما نادرا ما يكون العمل في حدٍّ ذاته بل الفكرة التي يكونها الآخرون عنه ولذلك فإن قيمته التجارية تتعرض لتغيرات كثيرة.

وغالبا ما نرى الدرجة تفرض أشياء لامعقولة وتتمظهر في أشياء على قدر كبير من العبثية وفوق ذلك مثيرة للوهم على غرار خلق لغة جديدة وإصلاح الكتابة الخ...

حينما ظهرت لغة الفولابيك **Volapük** (لغة اصطلاحية م. ع.) حوالي عام 1880، خلقت لها الموضة نجاحا بحيث إنّه في غضون عشرة أعوام كان يوجد 280 ناديا لها، و 25 صحيفة تُكتب بها. وفي باريس وحدها كان هناك 14 معهداً لتعليمها ونظمت المخازن الكبرى دورات لتعليمها لموظفيها. ثم تغيرت الموضة وبطريقة مفاجئة جدا بحيث أننا يمكن ألا نجد شخصا واحدا يعرفها، وجرى استبدالها بلغة الإيسبيرانتو **Esperanto** التي أخذت، بعد أن عرفت نجاحا مماثلا، تخلي المكان للغة جديدة هي: الأيدو **Ido**. هذه الإبداعات سوف تستمر دون شك حتى اليوم الذي سيُكتشف فيه أن إنشاء لغة ما هو عمل جماعي بطيء جدا وليس ارتجالا شخصيا.

ولأن تغيرات الموضة تمارس تأثيرها على جميع المواضيع و لأن حساسيتنا تتغير باستمرار تحت تأثيرات مختلفة فيمكن القول إن طريقة تفكيرنا وخاصة ترجمة انطباعاتنا تتغير بسرعة. وثمة بون شاسع على سبيل المثال بين كتّاب وفناني عام 1830 وبين كتّاب

وفناني الوقت الحالي. وقد وصفت مقالة نُشرت مؤخرا في صحيفة لغولوا **Gaulois** بصورة دقيقة أحد مظاهر هذه التغيرات المألوفة. يقول الكاتب:

" من المبهج أن يتكون جمهور جديد، و يكون مثيرا للفضول تتبعه في أذواقه وفي تجلياتها والتي لم تعد تكتفي لا بالروايات الخيالية المحض، ولا بكتب التعميم التاريخية، ولا بالقصص الخيالية الحاذقة نوعا ما الممزوجة بالمغامرات والفرضيات. إن ما يلزم لهذا الجمهور الجديد الواقعية والدقة كما يلزمه المثل الأعلى أيضا. ولو رسمت حدوده لقلت إنها تمتد من أولئك الذين يقرؤون قصائد موريس ميترلينك المزودة بالمستندات، إلى أولئك الذين يدرسون أو يستعرضون أعمال غوستاف لوبون الغريبة جدا، الخ... إننا نجد هنا ميلا واضحا نحو الأبحاث الأصلية، و نحو جمع وتركيب المعارف التي راكمها القرن الأخير. ونميز داخلها خفق روحانية – جديدة حديثة جدا، وهي محاولة للهروب خارج المادية وحتى خارج الحتمية.

وما لم يسبق لأحد تخيله على الإطلاق قبل عشرين عاما هو أن تبلغ طبعات كتب عويصة جدا حول قيمة العلم ونشوء العالم عشراً واثنتي عشرة طبعة في وقت قصير؛ الأمر الذي يفترض انتقال شرائح اجتماعية جديدة إلى القراءة مهووسة بحب الاطلاع والفلسفة. ولا يدور الحديث هنا عن كتب إرشادية بل يدور الحديث عن مجلدات كثيفة تقتضي جهدا معمقا

وبدء ثقافة عامة. لقد أصبح كلٌّ منا عبر الصحافة، والمخالطة و الوسط المحيط و انتشار الأفكار، ودون أن ينتبه لذلك، موسوعيا صغيرا.

إن الدُرجة هي بالتأكيد ذات منبع عاطفي، لكنها غير خالصة من عناصر عقلانية ولكي نثبت ذلك، سوف نختار بالتحديد واحدا من المظاهر الأكثر تقلبا في الظاهر: الثياب النسائية. وسوف نرى أنَّ النزوات في هذا المجال محصورة بشدة.

2 ـ قواعد الدرجة

كيف تكون الدرجة خليطا من عناصر عاطفية وعناصر عقلية.

ربما يبدو غريبا الحديث عن قواعد لشيء دائب التحرك مثل الدُرجة، لكنه إذا كان يتضمن النزوة تعبيرا عن العناصر العاطفية فإن هذه النزوة تكون خاضعة لعناصر عقلية تقوم بتوجيهها. هذا الأصل المزدوج للدرجة هو أمر عام سواء تعلق الأمر بالأدب أم بالفن، أم بالهندسة أم بالأثاث أم بالثياب الخ.. إن تحولات أمر ما خاضع لهذا القدر من التقلب كالدّرجة ستجعل هذا الأصل المزدوج أكثر دلالة أيضا. فالعناصر العقلية الموجودة في الدّرجة محكومة بالضرورات الاقتصادية، والاكتشافات، والحاجات الجديدة، واهتمامات اللحظة، الخ....

ونلاحظ هذه التأثيرات خاصة في تغيرات الأزياء التي فرضها استعمال السيارة. فمع إيقاع الحياة المتسارع، توجب على المرأة أن

تترجل خارجيا للحاق بالرجل في سباقاته المثيرة للدوار فوق الطرق الكبيرة، فالثوب الضيق الذي كان مخصصا في البداية لبعض الرياضات قد عمّ ارتداؤه بكل ما فيه من ملائم ومريح. أما بالنسبة للفساتين الأخرى، فقد ضُيقت الأكمام العريضة للصدّار لكي تدخل بسهولة في السترة الخارجية (الجاكيت). لكن العين صدمها هذا الجذع المحشور على هذا النحو. ومن أجل إصلاح هذا العيب ولأن تغيرا ما يجرّ آخر وصل الأمر إلى تضييق التنانير بقصد جعل الكتفين أعرض من خلال تحيف القامة، وهذا التعديل قاد إلى إلغاء الجيوب ثم التنورة الداخلية. وقامت المرأة من خلال حاجتها للشعور بجو من الرغبة يحيط بها عززت هذه البساطة في اللباس بارتداء الثوب اللصيق جدا بجسمها. فأظهرت بذلك كل ما كان يمكن إظهاره وتركت للآخرين تخمين الباقي. وهكذا تركت التنانير التحتية والمخرمات والبياضات المكان لقميص داخلي يسمى "كومبينيزون" يقي من الغبار والبرد.

ولأنه عقلاني أيضا فإن هذا الزي الغريب جدا للوهلة الأولى سمح للمرأة في المدينة أن تلبس الحرير في الشتاء. وقد نتج ذلك عن التدفئة المركزية التي تحفظ درجة حرارة مرتفعة في الشقق كما أصبح ممكنا حتى في الخارج بفضل معاطف الفراء الطويلة.

ولأن الدرجة تنزل كما هو الأمر دائما من الطبقات الراقية إلى الطبقات الدنيا، فإن المرأة البرجوازية الصغيرة وقد باتت تستخدم سيارات الأجرة في تنقلاتها تبنت كل هذه التحولات. فأخذت تتدثر بمعطف من الفراء الرخيص وتحتها استطاعت بفضل المدافئ البطيئة الاحتراق أن ترتدي هي أيضا الفساتين الخفيفة.

لقد بينّا العناصر العقلية التي تدخل في نشوء الدّرجة. لننشر الآن إلى العناصر العاطفية. لنتذكر بادئ ذي بدء أن الدّرجة مثل اللغة والأديان هي إبداع جماعي وليس فرديا. لا أحد يستطيع إذن أن يفرضها. وعموما ثمة من يعتقدون مخطئين أن الخياطين والممثلات وعارضات الأزياء في أماكن التسوق هم من يخلقونها. وقد حاول بعض كبار الخياطين منذ بضعة أعوام إعادة تعميم قماش القرينول فلم ينجحوا بعض الشيء إلا مؤخرا في استخدامه في التنورة المسرولة.

إن المبدعين المزعومين للدرّجة لا يقومون في الواقع إلا بترجمة ميول أصبحت رغبة عامة، نتيجة لبعض الحاجات، وبعض الأفكار وبعض الاهتمامات الآنية.

من الواضح أن الأزياء تتغير جدا من فصل لآخر غير أن نزوات مبدعيها لا يمكنها التحرك إلا ضمن حدود ضيقة جدا. إن الدرّجة (الموضة) تعجب حينما تدهش لكن ما يدهش لا يلقى النجاح إلا بشرط ألا يبتعد كثيرا عن الموضة السابقة. إن مراحل التحول متتالية دوما والعين لا تتكيف إلا ببطء مع الأشياء الجديدة كما أنها تتعب كثيرا جدا من الأشياء التي تراها لزمن طويل.

تفسر الأسباب السابقة لماذا تأفل بسرعة درجة مبتكرة جدا. فقد كان يجب أن تفرض نفسها تدريجيا، فالفساتين الفضفاضة التي سادت قبل ثلاثين عاما لم تصبح أثواب اليوم اللصيقة بالجسم إلا ببطء شديد. إن الموضة شديدة السطوة على النساء لدرجة أنهن يتحملن من أجل إتباعها الإزعاجات الأشد قسوة مثل اضطرارهن

منذ بضعة أعوام لرفع طرف ثوب ينجر خلفهن بيد وباليد الأخرى حقيبة تضم كل محتويات الجيب القديمة؛وكذلك أيضا عذاب المشي الناتج عن ارتداء الفساتين الضيقة من الأسفل التي درجت منذ أشهر طويلة. وفي هذه النقطة تنضم النساء المتمدنات إلى النساء البدائيات اللواتي يتحملن عذاب إدخال حلقة معدنية في الأنف من باب إتباع الموضة. هذا الخضوع للدّرجة هو واحد من البراهين الحازمة على سطوة العدوى الذهنية.

إن المرأة الأكثر استقلالا، والأكثر حيوية، والأكثر حماسا في المطالبة بجميع الحقوق لن تجرؤ مطلقا على لبس ثوب قصير حينما تفرض الموضة لبس الثوب الطويل ولا على أن تضع جيبا لتنورتها حينما تمنع الموضة ذلك ولا أيضا على تزرير صدّارها من الأمام حينما تزرره الأخريات من الخلف. فالموضة لا تعرف ثائرات، والفقر المدقع وحده من يستطيع أن ينتزع منها بعض العبدات. إن أيا من أرباب الماضي لم يُعبد باحترام كما تُعبد الدّرجة.

الفصل الرابع

الصحف والكتب

1 ـ تأثير الكتب والصحف

تمارس الصحف والكتب دورا كبيرا ، وإن يكن أدنى من دور الخطابات، في نشر الآراء.

وتأثير الكتب أقلُّ بكثير من تأثير الصحف، وذلك لأن الجماهير قلما تقرأ الكتب. ومع ذلك فإن بعض الكتب كانت شديدة الفعالية في تأثيرها الإيحائي بحيث تسببت في موت الآلاف من البشر. مثل كتب جان جاك روسو التي كانت المرجع المقدس الحقيقي لقادة عهد الرعب **Terreur** وكذلك كتاب كوخ العم توم الذي ساهم كثيرا في إشعال حرب الانفصال **Sécession** في أمريكا.

بينما مارست كتب أخرى مثل روبنسون كروزو وروايات جيل فيرن تأثيرا كبيرا على آراء الشبيبة وقررت كثيرا من مسارات الحياة.

قوة الكتب هذه كانت بوجه خاص عظيمة الشأن حينما

كان يقرأ القليل منها. فقراءة التوراة في زمن كرمويل خلقت في انجلترا عددا كبيرا جدا من المتعصبين. ونعرف أنه في الوقت الذي كتبت فيه رواية دون كيشوت، كانت روايات الفروسية تمارس تأثيرا ضارا جدا على كل العقول بحيث انتهى الأمر بالملوك الأسبان إلى منع بيعها.

في وقتنا الراهن تأثير الصحف يفوق بكثير قوة الكتب. فلا يمكن إحصاء أعداد الأشخاص الذين لم يملكوا على الإطلاق أراء أخرى غير أراء صحيفتهم.

ويظهر إيحاء الصحف اليومية حتى في الكثير من الأحداث الكبرى المعاصرة. فقد بات معروفا بصورة عامة تقريبا الآن أن حرب الولايات المتحدة واسبانيا كانت من صنع بعض الصحفيين. ولو اشترى مصري في ثري على سبيل الفرض، وهو أمر لا يبدو مستحيل التحقق، كل الصحف في بلد ما، فإنه سيصبح سيده الحقيقي ويعلن الحرب أو السلام وفق إرادته. ونحن نرى أساسا أصحاب المال يشترون كامل نشرات البورصة التي تنشرها الصحف بهدف إطلاق الأعمال المكرسة لاجتذاب الاقتصاد جديا لمصلحتهم.

ولا تجهل أية حكومة هذه القوة الطاغية للصحافة، وكل سياسي يحلم بامتلاك صحيفة واسعة الانتشار. وقد استطاع مستشارو الإمبراطورية الألمانية جعل معظم مشاريعهم تحظى بالشعبية بفضل الصحف التي يمتلكونها والمكرسة لإيحاء الرأي.

إن سرعة تصديق القرّاء لمزاعم الصحيفة التي يقرؤونها سرعة خارقة. وكل إعلان مخالف يجد جمهورا يصدقه. والخدع ذاتها يمكن أن تتكرر إلى ما لانهاية محققة النجاح ذاته ما دام مستقرا في الكثير من النفوس إيمان داخلي بتحقق ما لا أمل بتحققه. منذ

بعض الوقت، تمّ توقيف نصّاب كان يعرض عبر إعلاناته تقديم قروض مالية دون ضمانات لكل من يرغب في ذلك. ومن الواضح أن الالتزام بتنفيذ مثل هذا الوعد كان سيجّر لصاحبه إفلاسا سريعا. ومع ذلك وخلال بضعة أشهر كسب بسبب دفعات التكاليف البسيطة المطلوبة لإنجاز المعاملة أكثر من خمسين ألف فرنكا دون أن يقرض سنتيماً واحدا بالطبع. إن مثل هذه الواقعة لن يكون فيها أي شيء مثير للاهتمام لو لم تكشف تحقيقات قاضي التحقيق عن أن من بين المخدوعين عددا من الأشخاص الذين كان تعليمهم الرفيع أو المهن التي يمارسونها سيجعلهم في منأى عن مثل هذا التصديق. فقد كان من بينهم في الواقع: جباة، وضباط من ذوي الرتب العالية وضباط شرطة ومحامون وكتّاب عدل، وقضاة صلح، ومستشارو محافظة وحتى قاضي تحقيق ! لا شيء أكثر من هذا يبرهن على القوة الإيحائية للصحف.

2 ـ الإقناع عبر الدعاية

لكي نقدر بدقة كبيرة وباستخدام أمثلة ملموسة لتأثير الصحف الضخم في نشوء الآراء، لن يكون دون فائدة الدخول في بعض التفاصيل المتعلقة بصناعة الإعلانات. وهذه الدراسة التي تكاد تبدأ بإغراء علماء النفس، توّضح بعض الطرق الأكيدة للتأثير على الرأي. وسوف نجد فيها فوق ذلك العوامل الكبرى التي جرى وصفها سابقا في هذا الكتاب.

إن الدعاية، تحت صيغة الإعلانات، هي واحدة من وسائل الإقناع الجماعي الرئيسة في العصر الحديث. ودورها في المبيعات

التجارية يوضح الآلية التي تحفز رأي المشتري. إن الأمريكيين وقد نجحوا في استخلاص بعض من القواعد النفسية للدعاية، أصبحوا أساتذة في هذه العلم. وتقدّر الأرباح التي تجنيها الصحف الكبرى في الولايات المتحدة من الإعلانات بمبلغ خمس مئة مليون في العام. وتحصل واحدة من أكثرها انتشارا على مبلغ خمسة عشر مليوناً في السنة. وينفق الصّانعون الأمريكيون الكثير من الأموال على الإعلانات لأنهم تأكدوا تجريبيا من تأثيرها. ويورد السيد آرن، مؤلف أحد الكتب حول هذا الموضوع، أن تاجرا بسيطا لأقلام الحبر يصرف سنويا 500.000 فرنكاً من أجل الدعاية، ويؤكد أن منتجاً لنوع من الصابون ضحى خلال أربعين عاما بستين مليونا من الفرنكات من أجل الإعلانات.

كل هذه المصاريف غايتها بالطبع أن تخلق عند الزبون قناعة قادرة على تحويله إلى مشترٍ. إن التأكيد والتكرار هما العاملان الرئيسان في تكوين هذه القناعة. التأكيد وحده لا يكفي، ولهذا فإن ماركة جديدة لا يتمّ تبنيها إلا بعد مرور زمن معين. فالإعلان يجب أن يتكرر غالبا، وعندئذ فقط فإن اسم المُنتَج سيحضر تلقائيا إلى الذهن، حين تبرز الحاجة إليه. من الضروري أيضا تغيير شكل الإعلان وإلا فإن فعله قد يتلاشى بسبب الألفة. فقد غدت الإعلانات الضوئية، التي كانت شديدة الفعالية في البداية، دون نتيجة. التكرار البسيط لعبارة قصيرة لا يكون مفيدا إلا بالنسبة لمُنتَج بات معروفا. وهو يعمل عندئذ بوصفه نوعا من الهُجاس، أما بالنسبة لمُنتَج جديد فإنه سيكون من الضروري تعداد كافة مواصفاته.

وإذا ما تعلّق الأمر بابتكار جديد تماما قد يجبر الناس على تغيير عاداتهم فإن التكرار وحده للإعلان يصبح بحد ذاته غير كاف، لأن آلية عمل التكرار أقل فاعلية من آلية عمل العادة. فسيكون من المفيد توزيع عيّنات مجانية من المُنتَج، وهذه هي حال الدعاية الطبية التي تتمّ خاصة عبر إرسال عيّنات مجانية إلى الأطباء.

تندرج في طريقة المشاهدة المباشرة للمُنتَج معارض المخازن وتعاون عارضات الأزياء اللواتي يُرسلهن كبار مصممي الأزياء إلى أماكن التسوق، مرتديات أثمن وأجمل موديلات الموسم.

أظهرت قصة استخدام العجلات الهوائية في السيارات بوضوح كاف صعوبة النضال ضد العادة التي تحارب التأثير النفسي للإعلان. فبعد أن رفض مؤجرو السيارات شراء هذه العجلات قام مبتكرها بتوزيع عدد منها مجانا على شركة صغيرة. كان النجاح سريعا جدا لدرجة ليس فقط أن هذه الشركة أثرت بسرعة بل أنه أمام مطالبات زبنهم اضطُرت كل الشركات الأخرى لتزويد سياراتها بالعجلات المطاطية التي طالما ازدروها في البداية، وبأسعار باهظة.

إن حلم صانعو الإعلان يتمثل في أن يتمكنوا من جعل الزبن يحفظون اسمهم وعنوانهم. وللوصول إلى ذلك يقومون بطبعهما فوق أشياء كثيرة الاستخدام: الورق النشّاف، علب الثقاب، أغلفة الكتب، والصحف، والمجلات الخ.... ويعتبر الأمريكيون أن واحدة من الوسائل الأفضل للحصول على هذه النتيجة تقوم على أن يرسلوا إلى المشترين المحتملين كاتالوجات مشغولة بشكل فني لا بل تحوي بعض الأحيان رواية موقعة من مؤلف معروف، وهذه الطريقة ممتازة لكنها مكلفة وبدأ بالكاد استخدامها في فرنسا.

وإحدى القواعد الثابتة في الدعاية تقول إن أي مُنتَج مهما يكن قديما ومهما يكن معروفا سوف يبدأ بيعه بالتدهور منذ أن تتوقف الدعاية المتعلقة به. فضعف الذاكرة الانتخابية **élective**، الذي أشرنا إليه سابقا في هذا الكتاب، هو دون شك السبب في ذلك. وتلعب الرسوم دورا كبيرا في الدعاية، وقد تحدثنا سابقا في هذا الكتاب، عن الأثر الذي تركته الملصقات المصورة أثناء الانتخابات الانجليزية الأخيرة وفي تجنيد بعض المتطوعين في سلاح الفرسان.

إن منهج المقارنة بالصور يعطي مردودا أفضل أيضا، فإذا تعلق الأمر على سبيل المثال بسائل يزعم إعادة إنبات الشعر فليُعرض الزبون في صورة أولى وهو أصلع وفي صورة أخرى مكتسيا شعرا غزيرا بعد استخدامه لهذا المُنتَج.

إن المولين مطلقي المشاريع يستخدمون هذه الطرق نفسها من الدعاية التي يستخدمها الصناعيون، لكن غالبا على صعيد أوسع بالتأكيد. وأحيانا يجري حتى شراء احتفاء مجمل الصحف بهم، أما بالنسبة للعدد الصغير من الصحف التي يستحيل شراء مديحها يجري تأمين صمتها على الأقل. هذه العملية المزدوجة تمت ممارستها دائما من أجل ترويج القروض الروسية العديدة.

إذا استخلصنا من الملاحظات السابقة العناصر النفسية التي تحددها سنجد أنها تنتسب إلى العوامل التي درسناها سابقا على أنها اللاعب الأساسي في تكوين الآراء: التأكيد، التكرار، الهيبة الإيحاء والعدوى. إن التفاصيل التي دخلنا فيها حول علم الإعلان يمكن أن تبدو نوعا ما خاصة. فهي تحتوي في الواقع على المقومات الرئيسة لفن الإقناع العظيم هذا، الذي تُشتق منه السيطرة على الأفراد والشعوب وتأسيس المعتقدات.

الفصل الخامس

تيّارات الآراء وظهورها الفجائي

1 ـ تيّارات الآراء وخلقها

توجد في لحظات معينة لدى كل مجموعة اجتماعية عدا عن الآراء الخاصة ميول عامة، مشتركة لدى غالبية المجموعة، تثيرها الكتب والصحف والخطابات والتعليم الخ.... تكوّن ما ندعوه بتيّارات الآراء.

وهي لا تظهر بقوة إلا في الحالات الاستثنائية وتصبح عندئذ شديدة البأس. وهذه التيّارات التي نادرا ما تدعمها العوامل العقلية، تكون بصورة دائمة تقريبا ذات منشأ عاطفي أو ديني. فهي تولد وتنتشر بفعل التأثيرات ذاتها: إيحاء ناتج عن انطباع قوي أو عن تراكم سريع لانطباعات بسيطة تليها العدوى الذهنية.

وبمقدار ما تتفكك دعامات الماضي وبالتالي استقرارنا الذهني المتوارث تشتد قوة تيّارات الآراء كل يوم. وقد واجهنا الكثير منها طوال قرن: البونابرتية، البولانجية، الدريفوسية، القومية والكثير غيرها.

وتلزم غالبا أحداث عظيمة لكي تطلقها: فمعركة يينا Iéna عند الألمان، وحرب 1870 عند الفرنسيين، كانتا ضروريتين من أجل خلق تيارات من الآراء قادرة على فرض الخدمة العسكرية الإلزامية الشاملة. كما أن تيّارا مشابها نتج عن النجاحات البحرية الباهرة سمح وحده للحكومة اليابانية بأن تزيد لأكثر من مليار فرنك في العام نفقاتها على أسطولها الحربي.

إن رجل الدولة المتفوق هو من يعرف كيف يخلق ويوجّه تيّارات الآراء الضرورية أما رجل الدولة الضعيف فإنه يكتفي باللحاق بها.

إن عتاة الطغاة لم يكونوا قادرين بما يكفي على مواجهة تيّارات الآراء طويلا. ويلاحظ جوفينال أن دوميسيان استطاع بلا عقاب أن يهلك أشخاصا مرموقين، لكنه " هلك حينما بدأ الإسكافيون يخافون منه ".

وكان نابليون ذاته يهاب تيارات الآراء. فقد كتب في جزيرة سانت هيلانة: " الرأي العام هو قوة لا تُقهر، غامضة، لا يقف في وجهها شيء؛ ولا شيء أكثر تحركا منه، وأكثر غموضا وأكثر قوة ؛ومع أنه متقلب جدا فإنه مع ذلك صحيح وأكثر مما نظن في أغلب الأحيان. "

وقد بذل عظماء رجال الدولة دوما الكثير من الاهتمام لخلق تيارات الآراء أو لحرفها. فقد صرف بسمارك سنوات طويلة من أجل تشكيل الحركة الشعبية القادرة على التحضير للحرب التي كان لابد أن تقود إلى الوحدة الألمانية، إذ أن وحدة اللغة لم تكن كافية لإقامتها. وقد أشرت سابقا في مكان آخر أنه من خلال عمل دؤوب

على الرأي عبر الصحف [1]، والنشرات والخطب استطاع رجال الدولة الألمان توجيهه لقبول التضحيات الجسام التي يقتضيها إنشاء أسطول حربي كبير. إن الإصلاحات الانكليزية الرئيسة منذ قرن مثل حرية التجارة تمَّ تحقيقها عبر إطلاق تيارات آراء عديدة.

من بين العوامل المولّدة لهذه التيارات ينبغي خصوصا ذكر الصحف اليومية، الملصقات، الخطب، الندوات، والمؤتمرات. وكانت مثل هذه الوسائل هي من ساهم في انتشار الاشتراكية في فرنسا وألمانيا. وهي تفعل فعلها خاصة حينما تجد سندا لها في الحاجات الجديدة، والعواطف الجديدة والطموحات الجديدة.

وليست تيارات الآراء السياسية الأكثر أهمية من غيرها بسبب تداعياتها على الأحداث، هي الوحيدة التي يجب أخذها بعين الاعتبار.

فحركات الآراء تحدد فكر عصر ما. إذ تتأثر بها الفنون والأدب وحتى العلوم. وفي أساس هذه الحركات نجد بصفة ثابتة جاذبية بعض النظريات وبعض الأشخاص، ثم ذاك العنصر الجوهري في انتشار المعتقدات الذي ينبغي دوما الرجوع إليه: العدوى الذهنية.

ويساهم الكتّاب والمفكرون والفلاسفة و أيضا السياسيون لسوء الحظ، يساهمون كلهم، كل في ميدانه، في خلق تيارات الآراء التي توجّه حضارة عصر ما. ويعود دور مبدع الحركات الفكرية وموجهها إلى رجال الدولة في كل المسائل المتعلقة بالحياة

---

[1] يرصد مكتب العلاقات الخارجية الألمانية ميزانية سنوية تبلغ 1,300,000 فرنكا للتأثير على كبريات الصحف الأوروبية.

الخارجية لبلد ما. ومهمتهم هذه صعبة للغاية. إذ ينبغي أن يمتلكوا في الواقع ذهنية بالغة التطور بحيث يمكنها أن تسترشد بالمنطق العقلي وفي الوقت ذاته أن تؤثر على الناس باستخدام مؤثرات عاطفية ودينية بعيدة عن العقل، لكنها وحدها المؤهلة لجذبهم.

هذه العناصر الأخلاقية الكبرى التي ينبغي معرفة التلاعب بها ستظل لزمن طويل أيضا أقوى العناصر القادرة على قيادة الشعوب. إنها لا تخلق السفن والمدافع لكنها وكما قال الأميرال توغو Togo: " روح السفن والمدافع ".

تتغير المؤثرات اللاعقلانية المثيرة لحركات الرأي باستمرار، تبعا للوضوح المتبدل الذي يحيط بالأشياء. وينبغي تعلم توقعها إذا ما أريد السيطرة عليها مع عدم نسيان أن أي رأي مقبول من الجميع سوف يُعتبر دائما حقيقة مطلقة من قبل الجمهور.

2 ـ تفجّر الآراء

تفجّر الآراء يعني توجّها فجائيا وعنيفا للانفعالات نحو ذات الوجهة. ونادرا ما تقود حوادث متباعدة ممتدة على مدة زمنية طويلة إلى مثل هذه التفجّرات. ويلزم لكي تقع تأثير الأحداث المثيرة المفاجئة، أو تأثير بعض الكلمات، يطلقها أشخاص مؤثرون، تكون قادرة على إثارة مجموعات كاملة من العواطف.

أبطال التاريخ الكبار مثل بطرس الناسك، وجان دارك، ومحمد (ص)، ولوثر، ونابليون الخ.... لم يكونوا المحفزين الوحيدين لهذه التفجرات التي زعزع بعضها أركان العالم. وعلى

صعيد أدنى نرى مثل ذلك يحدث يوميا: كإعدام فيرّي **Ferrer** الذي أثار باريس على سبيل المثال، أو حدوث أمر غير متوقع مثل عبور بحر المانش لأول مرة من قبل أحد الطيارين، الحادثة التي أدهشت بقوة أوروبا بكاملها.

تتأثر المجالس السياسية بانفجار الآراء. فقد كتب إيميل أوليفييه **Emile Ollivier**: " لا يمكن لأحد لم يجلس في المجالس البرلمانية أن يفهم هذه التحركات المفاجئة التي تزحزح الأغلبية أيام الأزمة فتجعلها تستبعد الرأي الذي بدا أنها تبنته بشغف لتتبنى رأيا مخالفا له تماما: فما المجالس كلها إلا شعب من الشعوب. "

وقد ذكرت سابقا كيف أن بسمارك بحذفه بعض الكلمات من برقية إيمس**Ems** المشهورة أثار في فرنسا انفجارا في الرأي قاد إلى الحرب.. كما بينت أيضا كيف أن انفجارا مفاجئا في الرأي أسقط حكومة كليمانصو.

إن انفجار الرأي يمكن أن يقتصر على زمرة اجتماعية معينة لكن لن يكون له أي تأثير إلا إذا كانت هذه الزمرة قوية جدا. ونذكر ثورة جزء من الشامبان الأخيرة التي أدت إلى حرق عدد من منازل كبار صانعي الخمور الذين أخذ عليهم منتجو الكرمة شراء مواد صناعتهم من أماكن بعيدة، وقد أمكن حدوثها فقط لأن الثائرين كانوا يشعرون بقوة عددهم ويعرفون ضعف الحكومة.

إن غالبية الثورات الحديثة انطلقت على شكل انفجار في الرأي. ودون أن نتحدث عن ثورة 4 أيلول، وهي ظاهرة تُفسّر بأخبار الكوارث التي حلت بنا، فثمة ثورات غيرها مثل إسقاط الملكية في البرتغال، واضطرابات برلين وعصيان برشلونة، والثورة التركية

الخ.... انطلقت فجأة بفعل تأثيرات خفيفة جدا. ومما لاشك فيه أن ثمة أسباباً عميقة أحيانا تهيئ لوقوعها لكن الشرارة التي تشعلها وتثير حريقا سريع الانتشار كانت دون أسباب مباشرة هامة.

وهذا الطابع المفاجئ لكل الثورات الشعبية يثير الدهشة. إذ تنخرط فيها الغالبية الساحقة من الجماهير مدفوعة بالعدوى الذهنية دون أن تمتلك أية فكرة عن الأسباب التي جعلتها تثور. إن تاريخ الكثير من الثورات يمكن أن يُكتب في صفحة واحدة، هي ذاتها دائما. ويكمن تلخيصها في القصة الموجزة لثورة 1830 التي تلت أوامر شارل العاشر، كما رواها السيد جورج كين **Cain**:

" انفجار الغضب الذي أثار باريس كان رهيبا ومفاجئا. ففي بضع ساعات، ارتفعت المتاريس، وتشكلت مجموعات المحتجين المسلحة، وقرعت الطبول لتجمع الحرس الوطني، ونزل العمال والطلاب إلى الشوارع، وكسّر طلاب مدرسة البوليتكنيك الأبواب وتسلموا قيادة المجموعات الثائرة؛ وتحول كل باريسي إلى مناضل. وأخذ الجميع يقاتلون هاتفين: " يسقط شارل العاشر !يسقط بولينياك ! تسقط الأوامر ! يعيش الميثاق ! " وكان كل المقاتلين تقريبا يجهلون تماما، في الأساس، ما الذي كان يتضمنه الميثاق وما الذي كانت تتضمنه الأوامر ! "

وسوف نلاحظ أن التحركات الثورية تنتشر بسرعة عن طريق العدوى، بعيدا عن الطبقات التي يمكن أن تكون معنية بها. فمن الواضح أن بحّارة الدارعات الذين انتفضوا أثناء الثورة الروسية، على سبيل المثال، لم يفعلوا ذالك إلا بالعدوى. فهم لم يكن يعنيهم

بتاتا في الواقع أن يكون لروسيا برلمان أو أن يمتلك الفلاحون الحق بشراء الأراضي.

ثمة خاصية لكل الثورات إذن تتمثل في انتشارها بسرعة لتشمل طبقات لا مصلحة لها فيها وغالبا ما تكون الخاسرة فيها. فالبرجوازيون الذين تحولوا إلى ثوريين اشتراكيين عن طريق العدوى فقط كانوا سيمنون بخسارة عظيمة لو أن الحركة التي كانوا رسلها قد أتت أكلها.

انفجار الآراء الشعبية هذا، الخطير جدا لأن لا سلطة للعقل عليه، يكون قصير الأمد لحسن الحظ. والتصدي له مواجهة لا يؤدي إلا إلى استعاره. وكان من بين العوامل المختلفة لانفجار الرعب الذي سببته قضية دريفيس، والعامل الأشد فاعلية هو إصرار القيادة العليا للجيش على تحدي الرأي العام بإنكارها صحة بعض الوثائق. إنه خطأ قضائي بسيط ما كان ليحدث أثرا أكثر مما كان سيحدثه غيره من الأخطاء المرتكبة يوميا، ولكان كفّ الحديث عنه سريعا.

إلى جانب أحداث شهيرة جدا كالتي أشرت إليها، نلاحظ بسهولة في الحياة اليومية حشدا من انفجارات الرأي الصغيرة، وهي دون أهمية كبيرة لأنها تتعلق بحوادث صغيرة، لكن آلية انتشارها هي ذاتها دائما. ويكفي لإشعالها إيجاد بعض الكلمات القادرة على إطلاق مجموعة من المشاعر. وقد قمت أنا نفسي بتجربة ذلك في ظرف بسيط جدا لكنه أنموذجي مع ذلك.

لأسباب اقتصادية قررت إدارة الأملاك العامة وفقا لحقها الصريح أن تعرض للبيع قطعة من حديقة سان – كلو المسجلة إداريا

تحت اسم غابة ڤيلنوف - ليطان. إنه لكارثة كبرى بالنسبة لسكان الضاحية الذين كانوا يتنزهون فيها كل يوم، فما العمل لمنع هذا البيع؟

كانت الإعلانات الرسمية المعلنة عن هذا البيع ملصقة على الجدران بيد أن الجمهور الذي كان يجهل الاسم الإداري لهذه القطعة من الحديقة لم يتحرك مطلقا.

كنت أعرف في تلك الفترة مقرري لجنة الموازنة فحاولت إثارة اهتمامهم بالمسألة، فأسمعوني كلاما جميلا، لكن الاهتمام بالناخبين كان يقتضي منهم الكثير من الخطوات بحيث لم يترك لهم الوقت للانشغال بمسائل المصلحة العامة. كانت الأيام تمرّ ولم يبق إلا أسبوع واحد لموعد البيع، وكنت قد علمت أن المشتري الوحيد الجاد كان يهوديا ألمانيا، فنشرت في صحيفة كبرى مقالة صغيرة بعنوان: " بيع حديقة سان – كلو للألمان ". فحدث انفجار رهيب! إذ تدافعت أرتال من المراسلين الصحفيين إلى مبنى البلدية ونشرت الصحف مقالات نارية. وبعد استدعاء الوزير الذي كان يجهل تفاصيل الموضوع واستجوابه بعنف في البرلمان، أعلن تخليه عن البيع حاضرا ومستقبلا. كانت ثلاث كلمات كافية للوصول إلى هذه النتيجة، فقد كانت تشكل جزءا من هذه الصيغ الموحية القادرة على توجيه المشاعر الفردية في اتجاه واحد وتحويلها إلى إرادة جماعية بالإجماع.

الكتاب الثامن

حياة المعتقدات

الفصل الأول: صفات المعتقد الأساسية

الفصل الثاني: اليقين الناشئ عن المعتقدات. طبيعة الأدلة التي يكتفي بها المؤمنون

الفصل الثالث: الدور المسند لكل من العقل والإرادة في نشوء الاعتقاد

الفصل الرابع: كيف تصمد المعتقدات وكيف تتحول

الفصل الخامس: كيف تموت المعتقدات

الفصل الأول

صفات المعتقد الأساسية

1 ـ الاعتقاد بوصفه حاجة ذهنية لا تقهر

في الفصل الأول من هذا الكتاب، عرّفنا الاعتقاد، وبيّنا أنه مجرد فعل إيماني، وفسرنا بماذا يختلف عن المعرفة ولخصنا بإيجاز دوره. هذه الإشارات التي كانت الغاية منها تحديد طبيعة المسائل المتعين حلّها تركزت في تفحص الأشكال المختلفة للمنطق ولعناصر آرائنا. سنقوم الآن بإكمالها عبر دراسة حياة المعتقدات.

ترتبط العناصر المكونة لوجودنا كما نعرف بثلاث مجموعات: حياة عضوية، حياة عاطفية، حياة عقلية. وتنتمي الحاجة إلى الإيمان إلى الحياة العاطفية، وهي لا تُقهر كما هما الجوع والحب، وهي غالبا شديدة السطوة. وبما أنها تشكل حاجة لا تُقهر لطبيعتنا العاطفية فإن الاعتقاد لا يمكنه كما أية عاطفة أخرى أن يكون إراديا وعقلانيا. فالعقل لا يبدعه ولا يسيّره.

أيا يكن العرق والزمن المأخوذ بالاعتبار ودرجة الجهل أو الثقافة فقد أظهر الإنسان دائما التعطش ذاته للإيمان. ويبدو الاعتقاد غذاء نفسيا، ضروريا جدا لحياة الروح كضرورة الأغذية

المادية للحفاظ على الجسم، ويستوي في عدم الاستغناء عنه المتحضر والهمجي.

وما شكّ ديكارت الشامل إلا خيال عقلي، فقد يمرّ الإنسان أحيانا بمرحلة من الشك لكنه لا يظل عندها طويلا. صحيح أن الفيلسوف لا يؤمن بالأشياء ذاتها التي يؤمن بها الجاهل لكنه يقبل أشياء غير مبرهنة بما يكفي.

وقد حددنا بوضوح منذ بداية هذا الكتاب الفرق بين الإيمان والمعرفة. ورأينا أن الأول هو فعل إيماني، يُعدّ في اللاوعي ولا يستلزم أي برهان، في حين أن المعرفة تمثل إبداع الحياة الواعية وتقوم على التجربة والملاحظة. إن المعرفة تثقف وما من حضارة دونها بيد أن الإيمان هو على وجه الخصوص من يدفع للحركة. ولو كان يجب انتظار المعرفة قبل التحرك، لدام الكسل طويلا.

ظلّت المعتقدات طوال قرون عديدة، الأدلاّء الوحيدين للإنسانية. فقد وفرت هذه المعتقدات لها، إلى جانب التفسيرات السهلة لكل المسائل، دليل سلوك يومي. وسواء كانت مؤقتة أو عابرة فقد شكلت المعتقدات دوما الدوافع الكبرى للفعل البشري.

ولا تشكل المعتقدات الدينية إلا جزءا منها. فالحاجة إلى الإيمان لم تولّدها الأديان على الإطلاق، بل وبالعكس من ذلك فهي مَنْ أنتجت الأديان. ولم تقم الآلهة إلا بتوفير الموضوع لرغبتنا في الاعتقاد. وما أن يحيد الإنسان عنها حتى يندفع في أيّما إيمان: أوهام سياسية، أعمال سحر أو عبادة أصنام.

2ـ تعصب المعتقدات

التعصب هو إحدى السمات العامة الأكثر ثباتا للمعتقدات. ويكون هذا التعصب أكثر تصلبا كلما كان الاعتقاد أكثر حدة. فالأشخاص المحكومون بيقين ما لا يستطيعون التسامح مع من لا يقبلونه. إن الإيمان الذي توطد على مرّ الأجيال، لا يزال يُمارس حتى اليوم. ونعرف إلى أية درجة من العنف الديني يمكن أن يصل المتدينون: الملحدون منهم والورعون. الحروب الدينية، محاكم التفتيش. مذبحة سان- بارتلمي، نقض منشور نانت، عهد الإرهاب، الإعدامات الحالية لرجال الدين الخ.... ليست إلا بعض الأمثلة على ما نقول.

أما الاستثناءات النادرة لهذا القانون فإنها تُفسّر بسهولة. فإذا كان الرومان قد قبلوا آلهة كل الشعوب الغربية فذلك لأنها كانت تشكل بالنسبة لهم، تراتبية ما بين الكائنات القوية التي ينبغي على المرء محاولة مصالحتها عبر عبادتها.

أما البوذية المنتصرة، وعلى الرغم من قيامها على أسس مختلفة، فإنها لم تكن أكثر اضطهادا. فهي إذ تعلم اللامبالاة بالرغبة وتعتبر الأرباب والكائنات مجرد أوهام باطلة دون أهمية، فإنها لم تكن تملك من الأسباب ما يدعوها لأن تكون غير متسامحة. هذه الاستثناءات تفسر نفسها بنفسها إذن ولا تناقض مطلقا القاعدة العامة القائلة بأن كل إيمان هو بالضرورة متعصب.

المعتقدات السياسية هي في الحدِّ الأدنى تضاهي المعتقدات الدينية في هذا الأمر،. فنحن نعرف بأية حمية قام رجال الجمعية التأسيسية من جماعات هيبير أو دانتون أو روبسبيير الخ.. الذين

تقتنع كل جماعة منهم بأنها وحدها من تمتلك الحقيقة الخالصة، قاموا بإبادة الخصوم المفترضين لإيمانهم.

المتشيعون المعاصرون للآلهة العقل هم على القدر نفسه من العنف وعدم التسامح والتعطش للضحايا الذي كان عليه سابقوهم. إن القاعدة المتبعة عند كل متدين حقيقي ستكون دائما القاعدة التي بشر بها سان توما: " البدعة خطيئة يستحق فاعلها الطرد من العالم بواسطة الموت. "

وقد كان السيد حورج سوريل محقاً تماماً عندما تنبأ بأن الإجراء الأول للاشتراكية المنتصرة سيكون ذبح جميع خصومها دون رحمة، إذ أنها لا تمتلك أصلا أية وسائل أخرى للصمود لبعض الوقت.

فيما يتعلق بموضوع الإيمان، ليس التعصب والعنف اللذان يرافقانه مشاعر ذات طابع شعبي حصرا. فهما يظهران كاملي الوضوح، إن لم يكن أكثر أيضا، لدى الأشخاص المتعلمين، وفوق ذلك يكونان أكثر استمرارا.. وقد كتب ميشليه: " لقد دهشت أحيانا لشراسة المثقفين، فهم يصلون حدودا من شدة العنف العصبي لا يصلها الناس الأقل علما على الإطلاق. "

3ـ استقلال الآراء

الدور الاجتماعي للتعصب

إذا تفحصنا تعصب المعتقدات من وجهة نظر العقل فقط فإنه سيبدو أمرا لا يطاق، أما من وجهة النظر العملية فإنه قلما سيبدو كذلك، لأن الحاجة إلى الاستقلال التي تتيح الإفلات من أسر معتقد عام حاجة استثنائية تماما. فشتى أشكال العبودية للوسط الاجتماعي تحصر بدقة حدود استقلال الفرد دون أن يتذمر منها. وحتى إنه في أغلب الأحيان لا يلحظها. فلكي يصبح الإنسان حرا حقا سينبغي بداية التخلص من تأثيرات الوسط وذلك بالعيش في عزلة عنه.

الحدّ الأقصى الممكن لاستقلالنا لا يتمثل دائما إلا في إبداء القليل من المقاومة أحيانا حيال الإيحاءات المحيطة. فالجمهور العريض لا يبدي أية مقاومة حيالها، ويتبع معتقدات وآراء جماعته وأحكامها المسبقة. إنه يخضع لها دون أن يعي أنها مجرد ورقة في مهب الريح.

عند نخبة محدودة جدا فقط يمكن ملاحظة خاصية امتلاكها أحيانا بعض الآراء الشخصية. وكل تقدم الحضارات هو بالطبع مدين لهذه العقول المتفوقة، لكن لا يمكننا تمني تضاعف أعدادها المفرط. لأن المجتمع العاجز عن التكيف في الحال مع تقدم سريع جدا وعميق جدا سرعان ما ستعمُّ فيه الفوضى. فالاستقرار الضروري لوجوده يتحقق بالضبط بفضل مجموعة متماسكة من العقليات البطيئة والمتواضعة تقودها تأثيرات التقاليد والبيئة.

من المفيد إذن لمجتمع ما أن يتألف من أغلبية من الناس العاديين، الراغبين في التحرك كما الجميع ومتخذين دليلا لهم

الآراء والمعتقدات العامة. كما سيكون مفيدا جدا أن تكون الآراء العامة قليلة التسامح، فالخوف من أحكام الآخرين يشكل إحدى القواعد الأكثر أمانا لأخلاقنا. إن وسطية الذكاء يمكن أن تكون إذن نافعة لشعب ما، خاصة إذا ما ترافقت مع بعض المزايا الخلقية. وقد فهمت إنجلترا غريزيا هذا الأمر وعلى الرغم من كون هذه البلاد من أكثر بلاد العالم ليبرالية فإن الفكر المتحرر من كل قيد ظل غير مقبول دائما.

4 ـ ذروة الاعتقاد

الشهداء

تتدرج من الرأي المؤقت، أي المشروع الأولي للاعتقاد، إلى الاعتقاد الكامل الذي يسيطر على كامل الإدراك، مراحل نادرا ما جرى اجتيازها.

ومع ذلك فقد يجرى اجتيازها في بعض الفترات، حينذاك، تصبح الدوافع الدينية والعواطف التي تتولد عنها على درجة من القوة بحيث أن كل الكوابح الاجتماعية، وكل قمعية القوانين تغدو عاجزة عن صدّها. وسنجد عندها (بوليكوت) الذي يحطم الأصنام، والشهيد الذي يتحدى جلاديه، والعدمي الذي يلقي قنبلة وسط حشد من الجمهور مدفوعا بأمل موهوم بقتل الأمير.

وحينما يصل الاعتقاد إلى هذا الطور من الشدة، فليس ثمة سدّ يمكن أن يقف في وجهه.، فهو يسيطر على المصالح الأشد وضوحا والمشاعر الأغلى ويحول الأخطاء الواضحة إلى حقائق ساطعة. وما

من تضحية تصعب عندئذ على المؤمن من أجل الدفاع عن دينه أو نشره.، وهو، الشبيه بالمنَوَّمين الذين يّدرس العلم الحديث حالتهم، يعيش في حقل الهلوسة الخالصة.

مثل هذه الإثارة عموما تعدّ لها مراحل من الفوضى تتفكك خلالها المعتقدات القديمة وبالنتيجة المشاعر المتطابقة معها.

تتشابه عقلية الشهداء من كل صنف: سياسي، ديني، أو اجتماعي. فهم بعد أن بهرهم ثبات حلمهم يضحون بأنفسهم فرحين من أجل ضمان انتصار الفكرة، وحتى دون أدنى أمل بنيل الثواب في هذا العالم أو في العالم الآخر. ويقدم تاريخ العدميين والإرهابيين الروس، الكثير من الدلالات على هذه النقطة الأخيرة. فليس الأمل في حياة النعيم هو من يصنع الشهداء دائما.

ومن حسن الحظ أن عدد هؤلاء المهووسين لا يكون كبيرا في كل عصر. فإذا ما أصبحوا كثيري العدد فإنهم سوف يربكون العالم. فاضطهادهم لا جدوى منه و لن يؤدي إلا لجعلهم مثلا يُحتذى ومعديا. تنتمي دراسة الشهداء على وجه الخصوص إلى ميدان علم الأمراض الذهنية. فمهوسو المعتقدات الأشد تنوعا يقدمون تشابها غريبا لدرجة يكفي معها دراسة حالتين أو ثلاث حتى يعرف المرء الحالات الأخرى جميعها.

غاية الأمثلة التي سأسوقها هي ببساطة تبيان كيف أنه أمام الإيحاء الذاتي للمعتقد، لا تتحول الآراء كلها فقط بل أيضا تتلاشى بعض المشاعر القوية جدا مثل الخوف والحياء والحب الأمومي. ويطفح تاريخ الشهداء بالوقائع التي تبرر هذه التأكيدات، وهي تستعيد كأنموذج مثال **Vivia perpetua** التي يقدسها

المسيحيون تحت اسم القديسة بيربيتي **Sainte Perpétue** التي عاشت في عهد سيبتيم سيفير**Septime Sévère**. فقد كانت ابنة سيناتور عمل قنصلا لثلاث مرات ورئيسا لمجلس شيوخ قرطاج فهذه النبيلة الجميلة والثرية التي اعتنقت المسيحية سرا ، فضلت أن تُعرض عارية أمام الشعب كله وأن تفترسها الوحوش الضارية على أن تتظاهر بحرق قليلا من البخور في معبد الإمبراطور.

يعتبر المؤمنون أن مثل هذه الأفعال براهين على قوة ألهتهم. وهذا وهم باطل بالطبع لأن الشهداء كانوا كثيري العدد في جميع الأديان وفي جميع الطوائف السياسية. وعلى سبيل المثال من بين آلاف الأمثلة الأخرى يمكن أن نسوق أمثلة من الدين البابي **babyste** الذي نشأ في إيران منذ حوالي ستين عاما. فقد تصور الحاكم آنذاك أن باستطاعته إخماد هذا الدين الجديد عبر التعذيب. وإليكم ما حصل كما روى غوبينو:

" رأينا أطفالا ونساء يتقدمون أمام الجلادين، وقد تعرت أجسامهم، تدفعهم السياط الملتهبة مثخنين بالجراح.... أطفال ونساء كانوا يتقدمون منشدين آية تقول: " في الحقيقة الله خلقنا وإليه مرجعنا ! " كانت أصواتهم ترتفع صادحة أمام الصمت العميق للجمهور. حينما كان أحد المُعذبين يسقط على الأرض كانوا يدفعونه للوقوف ثانية بالسياط أو الحراب.... فينهض ويبدأ بالرقص والغناء بفيض من الحماسة: " في الحقيقة، الله خلقنا وإليه مرجعنا... " وحينما وصلوا

إلى ساحة الإعدام، عُرض عليهم مرة أخرى الحياة مقابل ارتدادهم عن دينهم. وقد ارتأى أحد الجلادين أن يقول لأحد الآباء أنه إذا لم يرتدع فإنه سيقطع عنقي ولديه على صدره. كان الولدان صغيران عمر أكبرهما أربعة عشر عاما وكانا مسربلين بدمائهما مثخنين بالجراح وقد سمعا عرض الجلاد، أجاب الوالد وقد تمدد على الأرض بأنه مستعد فتقدم الولد الأكبر مطالبا بحق كونه البكر وطلب أن يذبح أولا. لقد رأينا بابيين يتقدمون ويعترفون باعتناقهم لهذا الدين؛ وكان أحد أتباع الباب معلقا إلى جانبه فوق أسوار تبريز لا ينطق إلا بكلمة: " معلمي، هل أنت راض عني؟ "

ويعاني أتباع مذهب (السكوبسي) في روسيا والمورمون في أمريكا، في وقتنا الحاضر اضطهادا مماثلا دون أن يتخلوا عن إيمانهم. هذه الأفعال وكل الأفعال المشابهة ذات دلالة بالغة، فهي تثبت قوة الروح الدينية، القادرة على قهر الألم والسيطرة على المشاعر التي تعتبر أساس الوجود. فماذا يستطيع العقل أن يفعل ضدها.؟

ليس بالحجج العقلية تُستنهض الجماهير. بل بالمعتقدات يمكن السيطرة عليها دائما. فالعقل القادر جدا على محاربة الطبيعة وتسخيرها أحيانا، لا يمتلك القوة الكافية لبناء معتقدات أو الانتصار عليها.

إن المعتقدات، الهدامة أحيانا، المبدِعة غالبا، التي لا يمكن مقاومتها دائما، تشكل القوى الأرهب في التاريخ، والدعامات الحقيقية للحضارات. إن الشعوب لم تعش أبدا طويلا بعد موت آلهتها.

الفصل الثاني

اليقين الناشئ عن المعتقدات، طبيعة الأدلة التي يكتفي بها المؤمنون

1 ـ اليقين الناشئ عن المعتقدات

يوحي الإيمان القوي بيقين لا يزعزعه شيء، وعن مثل هذا اليقين تنشأ غالبية الأحداث التاريخية الكبرى. فالنبي محمد (ص) كان موقنا أن الله يأمره بإقامة دين جديد مقدّر له أن يجدد العالم، فنجح في قلبه رأسا على عقب. وكان بطرس الناسك موقنا أن الله يريد تخليص قبر المسيح من أيدي الكفار، ولأجل استعادته هلك ملايين الأشخاص على نحو يُرثى له. وكان لوثر موقنا أن البابا عدو المسيح، وبأن المطهر لم يكن له وجود. وباسم حقائق من هذا المستوى غرقت أوروبا في حروب دامية طوال عدة قرون. وكان كهنة محاكم التفتيش موقنين أن الله يريد حرق الهراطقة، فافرغوا اسبانيا من سكانها بمحارقهم. شارل التاسع ولويس الرابع عشر كانا موقنين أن خالق السماوات والأرض لم يكن يقبل بوجود البروتستانت، ومن أجل القضاء عليهم ارتكب الأول مذبحة سان – بارتلمي ولجأ الثاني إلى الدراغونية (مرحلة من الاضطهاد

في عصره حيث كان جنود الدراغون- الفرسان – يحتلون بيوت البروتستانت – م. ع.). وكان أنصار الجمعية التأسيسية موقنين بأنه ينبغي قطع عدد كبير من الرؤوس، من أجل ضمان سعادة الجنس البشري، ونتيجة لذلك أثاروا الحروب وأقاموا ديكتاتورية مما أدى إلى إهلاك ثلاثة ملايين شخص في أوروبا. وفي أيامنا الراهنة ثمة آلاف من البرجوازيين المشبعين بيقين أن الاشتراكية ستعيد تجديد العالم، يدمرون بجنون آخر الدعائم التي تسند المجتمع الذي يعيشون فيه.

إن إحدى النتائج الأكثر تأكيدا لليقين الناشئ عن معتقد ما تتمثل في أنها تخلق بعض المبادئ الأخلاقية المؤقتة نوعا ما، لكنها راسخة وقوية والتي ينشأ حولها وعي جديد يوّلد سلوكا جديدا.

إن تاريخ الثورة مليء بالأعمال الدامية ارتكبها أفراد كانوا مسالمين في السابق لكنهم اعتقدوا أنهم ملزمون بالخضوع لدوافع إيمانهم الجديد. مثل مرتكبي مجازر أيلول الذين طالبوا بعد انتهاء المذابح بمكافأة قومية. وأيضا مثل العصابات التي اجتاحت إقليم الفاندي[1] **Vendée**.

---

[1] حالتهم العقلية الناشئة عن معتقداتهم الجديدة تظهر بشكل واضح في هذا المقطع من رسالة الجندي جوليكليرك التي نشرتها جريدة temps بتاريخ 26 تشرين الأول من عام 1910: " سنقوم باجتياح مقاطعة لو دو- سيفير والفاندي، وسوف ندمرها حرقا وتقتيلا، البندقية بيد والمشعل باليد الأخرى، وسوف نبيد الجميع رجالا ونساء بحد السيف....لقد أحرقنا حتى الآن حوالي سبعة فراسخ من البلاد. وثمة جنود جمعوا ثروات طائلة... "

يترافق اليقين الديني والعاطفي مع الحاجة لفرضه دائما. ويتحمل الإنسان ذلك بصعوبة، ولكن منذ أن يجد نفسه الأقوى فلا يعود يتحمل أن لا يشاطره أشخاص آخرون يقينه. ولكي يفرضه لا يتوانى عن ممارسة أبشع أنواع الاستبداد وأكثرها دموية. لقد اجتاح أصحاب اليقين العالم دائما. ومن الخطير لأية أمة أن يقودها هؤلاء الأشخاص ومع ذلك وكما قال ريبو بحق: " تقع قيادة شعب ما في لحظات معينة من تاريخه، بين أيدي أشباه مجانين. "

أما أن يوقن رجل قوي، كما أظهر إمبراطور ألمانيا في خطاب مشهور، أنه يستمد سلطته من الله، فإننا ندرك إلى أين يمكن أن يقوده مثل هذا اليقين. وحين يتصور أن الله يأمره بشن الحرب على المشككين بكلامه من أجل معاقبتهم فإن أوروبا ستنقلب رأسا على عقب، كما وقع لها أكثر من مرة بفعل قناعات مماثلة.

2 ـ طبيعة الأدلة التي يكتفي بها الذهن المحبوس في حقل القناعة

الاعتقاد هو شأن إيماني لا يستلزم أدلة، و فضلا عن ذلك لا يمكن لأي دليل إثبات صحته أغلب الأحيان. ولو كان الإيمان تفرضه الحجج العقلية فقط فإن قلة من المعتقدات كان يمكن أن تنشأ عبر العصور.

غالبا ما تبدو الحجج التي يتمسك بها المؤمنون صبيانية في نظر العقل، مع أن هذا العقل ليس له صلاحية الحكم عليها، لأنها تُشتق من عناصر دينية أو عاطفية لا تقع تحت تأثيره. فالإيحاء والعدوى الذهنية اللذان تنتشر المعتقدات بفعلهما، مستقلان عن العقل.

ولأن أي عنصر عقلي لا يشارك في تكوين المعتقدات، فإن سذاجة المؤمن لا حدود لها. فهو لا يتصور أنه يقبل الأمور دون أدلة بما أنه يتمسك بهذه الأدلة دائما؛ وتظهر شدة سذاجته في طبيعة الأدلة التي يكتفي بها. ومطالعة الكتب المتعلقة بوسائل اكتشاف السحرة، التي يعرضها أساطين قضاة وصفوا سابقا بالنوابغ مفيدة جدا حول هذه النقطة. إن الوثائق من هذا النوع بالإضافة لكتب اللاهوتيين تبين عمق الهوة التي تفصل البرهان الذي يتطلبه العالم عن البرهان الذي يرضي العقل المسجون في حلقة المعتقد.

من غير المجدي تقديم الأمثلة هنا. فجميعها ستكون متشابهة مع الأدلة المقدمة في القضية المقامة ضد الكاتب الإيطالي دالبانو**d'Albano**، فقد أثبت بكل وضوح أنه كان قد تعلم "الفنون السبعة الحرة" بمساعدة سبعة شياطين، وذلك عندما اكتُشفت في بيته زجاجة تحتوي على مزيج من سبعة عقاقير مختلفة، من الواضح أن كل عقار منها كان يمثل شيطانا. وعلى الرغم من أعوامه الثمانين فقد كان سيحكم عليه بالحرق حيا عندما أنقذته دون شك شياطينه السبعة المسجونين فمات فجأة، فما كان على القضاة إلا أن يكتفوا بنبش جثته وحرقها في ساحة عامة.

في ظل حكم لويس الرابع عشر، لم يكن يتم حرق السحرة إلا استثنائيا، لكن أحدا لم يكن يشك في قدراتهم. وقد كشفت قضية الساحرة لافوازان أن أكبر شخصيات ذلك العصر، مثل مارشال لوكسمبورغ وأسقف لانغر، المرشد الأول للملكة، الخ...

كانوا يستعينون بالقوة السحرية التي كانوا يفترضون أنها تملكها. وقد كان الأسقف سيميان دي جورج قد توجه إليها للحصول بمساعدة الشيطان على الشريط الأزرق للروح القدس !

ولو كانت قارئات الطالع بورق اللعب والمنجمات العصريات يتحدثن عن الزوار الذين يستقبلنهن، لتأكدنا أن السذاجة أو سرعة التصديق المعاصرة لم تتراجع. ويمكنني أن أتحدث عن وزير سابق كان معروفا بعداوته الشديدة لرجال الإيكليروس. هذا الوزير لم يكن يخرج من بيته مطلقا إلا إذا كان يحمل في جيبه جزءا من حبل مشنقة. وأحد سفرائنا المرموقين كان يغادر في الحال مائدة حولها ثلاثة عشر مدعوا. فهل إن فيتشية رجال الدولة البارزين هي أرقى حقا من المعتقدات الدينية التي يحاربونها بضراوة؟ إني أشك في ذلك.

إن المؤمنين حتى وإن كانوا مقتنعين جدا شعروا دائما بضرورة أن يجدوا لإيمانهم أسبابا مؤيدة، على الأقل من أجل إقناع المتشككين. و تثبت جهود علماء اللاهوت العديدة الفاشلة بأية صلابة تمّت متابعة هذه المهمة.

وكانت الحجة التي تعلقوا بها أشد التعلق بعيدا عن المعجزات وتأكيدات كتبهم المقدسة، هي حجة القبول العام. ولم يتردد رجال مثل بوسييه في استخدام مثل هذا الدليل، فقد اعتبر هذا الحبر أن الآراء الفردية تستحق الازدراء وخطرة ووضع في مواجهتها الشعور العام بوصفه موثوقا أكثر. وهو يرى أنه يجب أخذ أية عقيدة على أنها حقيقة ما أن اعتبرها الناس كذلك، وحسب رأي بوسييه فإن الفرد لا يمكن أن يكون مصيبا بخلاف الناس كلهم. وقد لزم

تطور العلوم العصرية ليثبت أن الكثير من الاكتشافات تحققت تحديدا لأن شخصا واحدا كان محقا بينما كان الآخرون على خطأ.

لقد بذل رجال اللاهوت جهدا دون طائل من أجل مقارعة شكوك تتناول نقاطا ثانوية في العقيدة، في حين أن السذاجة الشديدة تظل بعكس ذلك شعورا عاما.

3 ـ النزاع الحتمي بين العلم والاعتقاد

بيّنا سابقا أن المجالات المحكومة بمختلف أشكال المنطق كانت شديدة الاختلاف بحيث لا يمكنها التداخل، وبالتالي لا يكون تنازعها مفيدا. ومع ذلك توجد، كما سوف سنرى، نقطة يبدو أن العلم والاعتقاد صائران لأن يجدا نفسيهما في حالة نزاع حتمي لأنها تمس مبدأ جوهريا. فمن من بين كل الثورات التي قام بها الفكر البشري ربما كانت الثورة الأعظم شأنا هي التي نجح العلم بعد بحث طويل في إثبات أن كل الظواهر محكومة بقوانين صارمة وليس بإرادات كيفية لكائنات أسمى. الأمر الذي أدى إلى تغيير مفاهيمنا عن الكون دفعة واحدة.

ما يزال هذا الاكتشاف الرئيس الذي كان للمرة الأولى يخرج الإنسانية من دائرة الاعتقاد لكي يدخلها إلى دائرة المعرفة، أبعد من أن يغدو معمما. فما زال الكثير من الناس يعتقدون أن ثمة قوى فوق - طبيعية تقود الأحداث وتستطيع إذا ما صلى لها المرء بحرارة أن تغير مجرى تلك الأحداث. إذا كان مثل هذا المفهوم تعبيرا عن

آمال لا تموت فإن العلم والاعتقاد سيظلان خصمين متنافسين دائما في هذا الميدان.

وينذر النزاع بأن يكون أبديا، لأنه إذا كانت الآلهة قد انسحبت من المناطق المستصلحة بالعلم فإننا لا نستطيع أن نثبت للمؤمنين بأنه لا يوجد شيء في المناطق الشاسعة غير المكتشفة بعد. ففي هذه المناطق الغامضة والمغلقة سيعيش دوما الأشباح الذين يخلقهم الإيمان.

إن التخلي عن مقولة الضرورة في تتابع ظاهرة واحدة يعني العودة إلى الفكرة التي هُزمت بالكثير من الجهد، فكرة الأحداث الخاضعة لإرادات خاصة لكائنات متقلبة الأطوار. وقلما يهم أن تكون أهواؤهم عرضية إذ يكفي أن تقع مرة واحدة لكي يمكنها أن تتكرر دائما. ولو كانت الظواهر التي يدعيها صانعو المعجزات المعاصرون ممكنة فإن على العلم أن يعود صاغرا إلى العصور التي كانت الأرباب تقرر فيها قدر المعارك، وحيث أفواج من الأشباح والجن والشياطين تتدخل دون توقف في الحياة اليومية. ولشكلّت الرقى والصلوات والأضاحي والكتابات السحرية عندئذ، اليوم كما في السابق، الوسائل الوحيدة للحصول على رضا هذه القوى المتقلبة.

وهذا التقهقر ليس مستبعدا كثيرا. فثمة ذهنية دينية لا يمكن تدميرها ستجعلنا نلجأ أبدا إلى ما- فوق الطبيعي، لكن الدراسة اليقظة للأحداث العجيبة ستبين دائما أيضا أنها مجرد هلوسات تخلقها عقولنا.

وهذا ما سوف نفسره في قسم آخر من هذا الكتاب محاولين توضيح قصة نشوء بعض المعتقدات الجديدة بالتجربة.

الفصل الثالث

الدور المسند لكلِ من العقل و الإرادة
في نشوء الاعتقاد

1 ـ استقلال العقل واستقلال الاعتقاد

بصورة عامة تؤكد الدراسات النادرة المنشورة حول تشكل الاعتقادات بأنها اختيارية وعقلية، وهذا الخطأ المستمر ينشأ عن الوهم القديم المتعلق بدور الذكاء في علم النفس.

لقد فصلنا في هذا الكتاب الذات العاطفية عن الذات العقلية وبيّنا أنهما تُداران من قبل شكلين من المنطق مختلفين جدا. وينتج عن ذلك بالطبع أن العقل، وهو التعبير عن الذكاء، يكون مستقلا عن الاعتقاد الذي هو التعبير عن العواطف والتدين الذي يُشتق منها. وقد تعزز هذا البرهان أيضا عندما أثبتنا أن الاعتقاد والمعرفة يُبنيان بطرائق متغايرة تماما.

وتتعلق غالبية صراعاتنا السياسية والدينية بهذا الزعم الوهمي بإمكانية أن نجعل أشياء عاجزة جدا عن تبادل التأثير تؤثر أحدها في الآخر كالاعتقاد والمعرفة. ولن نفهم تماما قوة المعتقدات إلا

عندما نعترف أنها تفلت من أي تأثير عقلي. وقد يبدو من غير المفيد العودة مجددا إلى هذا الموضوع، لكن لأجل دحر بعض الآراء المسبقة العنيدة فقد لا يكفي البراهين المنطقية أن تكون عديدة جدا.

فلو كانت المعتقدات تقع تحت تأثير العقل لرأينا كل تلك المعتقدات الباطلة تختفي منذ زمن بعيد، والحال فإن المراقبة تبيّن ثباتها واستمرارها. فنحن إذن ملزمون بقبول بأنه لا توجد مستحيلات في نظر المؤمن وبأن الإنسان لا يمكن أن يكون حرا في أن يؤمن أو أن لا يؤمن.

تظل التأثيرات العاطفية والدينية التي تعزز الاعتقاد، وقد كررنا ذلك عدة مرات، مختلفة جدا عن التسلسل العقلي الذي يعزز المعرفة. في موضوع الاعتقاد، لا يوجد إمكانية للتحقق، أما في موضوع المعرفة فإن إمكانية التحقق تكون بالعكس هي القاعدة و وبالتالي فهي تلغي منذئذ كل اعتراض. فلم يفكر أي شخص على الإطلاق في الاعتراض على خواص المثلث أو مقطع مخروطي. وبالنسبة للعالم فإن الحقيقة ما قبل جبال البيرينيه هي ذات الحقيقة ما خلفها. أما بالنسبة للمؤمن فإن الحقيقة تصبح عكسها باجتيازها الحدود أو الزمن. تمتلك المعتقدات تلك الخاصية العجيبة خاصية خلق الأوهام ثم إخضاع العقول لها. ينجح المرء أحيانا بالتخلص من سيطرة الطغاة لكنه لا ينجح على الإطلاق في التخلص من سيطرة المعتقدات. وهناك آلاف من الأشخاص المستعدين دوما للتضحية بأنفسهم دفاعا عنها، لكن أيا منهم لن يعرّض حياته

للخطر من أجل انتصار حقيقة عقلانية واحدة. ولم يستطع نهائيا عصر العقل الذي أدخلت نجاحات العلم البشرية فيه أن يدمِّر قوة المعتقدات ولا خاصية ابتداع معتقدات جديدة. وربما لم يشهد عصر من العصور السابقة تفريخ هذا العدد الكبير منها: معتقدات سياسية، ودينية، واجتماعية. و تشهد أمريكا وروسيا خصوصا ولادة بعضها كل يوم.

2 ـ عجز العقل أمام الاعتقاد

حينما يصل الاعتقاد، خضوعا للتطور الطبيعي للأشياء، إلى درجة البلى التي تسبق سقوطه يصبح للعقل أحيانا سيطرة عليه، أمَّا في مرحلة انتصاره، فإن الاعتقاد لا يسعى حتى للصراع ضد العقل لأن هذا الأخير لا يستنكره.

وليس ما هو أشدُّ ندرة في الواقع في عصور التدين من رؤية عقول على درجة من الاستقلالية يمكن أن تناقش اعتقادها عقليا، ويبيِّن مثال باسكال ما يمكن أن تكون نتائج هذا الصراع بين المنطقين العاطفي والديني من جهة وبين المنطق العقلي من جهة أخرى.

فقد كان هذا المفكر الشهير يكتب في عصر كانت فيه الحقائق الدينية مقبولة دون أي اعتراض، ووحدها عبقرية كعبقريته كانت تستطيع التجرؤ على إخضاع يقينها للمناقشة العقلية. وقد أثبت الفشل التام لمحاولته مرة أخرى عجز العقل أمام الاعتقاد.

كان باسكال يمتلك من الحصافة قدرا أكبر من أن لا يجعله يدرك اللامنطقية العقلية لأسطورة تفترض أن الله ينتقم لنفسه من ابنه بسبب خطيئة ارتكبها عند خلق الكون أحد مخلوقاته، لم يتردد بوصفها " بالحماقة ". لكن سرعان ما اضطر منطقه العقلي للتراجع أمام دوافع منطقه الديني. ولأنه كان مسكونا بالخوف من الجحيم الذي يشير إليه هذا الأخير وكان في الوقت نفسه يريد الدفاع عن إيمانه بحجج مقبولة، فقد توصل إلى اعتبار الحياة الآخرة مجازفة برهان رهيب، رهيب بالفعل لأن الأمر يتعلق بعقاب أبدي إذا كان الجحيم موجودا في الحقيقة. ويؤكد: " في هذه الحالة من الارتياب، ينبغي الرهان على الحياة الآخرة والتصرف بالتالي كما لو أنها كانت موجودة. "

اقتنع باسكال دون تطرف بهذا البرهان لكنه حاول استخدام منطقه العقلي مرة أخرى ليدعم إيمانه لكنه لم ينجح في مسعاه. من بين البراهين التي يحاول هذا المفكر الكبير أن يعقلن قليلا إيمانه، يسوق بالطبع النبوءات والمعجزات. وبما أن هذه الحجج تنطبق على كل الأديان المليئة هي أيضا بالمعجزات، وجد نفسه مضطرا إلى أن يرفض ببساطة معجزات ونبوءات الأديان الأخرى. فيؤكد: " كل إنسان يستطيع أن يفعل ما فعله محمد (ص) لأنه لم يفعل معجزات، ولم يتنبأ. ليس ثمة إنسان يستطيع أن يفعل ما فعله يسوع المسيح ".

لم يبحث باسكال، وما كان منطقه الديني ليسمح له بذلك، لماذا نجح الإسلام والبوذية باستقطاب أتباع لهما بقدر ما للمسيحية من أتباع.

على الرغم من كل دقة حججه كان الفيلسوف اللامع يشعر بقوة أنه لم يكن يوجد عقل جاد يسمح بدعم إيمانه. من جهة أخرى هذا الإيمان ضروري له لكي يتجنب الجحيم فيما لو كان موجودا ، فكيف يمكن التوفيق بين الأمرين؟ إليكم نصائحه:

"تريد أن تتجه نحو الإيمان ولا تعرف الطريق إليه.... استعلم من أولئك الذين كانوا مقيدين مثلك... اتبع الطريقة التي بدؤوا بها ، وذلك بالقيام بكل شيء كما لو كانوا يؤمنون، اشربوا الماء المقدس، أقيموا القداس، الخ... وهذا سيجعلكم تؤمنون وسيحرككم آليا - لكن هذا هو ما أخشاه - ولماذا؟ ماذا لديك لتخسره؟

يبيّن نقاش باسكال مرة أخرى عجز العقل عن الصراع ضد الاعتقاد ، خاصة عندما يكون هذا الأخير قد أصبح جماعيا. وهذا العجز يفسر بعض الأحداث التاريخية غير القابلة للتفسير ظاهريا ، مثل حادثة بور – رويال الغريبة التي أربكت بعمق جزءا من حكم لويس الرابع عشر. في أصل القصة ، كان بضعة رهبان ورعين جدا ، وكانوا يقرون نظرية خاصة عن " المشيئة المسبقة التي كان غشمها المقيت يبدو وكأنها لا تملك أي تأثير. ولو حكمنا فقط بحسب وجهة النظر العقلية ، فإن أبحاثهم حول العفو الكافي، وتناول القربان، وطروحات جانسينيوس الخمسة الخ.... ستبدو هذر مبتذلاً. ومع ذلك فقد أذكت عواطف ساخطة جدا بحيث تمّ إزالة بور ـ رويال من الوجود وتشرد رهبانه على الرغم من كونهم مثالا

للفضيلة. إن مثل هذه الحوادث كانت ستظل، وأكرر مرة أخرى، غير قابلة للتفسير لو كان للعقل أدنى نصيب في نشوئها.

كل هذه المعتقدات، كونها أُنضجت في اللاوعي، تفلت ليس فقط من سيطرة العقل بل بالضرورة أيضا من سيطرة الإرادة. إنها نتيجة للإيحاءات الشبيهة بالإيحاءات التي يعرف المنومون المغنطيسيون كلهم حاليا القيام بها.

مما لا شك فيه، أن العقل يستطيع أن يثير الرغبة في الإيمان، لكنه لن يمتلك القوة على جعلنا نؤمن. كما أن المرء لن يتمكن من بلوغ ذلك بإتباع نصيحة باسكال، أي التصرف كما لو أن المرء كان يؤمن. ومهما تكن الإرادة قوية فلن يسعها خلق الإيمان، يمكنها على الأكثر إعطاء المظهر.

كون الاعتقاد مستقلا عن العقل، فلن يُدهش أحد، كما لاحظ ريبو، " من رؤية عالم متفوق، متمرس بمناهج العلوم الصارمة يقبل في الدين، أو في السياسة، أو في الأخلاق، أراء صبيانية لن يقبل بمناقشتها للحظة لو لم تكن آراءه ". لهذا، ففي أغلب الأحيان، نراه يكتفي بالخضوع للمعتقدات دون أن يناقشها. وهذا سلوك حكيم جدا. إن العالم سيشيخ طويلا، دون ريب، قبل أن يستطيع العقل موازنة الإيمان.

الفصل الرابع

كيف تصمد المعتقدات وكيف تتحول

1 ـ كيف تصمد المعتقدات

الحقيقة العقلية غير شخصية والوقائع التي تسندها تظل مكتسبة للأبد. أمَّا المعتقدات فكونها، بخلاف ذلك، شخصية وقائمة على مفاهيم عاطفية أو دينية فإنها تكون خاضعة لكل العوامل المؤهلة للتأثير في الإحساس. وعليها إذن، كما يبدو، أن تتبدل باستمرار.

بيد أن أجزاءها الرئيسة تثبت، لكن بشرط أن تتمّ صيانتها باستمرار. إن أي معتقد مهما كانت قوته لحظة انتصاره سرعان ما سيتفكك إذا لم يجرِ الدفاع عنه بصورة مستمرة. والتاريخ مغطى ببقايا معتقدات لم تعش، بفعل هذا السبب، إلا وجودا عابرا.

أما قوننة المعتقدات في تعاليم فإنه يشكل عنصر استمرار لن يكون كافيا. فالكتابة تبطئ فقط من فعل الوقت التهديمي.

وأي معتقد ديني، سياسي، أخلاقي، أو اجتماعي يصمد خاصة بفعل العدوى الذهنية، والإيحاءات المتكررة. إن الصور

والتماثيل والذخائر المقدسة، ورحلات الحج، والاحتفالات والأناشيد والموسيقا والنبوءات الخ... تعتبر عناصر ضرورية لهذه العدوى ولهذه الإيحاءات.

ولو حبسنا المؤمن الأشد اقتناعا في صحراء محروما من أي رمز من رموزه فسوف نرى إيمانه يضعف بسرعة. وإذا كان بعض النسّاك والمبشرين ظلوا متمسكين مع ذلك بإيمانهم، فذلك لأنهم يواظبون دون انقطاع على قراءة كتبهم الدينية و لأنهم يلتزمون خاصة بأداء جملة من الطقوس والصلوات. إن واجب الكاهن المتمثل بتلاوة كتاب صلواته يوميا، ابتدعه علماء نفس يعرفون جيدا قوة التكرار الإيحائية.

إن أي دين لن يكون قابلا للاستمرار إذا جرى تجريده من العناصر الثابتة التي تقوم بتدعيمه. إن إلها دون معابد، ودون صور، ودون تماثيل، سيفقد سريعا عبدته. وكان محاربو الإيقونات مدفوعين بحس صادق عندما كانوا يحطمون تماثيل ومعابد الإلهة التي كانوا يريدون تهديمها.

وكذلك كان رجال الثورة، في سعيهم لإلغاء تأثير الماضي، محقين أيضا، بحسب وجهة نظرهم، في تدمير الكنائس والتماثيل والقصور. لكن هذا التدمير لم يمتد طويلا بحيث يؤثر على بعض المشاعر الثابتة عبر وراثة عميقة في التاريخ. لقد كان دوام هذه المشاعر أطول من دوام الحجارة التي كانت ترمز إليها.

2 ـ كيف تتطور المعتقدات

إن الاعتقاد الصامد بفضل الآلية التي تكلمنا عنها لا يظل، لهذا السبب، مجمدا بصورة نهائية. وبالعكس فهو يتطور على الرغم من أن أتباعه يفترضون عدم تغيّره. وينتج وهمهم هذا من واقع أن كتبهم المقدسة التي تدعي ثبات حدود العقيدة يُحافظ عليها باحترام حتى لو كانت العبادة تبتعد عنها كل يوم.

وأي اعتقاد سواء كان سياسيا أم دينيا أم فنيا أم أخلاقيا ليس فيه من ثابت واقعيا إلا اسمه. فهو بنية في طور التطور المستمر. وقد شرحت سابقا في كتابي القوانين النفسية لتطور الشعوب كيف تتحول المؤسسات، واللغات، والمعتقدات، والفنون. وبينت أيضا أن هذه العناصر لا تنتقل من شعب إلى آخر دون أن تشهد تحولات عظيمة الشأن.

إذن على الرغم من الثبات الظاهري للمعتقدات المصاغة في تعاليم، فإنها مع ذلك مضطرة للتكيف مع تغيرات ذهنية أتباعها ومع الأوساط التي يعيشون فيها. وهذه التحولات تكون بطيئة، لكن عندما تتراكم لوقت طويل فإننا نشهد أنه لم يعد يوجد أية قرابة بين الكتب المكتوبة زمن تأسيس المعتقد وممارسته الحالية. فلم يعد للبراهمية على سبيل المثال أكثر من علاقات غامضة جدا مع كتب الڤيدا التي أوحت بها. وكذلك الأمر مع البوذية. ومع أن القوانين الناظمة لتطور المعتقدات أبعد من أن يتمّ تحديدها بوضوح، فإن بالإمكان مع ذلك، كما أعتقد، ذكر الإشارات التالية:

1 ـ إذا وجِدت معا عدة معتقدات قابلة للتوافق فإنها تسعى للاندماج أو على الأقل للتطابق. وهذا ما حصل للأرباب والمعتقدات في العالم الوثني.

2 ـ إذا كانت المعتقدات شديدة الاختلاف، فإن الأقوى من بينها ـ وهو ما يعني أغلب الأحيان أكثرها بساطة ـ يسعى لإلغاء الأخرى. لهذا السبب فقد هدت الدعوة الإسلامية ليس فقط القبائل البدائية في أفريقيا بل أيضا بعض الشعوب الأكثر تحضرا في الهند.

3 ـ الاعتقاد المنتصر يؤول أمره في نهاية المطاف دائما إلى الانقسام إلى طوائف لا تحتفظ أي منها إلا بالعناصر الأساسية للاعتقاد الأم.

ومن المفيد التركيز الآن على هذا القانون الأخير وحده. فهو يكفي في الواقع لتبيين آلية تطور المعتقدات. فالانقسام إلى طوائف وقع دائما غداة انتصار الأديان الكبرى مثل المسيحية والإسلام. ولأن المسيحية هي الأكثر تعقيدا فقد فرّخت العدد الأكبر من الطوائف والمنشقين: فالمانويون، والآريوسيون والنسطوريون والبيلاجيون الخ.... لم يكفوا عن التقاتل بشراسة طوال قرون. وهذه الصراعات انطلقت مجددا أكثر عنفا مع بدء الإصلاح الديني. ولم تكد تتشكل البروتستانتية حتى تفرعت في الحال هي أيضا إلى طوائف عديدة: الانغليكانية، اللوثرية، الكالفينية، الأحرار الخ...

وكل طائفة من الطوائف المنشقة عن ديانة كبرى سرعان ما تصبح، طامعة بالطبع في السيطرة بدورها، متشددة بقدر تشدد الدين الذي خرجت منه. إن النظر إلى الإصلاح الديني كما يُنظر إليه في أغلب الأحيان، أي بوصفه انتصارا لحرية التفكير، يعني عدم فهم مطلق لطبيعة المعتقد. فقد كانت البروتستانتية في بداية

أمرها أكثر تصلبا من الكاثوليكية، ثم تطورت بعد ذلك نحو أشكال أكثر تحررا أحيانا، لكنها لم تصبح بذلك أقل تشددا. وقد بشّر لوثر وخلفاؤه بنظريات جامدة جدا ومجردة من أية روح فلسفية ومشبعة بتصلب شرس. أما كالفن فبعد أن قسم الناس إلى أصفياء وملعونين اعتبر أن الأولين ليس عليهم أن يراعوا الآخرين. وحين أصبح حاكما لجينيف طبّق على المدينة أبشع حكم استبدادي في تاريخها. وأنشأ محكمة تضاهي محاكم التفتيش دموية. وقد أحرق معارضه ميشيل سيرفيه على نار هادئة.

وفي أيام سان – بارتلمي، خاتمة كل هذه النزاعات في فرنسا، تعرض البروتستانت للذبح، لكنهم في جميع البلدان التي كانوا الطرف الأقوى فيها كانوا الذابحين. لقد كان التعصب ذاته لدى الجانبين كليهما.

إن انقسام المعتقدات الدائم ينتج من واقع أن كلا من هذه الأقسام يتبنى العناصر التي تؤثر فيه بقوة دون أن يتأثر ببقية العناصر. فيقوم بعض المؤمنين ذوي الشخصيات القوية الشبيهة بالرسل بمحاولة تأسيس كنيسة صغيرة. فإذا ما نجحوا فإنهم يكونون قد أسسوا انشقاقا أو بدعة جديدة وسرعان ما تتدخل العدوى الذهنية لتقوم بنشرها.

إن انقسام المعتقد شجّعه على الدوام غموض الكتب المقدسة الشديد، فبات كل عالم لاهوتي يستطيع انطلاقا من ذلك تفسيرها على هواه. وسيكون من المفيد استعراض بعض الكتب، كالكتب المكرسة للمناقشات حول النعمة، بين أتباع القديس توما، ... أو بين أتباع جانسينوس واليسوعيين الخ... لكي نرى إلى أية

درجة من الضلال يمكن أن تنحدر بعض العقليات المخدوعة بالدين. وحتى المفكرين الأكثر تبحرا أنفسهم يصابون كما يبدو بالدوار حالما يدخلون في حقل الاعتقاد. ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك كتاب التأملات لمالبرانش الشهير. فقد بلغ نجاح هذا الكتاب حد أن بيع منه عند صدوره عام 1684 أربعة آلاف نسخة في أسبوع.

فهو يورد فيه أشياء مذهلة، وحسب قوله، " إن الله يشعر ويفكر ويتحرك بنا، وحتى أنه يحرك ذراعنا حينما نستخدمها ضد أوامره. ليست إرادتي هي التي ترفع ذراعي، بل الله هو الذي يحركها بمناسبة إرادتي. لا يستطيع الإنسان الانفصال عن الله الذي يسمح له مع ذلك بشيء من الحرية. عندما نفعل الخير فإن الله هو الذي يفعله بنا. الإنسان ليس مسؤولاً عن أفعاله الخيرة بل عن أفعاله الشريرة. إذا كان هناك شر في العالم فذلك لأن الله أهمل عمله قليلا ؛ وكان يجب حدوث ذلك من جهة أخرى لأن العالم منزل الخطاة. "

مثل هذه التأكيدات ستبدو صبيانية اليوم. ولكن علينا ألا ننسى مع ذلك أن مفاهيماً مشابهة قد زعزعت العالم. ولا تنتمي هذه الضلالات اللاهوتية حصرا إلى ماض انقضى، بل أيضا إلى الحاضر، وربما إلى المستقبل أيضا. فالمعتقدات السياسية الحالية التي تنخرنا تنتمي إلى صنف أدنى وسوف يضعها أحفادنا في مستوى المعتقدات السابقة ذاته. قصر النظر الشديد لدى المدافعين عنها يدعمه غالبا إيمان مشابه لإيمان اللاهوتيين، وهم المتابعون لنهجهم. إذ أن دوافع عاطفية ودينية هي وحدها من يوجه خطاهم ومن واقع

هذه الحال تجعلهم خطرين. إن البلاد يمكن أن تعيش على الرغم منهم وليس بفضلهم.

لقد ادعى المؤمنون في كل العصور عقلنة دينهم، دون أن يفهموا أن قوته كانت تنتج بالضبط من واقع أن أية محاكمة عقلية لم تكن لها سلطة عليه. التأثير الوحيد الممكن للعقل على الاعتقاد الديني هو في جعله يعتبر حكايات الكتب المقدسة رموزا بسيطة تتناقض بقوة مع العلم الحديث، وقد توصل إلى ذلك بسهولة الكثيرون من البروتستانت بوصفهم أقل انغلاقا من الكاثوليك في عدد من التعاليم الصارمة وبالعكس من ذلك فنحن نعرف أن المحاولة المدعوة بالتحديثية التي قام بها بعض اللاهوتيين الكاثوليك قد فشلت تماما. ولا ينبغي للمؤمنين الحقيقيين أن يأسفوا لذلك. فلا شيء أشدُّ عبثية من ذلك بالنسبة لدين ما وعندما تشكل مجموعة من المعتقدات كتلة واحدة فلا يجب المساس بها كثيرا.

تفكك دين ما إلى طوائف متنافسة، متصارعة دوما، لا يمكن أن يحصل في الأديان المتعددة الآلهة. فهي أيضا تطورت لكن عبر إلحاق ثم دمج الأرباب الجدد، المعتبرين جميعهم كليّ القدرة وبالتالي مقدسين. ولهذا السبب فإن الحروب الدينية التي اجتاحت أوروبا كانت غير معروفة تقريبا في العصور الوثنية القديمة.

لقد كانت نعمة كبيرة إذن بالنسبة للشعوب أنها بدأت بتعددية الآلهة، وأنا أعتبر وخلافا لرأي واسع الانتشار جدا، أنها كانت ستريح الكثير لو وقفت عندها. فديانة التوحيد بدل أن تشجع التقدم أخرت الشعوب من خلال الصراعات الدامية التي ملأت العالم بها، كما أعاقت طوال قرون تطور الفنون والفلسفة

والآداب التي طورها اليونانيون متعددو الآلهة إلى الدرجة التي تجعلنا نعتبرهم معلمينا.

ولا يمكن اعتبار وحدة المشاعر التي تتحقق في النهاية بفعل الحروب، والمحارق والتحريم، نقطة في صالح ديانة التوحيد. فتقديس الوطن كان كافيا لمنح الرومان المتعددي الآلهة، أيام مجدهم، وحدة في المشاعر لم يفتها شيء على الإطلاق.

ولو اعتبرنا وفقا لقول الكثير من المؤرخين وأشباه الفلاسفة مثل رينان أن ديانة التوحيد كانت تشكل تفوقا، فإنه سيجب وضع الإسلام فوق جميع الديانات التوحيدية، فهو الدين التوحيدي الوحيد نوعا ما. أقول نوعا ما، لأن الديانات التوحيدية الحقيقية لم توجد إلا في الكتب. فالمسيحية على سبيل المثال، سرعان ما ألحقت بها جوقات من الملائكة والقديسين والشياطين تتطابق تماما مع الآلهة الثانويين في العالم القديم ويتم تقديسها أو خشيتها مثلهم تماما. تعددية الآلهة الثانويين في الأديان التوحيدية وانقسام هذه الأديان السريع إلى طوائف يبيّنان بالتأكيد أن التوحيد مفهوم نظري ولا يتوافق نهائيا مع حاجاتنا العاطفية والدينية.

تغيرات المعتقدات المشار إليها في هذا الفصل تمثل أهمية تاريخية كبرى بسبب الدور الذي لعبته ؛لكن من وجهة النظر الفلسفية فإن سردها لا فائدة فيه. فالاعتقاد يشكل الغذاء الذي تتطلبه حاجتنا إلى الإيمان، تغيَّر الغذاء وسوف يتغيَّر أيضا، لكن الحاجة ستظل أبدية طالما بقيت الطبيعة البشرية على حالها.

الفصل الخامس

كيف تموت المعتقدات

1 ـ الطور الحرج للمعتقدات وانحلالها

بقدر ما يتطابق عنوان هذا الفصل مع المعنى التاريخي فإنه ليس كذلك مع المعنى الفلسفي. فالمعتقدات تشبه الطاقة في الفيزياء الحديثة، المعتقدات تتحول أحيانا لكنها لا تفنى على الإطلاق. تغير اسمها والحال أن هذه الظاهرة هي ما يمكن اعتباره موتها.

إذن، بعد أن تشيخ العقائد ببطء تواجه ألقانون العام، فتتلاشى وتنطفئ. اختفاؤها أو الأصح في الحقيقة، تحولها، يظهر بداية في شكل طور حرج، غالبا ما يكون مسببا للاضطرابات.

يبين علماء الفيزياء أنه حين يكون جسم ما قريبا من نقطته الحرجة، فإن أي تبديل طفيف في درجة الحرارة يجعله ينتقل فجأة من الحالة الغازية إلى الحالة السائلة أو بالعكس.

هذه النقطة الحرجة تُلاحظ أيضا في الكثير من الظواهر الاجتماعية. فالبلد المستورد للذهب أو لبعض البضائع الأخرى يمكن على سبيل المثال، أن يصبح فجأة مصدرا لها، تحت ضغط تأثيرات طفيفة جدا. هذه الظاهرة العامة جدا في الفيزياء وفي

الاقتصاد السياسي، تظهر أيضا في حياة المعتقدات. فبعد اهتزازات متنوعة وإضعاف مستمر، تصل أحيانا إلى نقطة حرجة ويمكنها عندئذ أن تتحول فجأة.

هذا الطور، حيث تتجاور الارتيابية والإيمان، ينتج حينما يزعزع الزمن أو دوافع أخرى المعتقدات، وقبل أن تتضح بجلاء المعتقدات التي ستحل محلها. سيتشبث المدافعون الأخيرون عن العقائد المتفككة بقوة دون أن يؤمنوا بها كثيرا، إذ يبدو أنهم يخشون " هذا السأم الذي لا شفاء منه، الذي يتحدث عنه بوسييه، والذي يشكل مضمون حياة البشر منذ أن يفقدوا حب الله". وفي الواقع، فإنهم لم يفقدوه مطلقا، إذ ثمة أرباب جدد تأتي لتحلّ محل الأرباب السابقين الذين ماتوا أو كانوا في سبيلهم للموت.

لكن هذا الانتقال من آلهة إلى أخرى لا يتمّ دون صعوبات جمّة. وقد تحقق ذلك على سبيل المثال لدى سقوط الوثنية.

إننا نجتاز تحديدا عصرا من عصور عدم الاستقرار هذه حيث تجد الشعوب أنفسها موزعة بين تأثيرات الآلهة القديمة وبين تأثيرات الآلهة التي في طور التشكل. ويشكل عصرنا واحدة من النقاط الحرجة في تاريخ المعتقدات.

بانتظار تبني ديانة جديدة كبرى، تطفو الروح الشعبية بين عقائد صغيرة مؤقتة، دون استمرارية لكنها ليست دون قوة. فهي تمارس غالبا سلطة عظيمة الشأن، تحميها بعض الجماعات، أو اللجان، أو الأحزاب. ويعتبر أمثلة على ذلك تأثير النوادي في عهد الثورة، والمجامع الماسونية في صفوف البرجوازية، والنقابات في

صفوف الطبقة العاملة، واللجان الانتخابية في المدن. وعلى الرغم من كون هذه المعتقدات الصغيرة سريعة الزوال غالبا، فإنها تولّد أثناء بقائها، إيمانا صلبا.، وعليها تتركز الحاجة القاهرة للاعتقاد التي بينّا قوتها سابقا. لكنها لا تستطيع مع ذلك أن تحلّ نهائيا محل المعتقدات العامة. وفي حين تكون كنائس الجماعات في تنافس دائم، فإن العقائد الكبرى تمتلك سلطة جعل المصلحة الفردية تتلاشى أمام المصلحة الجماعية. ومن الواضح أننا لسنا في تلك المرحلة اليوم. فالأوامر الصارمة العامة المتعلقة بالزمن القديم أصبحت أوامر صغيرة للطوائف، وليس ثمة ما يجمع بينها سوى كره شديد لنظام الأشياء القائم. وألواح الوصايا لم تعد هي ذاتها بالنسبة لجميع أسباط بني إسرائيل.

2 ـ تحول المعتقدات الدينية إلى معتقدات سياسية

إذا ما تفحصنا العصر الحديث بالإجمال، سيبدو أنه بّدل كل سلالم القيم، وفي الحقيقة قام على وجه الخصوص بتعديل أسمائها. ويشكو أتباع العبادات الشائخة من قلة إيمان الأجيال الجديدة. ومع ذلك فإن الجماهير لم تبدٍ، ربما على الإطلاق، حاجة للإيمان أشد عمقا مما تبديه في عصرنا. فالإيمان الديني بتحوله إلى إيمان سياسي تغيّر تغيرا طفيفا جدا. فالإيمان بالمعجزة، وعبادة القوى الخارقة ظل متشابها. وورثت القدرة الدولتية القدرة الإلهية القديمة.

الاعتقاد العادي هو فعل إيماني. و سواء تعلق بكائن أعلى أم بقدرة إلهية، فإنه يتكون من الحاجة للخضوع وللعبادة.. اعتقدَ وعبدَ

غالبا ما تكونان مفردتين مترادفتين. يميل المؤمن دائما إذن إلى تأليه موضوع عبادته. مارا الذي وجب أن تُرمى جثته بعد زمن قصير في المجارير، جرى تأليهه غداة موته، وألفت تراتيل دينية تمجده وكان نابليون يُعتبر في نظر جنوده إلها لا يُغلب. وقد عُبدت رفات ضحايا القمع الفوضويين من قبل أنصارهم.

ولن يصبح أي معتقد شعبيا حقا إلا عندما يتم تجريده في صور أشخاص أو أشياء واجبة التقديس. وقد رأينا ذلك بوضوح أثناء الثورة، فقد كان من أولى اهتماماتها إيجاد آلهة ما لتحلّ محل الآلهة القديمة. جرت عبادة الإله عقل، الذي اختير في البداية، في كنيسة نوتر دام بطقوس تشابه جدا تلك التي كانت تجري منذ قرون عديدة.

وهذا العصر، ولا يسعني أن أكرر أكثر، لا يمكن فهمه إلا إذا فهمنا الدور الذي لعبه تدين الشعب وقادته فروبسبيير، التجسيد الأنموذجي للعقلية الدينية الضيقة في عصره، كان يظن نفسه رسولا كلفته السماء بمهمة إقامة مملكة الفضيلة. وبوصفه تأليهياً متشددا ومحافظا جدا، والراهب الأكبر لتيوقراطية جديدة، اعتبر أن واجبه المقدس يقضي بالحكم دون رحمة على "أعداء الفضيلة"، وكما قضاة محاكم التفتيش سابقا، فإنه لم يوفر أحدا. وكانت خطبه تذكر الكائن الأسمى. بينما كان نصيره المتعصب كوتون يدعو أيضا في كل لحظة رب السموات. وكانت المحاكم الثورية تشبه جدا محاكم التفتيش، لم يكونوا يعبدون تماما الآلهة ذاتها لكنهم كانوا يغذون الأحقاد ذاتها ويتابعون الهدف ذاته: اضطهاد غير المؤمنين.

لقد أسهبت كثيرا في كتب سابقة في شرح تطور الاشتراكية نحو شكل ديني بحيث لا ينبغي أن نتوقف عندها مطولا هنا. ولو كان لديها إلهٌ محددٌ يجب عبادته لكان نجاحها أسرع بكثير. ويشعر رسلها غريزيا بهذه الضرورة لكن لأنهم لم يجرؤوا على عرض رأس المنظر الأول لهذه العقيدة، اليهودي كارل ماركس، للعبادة الشعبية، فقد توجب عليهم العودة نحو الإله عقل. وقد أوردت في كتابي علم النفس السياسي مقطعا من الصحيفة الاشتراكية (الأومانيتيه) يخبرنا أنه في جلسة تدشين إحدى المدارس الاشتراكية، فإن مدرس السوربون الشاب المكلف بإلقاء الدرس الأول: " وجه، كما كان يجدر، ابتهالا إلى الإله عقل ". ولسوء الحظ، فإن الآلهة المجردة لم تغرِ الجماهير على الإطلاق، ولهذا فإن الدين الاشتراكي يمتلك تعاليم، لكنه مازال ينتظر ال (الله) الخاص به. لن يكون بالوسع انتظاره مطولا. فالآلهة يولدون دائما حيثما تستدعي الحاجة ولادتهم. وتتعلق قوة الاعتقاد الجديد على وجه الخصوص، وقد كررت ذلك غالبا، بواقع أنه وريث المفاهيم المسيحية. فقد استعارت التعاليم الاشتراكية من المسيحيين الأوائل، بالإضافة إلى تصوفهم، الحاجة إلى المساواة، والغيرية، والحقد على الثروات. وقرابة العقيدتين شديدة لدرجة أن الكاثوليكية في بلجيكا أصبحت الحليف الأكيد للاشتراكية. فقد أيدت علنا الإضرابات و شجعت صراع الطبقات.

رسل المذهب الاشتراكي هم أيضا لهم النغمة الحماسية والتنبؤية التي كانت للمدافعين الأوائل عن المسيحية.، ولا أتحدث هنا عن منشورات الأشياع العاديين فقط، لكن عن منشورات

الأشخاص المثقفين. وقد سنحت لي فرصة أن أذكر في كتابي الأخير، مقاطع مميزة من نص من هذا النوع، نشره مدرس في الكوليج دو فرانس، تحول، كما فعل بوليوكت قديما، إلى المذهب الجديد، راغبا في تدمير الآلهة المزيفين. وتبين قراءة هذه المقاطع بوضوح أن العالم نفسه لا يستطيع الانضمام إلى حلقة المعتقد دون أن يفقد اعتداله وحسَّه النقدي. وبعد أن انحط عدة درجات في السلّم العقلي، يفقد الإحساس بالواقع. فالسخافات وأعمال العنف و الاستحالات لن يسعها أن تصدمه لأنه يكفّ عن رؤيتها. من غير المجدي لوم أحد. فالاعتقاد هو سيد لا يُقاوم وجاذبيته يبدأ مفعولها منذ أن يقترب المرء من دائرة تأثيرها.

وسواء كانت المعتقدات ثابتة أم عابرة فإنها مثّلت دائما، وأكرر ذلك أيضا، العوامل الكبرى في حياة الأمم. لا يُساس الشعب بالأفكار الصحيحة، بل بمعتقدات يعتبرها صحيحة. اليوم، لا ريب أن بيلاطس قد لا يعود لطرح السؤال الذي لم يقم أي فيلسوف بالإجابة عنه بصورة نهائية مطلقا. لكنه قد يقول بما أن الحقيقة هي ما يؤمن به المرء، فإن كل اعتقاد قائم يشكل حقيقة. حقيقة مؤقتة دون شك، لكن بحقائق من هذا النوع كان العالم يُقاد دائما.

الكتاب التاسع

أبحاث تجريبية حول تشكل المعتقدات وحول الظواهر اللاواعية التي تنتجها

الفصل الأول

تدخل الاعتقاد في دائرة المعرفة نشوء الأوهام العلمية

1 ـ لماذا تظل المعرفة مختلطة دوما بالمعتقدات

لا يستطيع أي عالم أن يفاخر بخروجه الأبدي من دائرة المعتقد. فعند دراسة الظواهر المعروفة بصورة جزئية، يكون مضطرا لصياغة نظريات وفرضيات، أي اعتقادات، ووحدها سلطة واضعها تجعلها مقبولة.

وحتى بالنسبة للظواهر المدروسة جيدا، نكون ملزمين، حينما لا نستطيع إثبات صحتها كلها، أن نقبلها بوصفها اعتقادات. ولم تكن تربيتنا المدرسية إلا فعل إيمان بنظريات فرضتها هيبة المعلم. وكان يجب، لأجل هذا السبب، أن تكون تجريبية أحيانا، بقصد تعريف التلميذ بإمكانية التحقق من صحة التأكيدات التي تُفرض عليه، وتعليمه أن الملاحظة والتجربة هما الأساس الوحيد لليقين الحقيقي. واستحالة التحقق من صحة مجموع معارفنا تجعل نصيحة ديكارت المعروضة في كتابه خطاب في المنهج، نصيحة خيالية: " لا أقبل إطلاقا بصحة أي شيء لا أعرف بوضوح أنه كذلك،

وأرفض بوصفها خطأ كل الأشياء التي يمكن أن يداخلني أدنى شك بها."

لو كان ديكارت قد حاول تطبيق تعاليمه لما كان سيعتبر بعض الأمور التي باتت تثير ضحكنا اليوم، بأنها واضحة. لقد كان مثله مثل جميع معاصريه وعموم خلفائه، خاضعا للاعتقاد. فالريبية أو الشكوكية الأكثر اتساعا هي في الحقيقة جزئية دائما، يقول لوك: " إن ذاك الذي لا يرغب في أمور الحياة العادية بقبول أي شيء إن لم يكن مبنيا على تفسيرات واضحة ومباشرة، فإنه لن يكون واثقا من أي شيء سوى من موته بعد زمن قصير جدا. لأنه لن يجد أي طعام يأكله أو شراب يشربه يمكنه أن يجازف بتناولهما."

ويمكن أن نضيف أيضا أن التحليل النقدي لآرائنا وليقيننا ربما يجعل وجود المجتمع مستحيلا. إن دور الاعتقاد هو بالضبط أن يجنبنا مثل هذه التحليلات.

وبما أن العالم ملزم بقبول قسم كبير من الحقائق العلمية على أنها اعتقادات، فلن نُدهش من رؤيته يبدي أحيانا سذاجة مثله مثل الجهلة، وفي الموضوعات البعيدة عن تخصصه ربما يفوق الجهلة قليلا في ذلك الأمر.

هذه الأسباب تفسر لماذا يكون علماء أجلاء ضحايا أحيانا لأكبر الأوهام. وبعد مواجهة الأمر بوصفه وقائع علمية عادية بعيدة عن الأهواء سنكون مستعدين لفهم كيف أن بعض المعتقدات المتعلقة بالتنجيم، المماثلة لممارسات السحر القديم أمكنها أن تكون مقبولة من مختصين مشهورين.

2 ـ نشوء الأوهام العلمية

نظرا لأنه لا يمكن إعادة إجراء جميع التجارب، فإن مبدأ السلطة يظلُّ، كما قلت سابقا، دليلنا الرئيسي. فنحن نصدق المؤلف الذي تعزز طرحه هيبةٌ يتمتع بها، مفترضين، وهو أمر صحيح في الأصل، أنه لن يعرض نفسه للتكذيب بإطلاقه تأكيدات مغلوطة. وفي أغلب الأحيان تجري الأمور على هذا النحو. إن العالم لن يعلن على الإطلاق شيئا يعتقد أنه غير دقيق. لكن تأثير الإيحاء يبلغ من القوة بحيث أنه حتى حول وقائع محددة جدا، فإنه يمكن لعالم مرموق أن يضلّ ويحسب تخيلاته حقائق واقعية. وقصة أشعة N المدوية التي وصل الأمر حد أن علماء فيزياء مشهورين قاسوا معامل انكسارها في حين أنه تبين فيما بعد أن وجود هذه الأشعة وجود تخيلي، تعتبر مثالا ساطعا على هذا الموضوع.

سوف نلح على هذه الوقائع، لأنه بالكشف عن الأخطاء الممكنة في دراسة الظواهر الفيزيائية، الخاضعة إلى إجراءات صارمة، فإن هذه الوقائع تجعلنا ندرك كم يكون سهلا الوقوع في الوهم في مواجهة ظواهر تحتمل فقط عدم التحقق الكافي منها. ولكي نثبت أن الهيبة، والإيحاء، والعدوى يمكنها أن تولّد لدى كل العقول، بما فيها الأكثر ارتقاء، معتقدات وآراء مغلوطة، سنختار أمثلتنا من أخبار العلماء فقط.

أحد الأمثلة الأكثر إثارة يتمثل في القصة التي كان ضحيتها، منذ أربعين عاما تقريبا، كل أعضاء أكاديمية العلوم تقريبا، والتي أوحت لألفونس دوديه برواية الخالد **l' Immortel**. بالاستناد إلى مهندس مشهور، محاط بهالة كبيرة من الهيبة، إعتُبر المجلس

المرموق مئات من رسائل مفترضة لنيوتن وباسكال وغاليليو وكاسيني الخ.... أنها رسائل صحيحة وأدرجها في تقاريره، وكانت هذه الرسائل مصطنعة ومكتوبة بقلم مزور قليل الثقافة، وتتضح بالسوقية وبالأخطاء بيد أن أسماء كتابها المزعومين واسم العالم الذي كان يعرضها فرضت قبولها التام ولم يخالج غالبية الأكاديميين ولا السكرتير الدائم أي شك فيما يتعلق بصحة هذه الوثائق إلى أن إعْترف المزور ذاته بذنبه. بعد سقوط الهيبة، أعلن عن ركاكة أسلوب الرسائل الذي كان قد اعتبر رائعا وخليقا جدا بالكتّاب العباقرة الذين نُسب إليهم تأليف هذه الرسائل.

كان التأكد من الصدقية في المثال السابق صعبا بالنسبة لعلماء غير مختصين، ومستدين بالطبع لسلطة زميل لهم. وفي الحقيقة، فإن المتخصصين من أعضاء الأكاديمية خدعوا بالسهولة ذاتها التي يخدع بها الجهلة. كما أن هذا الاعتراض، من جهة أخرى، يزول أمام وقائع أخرى أقرب، حيث كانت الأخطاء المرتكبة من فعل المتخصصين فقط.

أحد أغرب الأفكار الوهمية الجماعية التي تولّدها الهيبة والعدوى، كان الوهم الذي فرضه منذ حوالي خمسة عشرة عام، عالم فيزياء مشهور، هو السيد بيكيريل، مدرس الفيزياء في مدرسة البوليتيكنيك.، فقد عرض مطولا ولعدة مرات، في تقارير أكاديمية العلوم، تجارب دقيقة تثبت بشكل قاطع، بحسب رأيه، أن اليورانيوم يصدر إشعاعات قابلة لأن تُستقطب، وأن تتكسر، وأن تنعكس، وبالتالي فهي مشابهة للضوء الصادر عن الأجسام

المشعّة. وخلال ثلاثة أعوام - وعلى الرغم من التأكيدات المضادة لفيزيائي فرنسي يعرفه قراء هذا الكتاب - فإن الأكاديمي الشهير أصر على خطئه وأشرك فيه كل علماء أوروبا. وقد تمّ الاعتراف بهذا الخطأ فقط عندما أثبت عالم أمريكي، جعله البعد في مأمن من تأثير الهيبة، عبر تحقق بسيط، أن هذه الأشعة التي لا تتكسر ولا تنعكس، كانت شيئا مختلفا عن الضوء. ومن وجهة نظر استنتاجاته العلمية كان الخطأ جسيما، أما أمر أنه ظل شائعا ومشتركا لثلاثة أعوام فربما يكون أمر ا غير مفهوم دون تفسيرات علم النفس.

إن حكاية الأشعة N التي سبق أن أشرت إليها، هي أكثر نموذجية كذلك. فهي تكشف ليس فقط دور الهيبة لكن أيضا دور كل من الإيحاء والعدوى الذهنية.

لم يعد الأمر يتعلق، كما في الحالات السابقة، بتجارب تمّ قبولها بثقة من الجميع دون التحقق من صحتها، بل بتأثير ملاحظات اعتبرت دقيقة لجمهرة من العلماء الذين تخيلوا أنهم تحققوا من صحتها. وعلى الرغم من أن هذه القصة معروفة جدا فسوف نذكرها بإيجاز.

كان السيد بلوندلو العضو المراسل المتميز لأكاديمية العلوم، ومدرس الفيزياء الشهير، يعتقد أنه اكتشف أن عددا كبيرا من الأجسام تصدر أشعة خاصة، وصفها بالأشعة N وكان يمكن كشفها من خلال تأثيرها على الأجسام المتفسفرة، كما يمكن قياس طول موجتها بدقة. ونظرا لأن المؤلف يتمتع بسلطة كبيرة، فإن زعمه قُبل دون اعتراض من قبل غالبية العلماء الفرنسيين،

الذين كرروا تجاربه ليكتشفوا تماما ما كان قد أوحي إليهم أن يروا فيها. وخلال عامين، نشرت تقارير أكاديمية العلوم ما لا حصر له من الملاحظات لمختلف علماء الفيزياء المحترفين ؛ بروكا، ت. بيكيريل، بيشا الخ.... حول خواص هذه الأشعة، التي تزداد إدهاشا كل يوم. وكان السيد ج. بيكيريل يزعم أنه ثبتها بالكلوروفورم. وكان علماء متميزون، وخاصة السيد دارسونفال، يقومون بإلقاء محاضرات حماسية حول هذه الخواص.

أكاديمية العلوم التي رأت ضرورة مكافأة اكتشاف على هذا القدر من الأهمية، كلفت عددا من أعضائها من بينهم الفيزيائي ماسكار، بالذهاب إلى مخبر المؤلف للتحقق من دقة أبحاثه، فعادوا مبهورين ومُنحت جائزة قدرها 50 ألف فرنك للمكتشف[1].

خلال هذه المدة، كان بعض علماء الخارج من الذين لا يمارس علماء الفيزياء الفرنسيون أية سلطة عليهم، يكررون التجارب عبثا ودون نجاح، فقرر عد د منهم إذن الذهاب لمراقبتها عند مخترعها. وسرعان ما اكتشفوا أن هذا الأخير كان ضحية لأوهام كبيرة، وذلك باستمراره على سبيل المثال بقياس انحرافات الأشعة N تحت تأثير موشور على الرغم من أن هذا الموشور جرى عزله خلسة في العتمة. الخ..

---

[1] كان من المقرر بداية تخصيصها من أجل الأشعة N لكن في آخر لحظة ونتيجة لزيادة في التروي والذي بدا مبالغا فيه بالنسبة لبعض أعضاء اللجنة، أعلن التقرير منح جائزة الخمسين ألف فرنك للسيد بيكيريل عن كامل أعماله، دون تخصيص أي منها.

بدأت المجلة العلمية عندئذ تحقيقا واسعا شمل جميع علماء الفيزياء في العالم، وكانت نتائجه كارثية بالنسبة للأشعة N ووجب الاعتراف أنها كانت النتاج المحض للإيحاء الذهني وللعدوى ولم يكن لها أي وجود على الإطلاق.

بعد أن دُمّر الإيحاء، لم ينجح أي عالم فيزياء فرنسي من العلماء الذين كانوا مقتنعين بأنهم رؤوا الأشعة N برؤيتها مرة واحدة جديدة. والإشارات إلى موضوعا التي كانت غزيرة في السابق في تقارير أكاديمية العلوم انقطعت فجأة وكلية.

هكذا، وطوال عامين، آمن علماء الفيزياء المحترفون، لدرجة أن قاسوها بدقة، بوجود أشعة لا وجود لها إلا في مخيلتهم ومن خلق الإيحاء فقط.

هذه القصة العجيبة تبين في ذات الوقت، سطوة الهيبة والإيحاء والعدوى. وتسلط الضوء القوي على تكون المعتقدات، وتكوّن الكثير من الحوادث التاريخية وكل الظواهر السحرية. وفيما يتعلق بهذه الأخيرة يمكن القول إنّ المراقبين للتجربة يعيشون بالإيحاءات وحينما يرى المرء ما يمكن للإيحاءات أن تفعله في الموضوعات العلمية يتأكد من هيمنة دورها في تكون الظواهر العجيبة.

لم أشأ هنا تقصي إلا الأوهام العلمية الشهيرة، المتعلقة بأحداث لها أهمية كبيرة. ولو كان يجب سرد الأخطاء العلمية، الناجمة عن تأثير الهيبة بشكل مفصل، فإن مجلدا كاملا لن يكون كافيا لها. وسأكتفي بسرد قصة أخرى أيضا.

منذ عدة سنوات، اعتقد أحد طلبة السيد ليبمان - ملاحظة ذات أهمية كبرى – أنه اكتشف أن جسما مكهربا متحركا لم

يكن يحرف إبرة ممغنطة. كان مؤلف النظرية مغمورا لكن بما أنه أجرى تجاربه تحت إشراف وبمساعدة السيد ليبمان فقد استفاد من السلطة الكبيرة التي يتمتع بها أستاذه وجرى الاستماع له من قبل كل علماء الفيزياء إلى أن جاء يوم أثبت فيه عالم أجنبي أن الطالب والأستاذ وقعا في خطأ شنيع.

باستثناء حالة مزوّر الرسائل، لم أشر، لاحظوا ذلك، إلا إلى الأحداث العلمية المفترض أنها القابلة للقياسات الدقيقة، والخاضعة للمراقبة الصارمة. ولهذا السبب، من جهة أخرى، فإن الأخطاء العلمية دائما ما يتمّ، عاجلا أم آجلا، الاعتراف بارتكابها.

أما في العلوم في طور التكون، كالطب على سبيل المثال، حيث تكون عمليات التحقق من الصحة في منتهى الصعوبة – لأننا لا نعرف على الإطلاق أية نتائج ننسبها للإيحاء وأيها ننسبها للدواء – فتستمر الأخطاء بوتيرة أعلى. وتعدادها سيعني سرد تاريخ الطب واثبات أن النظريات، والأدوية، والبراهين تتغير كل قرن. ولن أسوق إلا مثالا واحدا من بين أمثلة كثيرة.

منذ حوالي الخمسين سنة، اعتبر علاج الالتهاب الرئوي بالفصد واحدا من أجمل الفتوحات في الفن الطبي. وكانت قيمته تبدو مثبتة بأكثر مما يكفي من خلال أرقام إحصائية، تبين أن بفضله لا يموت إلا ثلاثون مريضا من بين كل مئة مريض. استمر استخدام هذا النظام الثمين إلى أن وجد طبيب أريب كان في زيارة لمشفى تجانسي في لندن أن عدد أموات الالتهاب الرئوي فيه لم يكن يتجاوز إطلاقا الخمسة من بين مئة وتسعة مرضى بدلا من

ثلاثين من أصل مئة مريض في فرنسا. وكان ذلك إشراقة. بما أن الأدوية التجانسية، قال لنفسه، تكون مخففة جدا لكي تفعل فعلها، فإن العلاج الحقيقي يكون في عدم القيام بأي شيء.

أدى تطبيق هذا العلاج في فرنسا إلى خفض عدد الوفيات في الحال إلى مثيله في إنجلترا. لقد كان الأطباء يقتلون إذن بالعلاج بالفصد خمسة وعشرين بالمئة من مرضاهم. واليوم يقومون بدلا من إضعافهم بمثل هذه العملية، بدعم قواهم بإعطائهم الكحول.

مضاعفة الأمثلة ربما لن يضيف شيئا لما أردت إثباته. فالقارئ بات مقتنعا، كما آمل، أن معظم أرائنا العلمية يجب نعتها بالمعتقدات وليس بالمعارف. فأن تكون معتقدات، فذلك لأنها تتشكل بفعل تأثيرات متعددة: الهيبة، التوكيد، الإيحاء، العدوى، الخ... البعيدة جدا عن العقل لكنها أقوى منه بكثير.

وسوف نلقى عما قريب هذه المولدات المتحركة في التكوين المعاصر للمعتقدات الباطنية عند بعض العلماء.

الفصل الثاني

تكوين الاعتقاد حاليا
علوم السحر

1 ـ الفائدة من الدراسة التجريبية لتكون الاعتقاد

منذ بداية هذا الكتاب، بيّنا أن تفسير تكوّن وانتشار المعتقدات الكبرى التي قادت البشرية طوال قرون عديدة وما تزال تقودها، يعتبر مسألة صعبة.

وبعد أن حاولنا حلّها نظريا عبر طرق مختلفة، سوف نسعى لتطبيق المبادئ المعروضة في دراسة المعتقدات الجديدة، آخذين كمثال عليها أحد المذاهب الحديثة: علوم السحر، المحمّلة هي أيضا بالقدر ذاته من المعجزات التي حملتها المذاهب التي سبقتها. وإذا ثبت لدينا أن وقائع غير معقولة، جرى اعتبارها فيما بعد مستحيلة، كانت قد قُبلت بداية ودون صعوبات من قبل علماء أفذاذ، سنكون قد برهنّا تجريبيا أن العقل لا يلعب أيَّ دور في تشكل المعتقدات وأن هذه الأخيرة تحتل موقعا جيدا بفعل تأثير عناصر عاطفية ودينية، وصفناها عند دراسة مختلف أشكال المنطق.

ستكون برهنتي، أساسا، مستقلة عن الأهمية المفترضة للمعتقدات السحرية. حيث أني سوف أركّز على وجه الخصوص، على الوقائع التي اعتبرها معتنقوها ذاتهم فيما بعد خدّاعة، والتي كانت مع ذلك مقبولة بوصفها دقيقة من قبل العديد من العلماء. و هكذا سوف نرى أن القائم بالتجرية ما أن يدخل في دائرة المعتقد فإنه يقبل بسهولة الحماقات الأشد غرابة ويبرهن عن سذاجة تضاهي في قدرها سذاجة البدائيين.

و سوف تقدّم هذه البرهنة المثبتة الأدلة المؤكدة على دعم المبادئ المعروضة في هذا الكتاب وتوضح تجريبيا آلية ولادة وانتشار المعتقدات.

ولأن أيا منها لم ينبثق اصطناعا، كما كنا قد بيّنا، سيكون من الضروري البحث بداية في المعتقدات السابقة التي اشتُقت منها علوم السحر الحديثة.

2 ـ السحر في العصور القديمة والوسطى

كان الإنسان متعطشا دائما لمعرفة مصيره وللحصول على مساعدة القوى الخارقة التي كان يعتقد أنها تحيط به. ومن هذه الحاجات ولدت مختلف أشكال السحر.

وقد مارست هذا الفن كل الشعوب، وفي كل مراحل تاريخها. وكان استحضار الأرواح والتنجيم والعرافة، وهي فروع هذا الفن، يجري باستمرار في التاريخ القديم. فالعرافة باستخدام وسائل مختلفة وعلى الأخص أجوبة الآلهة التي كان يفسرها أشخاص مشابهون جدا للوسطاء الروحيين الحديثين، تمثل أوسع أشكال

السحر القديم انتشارا. وكانت الثقة بالإشارات المُستقبَلة على هذا النحو عامة. ففي روما شكلت العرافة دين دولة، وكان الكهنة مكلفين بشرح الظواهر فوق – الطبيعية، ويسمّون العرافون. وكان دورهم كبيرا؛ إذ كان قادة الجيوش يستشيرونهم قبل خوض المعارك وكانت آراؤهم تؤدي أحيانا إلى إلغاء بعض القوانين.

لم يُلغَ مجمع العرافين إلا في القرن الرابع من تاريخنا على يد الإمبراطور تيودوز، بفعل التأثير المتنامي للمسيحية. وكان إيمان الأقدمين بالتنبؤات المنسوبة إلى كائنات عليا، شبيهة بالأرواح لدى العلماء الروحانيين الحديثين، إيمانا عاما. وكان بعض العرافين مثل عراف ديلفي مثلا، يتمتعون بسلطة كبيرة بحيث كان الناس يأتون من جميع جهات العالم القديم لاستشارتهم.

صمت العّرافون، واختفى السحر الوثني مع انتصار المسيحية. ولكن كان لابد أن يعود من جديد في العصر الوسيط تحت اسم أعمال السحر والشعوذة. ونعرف الدور الذي لعبه ومدى قوته. وعلى الرغم من إحراقهم بالآلاف فقد ظل السحرة يظهرون دائما. وهذه القوة المنافسة للكنيسة أخمدها الزمن أكثر مما أخمدتها أعمال التعذيب.

كانت أعمال السحر تُمارس دائما بمساعدة الشيطان. وإذا كانت الشهادات التي لا تُحصى، والتأكيدات المكررة بإصرار، حتى المجازفة بالحياة، ، تكفي لإثبات وقوع عمل ما، فإن لا شيء سيكون مثبتا دون منازع أكثر من وجود محفل السبت. وفي الواقع فإنه لا يُحصى عدد الأفراد الذين اعترفوا بحضورهم إلى هذا المحفل ممتطين الهواء، أو حصاناً أو مكنسة، وأقاموا فيه علاقات جنسية مع الشياطين.

أعمال السحر والشعوذة التي كان العصر الوسيط مشبعا بها تبرز بالتأكيد بين الظواهر الأشد إثارة للفضول والأقل تفسيرا من علم النفس قديما.

ويظهر دور الإيحاء والعدوى الذهنية فيها على صعيد كبير. فالشهادات المتحصلة أثناء الدعاوي المتعلقة بأعمال السحر والشعوذة في مختلف البلدان متطابقة، وأوصاف الشيطان متشابهة، وطريقة الحضور إلى محفل السبت ذاتها في كل مكان.

ولا يبدو أن أية مصلحة شخصية أثَّرت على روح هؤلاء الهاذين. فقد كان الشيطان يقدم لهم القليل جدا بالفعل مقابل خلاصهم الأبدي، وكانوا يعرفون عندما اقتنعوا بممارسة السحر أنهم يعرضون أنفسهم لأبشع أنواع العذاب. وفوق ذلك، نادرا ما كانت ثمة حاجة إلى استخدام وسائل التعذيب للحصول على اعترافاتهم بالجرائم المزعومة. كان المتهمون يصفون راضين مشاهد محفل السبت. فقد كان الشيطان ينتظرهم متخذا أشكالا مختلفة: ضفدع، هر، كلب أسود، تيس، الخ... وكان يقدم لأتباعه طعاما يتألف عموما من بقايا الجثث، وتسالي محدودة متنوعة. وفضلا عن الرقص والعلاقات الجنسية مع شياطين قبيحة، أو ساحرات عجائز، كان الشغل الشاغل أكثر يتمثل في جلد الضفادع الكبيرة بقسوة لجعلها تنزف سائلا مخضرا لزجا يخصص لصناعة دهون ومساحيق سحرية.

صمد السحر قرونا وخلال هذه المرحلة لم يخالج شك واحد عقول القضاة حول وجود الحفلات الشيطانية التي كان يُحكى عنها. لم يتساءل أحد ما هو الدافع الذي كان يقود الكثير من

الأشخاص لبيع أرواحهم للشيطان مقابل متع متواضعة كأكل الجيف ليلا في أرض مقفرة. كيف أمكن ألا يولد الشك أصلا، خاصة عندما يعترف المجرمون بجرمهم؟ ولذلك كانوا يُحرقون دون تبكيت ضمير. في دوقية اللورين أُبيد حرقا أربع مئة ساحر خلال عشرين عاما.

لا ينبغي أن ننسب إلى كل ضحايا السحر، والمعتقدات المشابهة ذهنية بعيدة جدا عن ذهنية ناس اليوم. فالسذاجة الحديثة لا تقل عن سذاجتهم، لكنها فقط غيرت طبيعتها. سحرة العصور الوسطى هم سحرة السياسة العصريون، المبشرون بالأوهام، ومستحضرو الأرواح، والمتنبئات بالورق، والمسرنمون الصاحون والعرّافون من جميع الأنواع ينتمون إلى العائلة الكبيرة من أصحاب العقول المأسورة داخل دائرة الاعتقاد، غير القادرة إطلاقا على الفكاك منها. وفي هذا العالم الخادع لا وجود للمستحيل، وكان للهلوسات التي تتوالد فيه واقعية الأحلام العجيبة الظاهرية التي تلازم ليالينا أحياناً.

نجحت البشرية أخيرا في التخلص قليلا من هذه الدائرة الرهيبة التي كانت مسجونة داخلها، لكن هذا التحرر ظل حديثا جدا وغير كامل إذ أن ردة وراثية باهظة الوزن تشده إلى الخلف دون انقطاع.

وحين سنكون قد نجحنا بعد جهود كبيرة في الهروب من دائرة الاعتقاد ينبغي التذكر أن لا أحد يقترب منها دون أن يواجه جاذبيتها الخطرة.

لقد خاض علماء عديدون التجربة.، وقد اعتقدوا، مسلحين بأدواتهم ومناهجهم، أن باستطاعتهم الإفلات من المؤثرات القادرة

على جعل العقول المحدودة، حسب زعمهم، تهّلس ببساطة. فخُدِعوا في الحقيقة بسهولة كبيرة كما المؤمنين البسطاء. وكل تجهيزاتهم العلمية أفادت فقط في إعطاء بعض الأوهام، التي لم يكن المؤمنون أنفسهم يمنحونها ثقة كبيرة دائما، مظهر ثقة لم يكن لها أن تكسبه بطريقة أخرى.

3 ـ السحر في العصر الحديث وظواهر التجسد

أمام نجاحات الأفكار العلمية، تقوض الإيمان بالسحر. ولم يعد السحرة، وقد جُردوا من هيبتهم، يحظون بالمصداقية إلا في بعض القرى النائية الفقيرة. بيد أن حبَّ الغموض، والحاجات الدينية التي رعاها دين قديم جدا رعاية سيئة، والأمل بالنجاة من القبر، مشاعر متأصلة جدا لدرجة أنها لا يمكن أن تموت. وهكذا كان لابد للسحر القديم من أن يظهر ثانية من جديد مغيرا إسمه دون أن يتغير كثيرا. فبات اليوم يُدعى علوم السحر واستحضار الأرواح، وصار العرّافون يُسمون بالوسطاء، والآلهة الموحية للعراف تُدعى الأرواح، واستحضار الأموات يُدعى التجسيد.

لقد ازدرى العلماء هذا الاعتقاد الجديد زمنا طويلا؛ لكن منذ حوالي العشرين عاما صرنا نشهد هذه الظاهرة غير المتوقعة جدا: غدا بعض المدرسين المرموقين مدافعين متحمسين عن كل أشكال السحر. وهكذا بتنا نسمع علماء انتروبولوجيا ذائعي الصيت مثل لومبروزو، يؤكدون أنهم استدعوا أشباح بعض الموتى وتحدثوا معهم، وعلماء كيمياء مرموقين من أمثال كروكس،

الذي يعلن أنه عاش أشهرا مع روح تتجسد ثم تتلاشى كل يوم وعلماء فيزيولوجيا مشهورين مثل ريشي الذي يدعي أنه رأى محاربا يعتمر خوذة يولد فجأة من جسم فتاة، وعلماء فيزياء متميزين مثل ارسونفال الذي يروي أن وسيطا استطاع تغيير وزن جسم ما وفق رغبته تغييرا كبيرا. كما رأينا أخيرا فلاسفة مرموقين مثل السيد بوترو يتكلم بإسهاب في مؤتمرات لامعة حول الأرواح، والاتصالات الخارقة ويؤكد أن " ما تحت عتبة الشعور هي الفتحة التي يمكن للإلهي أن يدخل منها في الروح الإنسانية ".

والصحيح أن علماء آخرين يضاهونهم شهرة، رفضوا هذه الملاحظات، الناجمة حسب قولهم عن هلوسات مختلفة وغضبوا مما أسموه العودة إلى الأشكال الأشد انحطاطا من أعمال السحر والشعوذة.

أمام تأكيدات متناقضة إلى هذا الحد، ظل الجمهور المتعلم حائرا، متسائلا إذا كان من الممكن حقا أن يرتكب مراقبون أذكياء هذا الخطأ الفادح، ولماذا لم تُرَ مطلقا الوقائع المؤكدة حسب زعم مراقبين مختلفين من قبل علماء آخرين يعملون مع العناصر ذاتها وفي شروط متماثلة.

لن يسعنا فهم الأمر في الواقع إلا بعد التعمق في دراسة آلية تكون المعتقدات وكذلك دور الإيحاء الجمعي والعدوى. ينبغي أخيرا معرفة أن الوهم يتكثف جدا ضمن بعض الشروط المحددة، بحيث يُخلط بينه وبين الواقع. وبقصد تبيان سذاجة بعض العلماء البارزين اللامحدودة منذ أن يدخلوا في حقل الاعتقاد، سأختار الظاهرة السحرية الأكثر دراسة من قبلهم وهي المدعوة بالتجسيد.

وسوف نجد علماء فيزيولوجيا ذائعي الصيت يقبلون دون تردد أن كائنا حيا يمكن أن يتكون في الحال بعظامه، وأوعيته الدموية وأعصابه، وبكلمة، بكامل أجهزته. لنعرف بداية وحسب الروحانيين ما المقصود بالتجسيد:

" كلمة التجسيد، كتب الدكتور ماكسويل، تعني أن روحا، روح شخص ميت أو حتى روح شخص حيّ، يمكنها أن تطرح من جسم الوسيط" سائلا " أي عنصرا لاوزنياً، قادراً مع ذلك على التكثف والتحول إلى مادة. هذا العنصر يندمج في مادة ويترتب في أشكال متنوعة حسب إرادة الذهن الذي يحركه. وفي العادة يكون جسما مشابها للجسم الحيّ الذي يتخيّله الذهن، وهو يستعيد الشكل الذي كان عليه الميت في حياته إذا تعلق الأمر بشخص ميت. مثل هذه الأجسام توصف بالمتجسدة."

حسب علماء السحر، تكون كل الأجهزة محاطة بنوع من الغلاف المشكل من هذا العنصر اللطيف. وعدا عن جسدنا المادي نمتلك جسما ثانيا، " جسما كوكبيا " يمكنه أحينا الانفصال عن الجسم الأول بعد الموت. وقد يستطيع التجسد مستعيرا بعض العناصر المادية من جسم حيّ، جسم الوسيط على سبيل المثال.

من الطبيعي أن تظل تفسيرات مستحضري الأرواح حول مثل هذا الموضوع شديدة الغموض وتتنوع بحسب تخيل كل مؤلف. ينبغي فقط أن نفهم منها أن من جسم شخص حيّ يمكن في الحال أن

ينبثق كائن آخر، له الأجهزة ذاتها وليس مظهرها البسيط.

لقد كان لكاتي كينغ الشهيرة المتجسدة لوليامس كروكس في الواقع قلب منتظم جدا. وكانت رئتا الشبح مغطى الرأس المتجسد أمام البروفيسور ريشي ترشحان حمض الكاربونيك، كما تفعل رئتا الشخص العادي، وكما يمكن للمرء معاينته فيما لو جعلناه بنفخ الهواء عبر أنبوب في ماء الباريوم. فإذا لم يكن هذان العالمان الشهيران، وأولئك الذين سنتحدث عنهم لاحقا، ضحايا لخدع_ وستكون خدعاً كبيرة في الحقيقة – فإنهم يستطيعون التفاخر بأنهم شهدوا حدوث معجزات شبيهة بمعجزة الله في سفر التكوين عندما أخرج حواء من جسد آدم.

وبعد إظهار مثل هذه الأعاجيب، سيكون الإنسان في موقف ضعيف في إنكاره لأعاجيب التوراة. ولسوء الحظ، ففي كل مرة أمكن فيها تفحصها عن قرب أشد، كانت هذه الأشباح تتكشف عن وجود خدع حقيرة لدرجة أننا كنا بالتأكيد سنمرر هذا الموضوع بصمت لو لم يكن علماء بارعون جدا مخدوعين بها.

إن أوهام العالمين المذكورين أعلاه أو العلماء الذين يؤكدون، مثل لومبروزو، أنهم استحضروا أمواتا وتحدثوا معهم، تستمد جذورها بصورة ثابتة من الإيحاء وعمليات الخداع. ويمكن أن نعتبر، نتيجة لتأثيرات الإيحاء والخداع، التي تتمّ دائما في الظلام – الحالة الأخيرة لميللر المعروف، الذي قام بإظهار عدة أشباح على التوالي تحدثوا مع الحضور ولامسوه. ونظرا لثقته المفرطة بسذاجة الحضور، وهي سذاجة كبيرة في الواقع، آل به الأمر إلى إهمال بعض الإجراءات الاحتياطية، ففاجأه الجمهور متلبسا بالخداع.

واضطرت صحف الروحانيين التي كانت روجت له بحماسة شديدة، للاعتراف بخطئها.

وكذلك كانت نموذجية جدا حالة آنا روث، التي طبقت شهرتها كل برلين، إلى أن جاء يوم قام فيه رجال بوليس أذكياء بكشف ألاعيبها وقدموها للمحاكمة التي حكمت عليها بالسجن لمدة ثمانية عشر شهرا. وقد أسهب الدكتور ماكسويل في سرد حكايتها، وعنه أنقل التفاصيل التالية. وكانت هذه الوسيطة تعقد جلسات عامة تجسد خلالها أزهارا في الجو.

" هذه الظواهر الغريبة كانت تحدث بداية في أماكن مختلفة جدا عدا عن الجلسات. ففي أحد المقاهي جسدت قطعة كاتو؛ وفي مآدب العشاء التي كانت تحضرها، كانت الأزهار تتساقط من حولها، وتخرج من يديها وتنبت فجأة فوق أكتاف جيرانها.

واستمر الحال على هذا المنوال لعدة أشهر، ثم لسنوات، وتكاثر عدد الناس المنصرفين إلى السيدة روث، وحقق استحضار الأرواح نجاحات أقلقت البلاط وأثارت بعض الجدل.... في مساء أحد الأيام وبناء على أوامر آمر البوليس، هجم عدد من العناصر على الوسيطة أثناء إحدى الجلسات ووجدوا أن الأزهار المفترض أنها ناتجة عن التجسد كانت ببساطة أزهارا طبيعية ومخبأة تحت ثوب الوسيطة."

خلال عدد من الجلسات التي أقيمت في معهد علم النفس في

باريس وعندما شعرت الوسيطة أوزابيا بأنها تحت المراقبة، لم تقم إلا بمحاولات تجسيد قليلة جدا. وقد نجحت إحدى المرات، مع ذلك، في تخليص يديها من أيدي المراقبين، وأحاطت رأس أحد الحضور بذراع مفترض أنها ذراع الشبح والتي سرعان ما عُرف أنها ذراعها. في نابولي وعندما أدركت أنها تحت رقابة أخف وتعمل أمام حضور شديد الثقة بها أظهرت هذه الوسيطة ذاتها أعاجيب مذهلة.

والظواهر التي سوف أسردها كانت تجري بحضور البروفيسور بوتازي أحد العلماء الأوسع معرفة في إيطاليا. وبحضور مساعدين مرموقين، والتقرير الرسمي الذي سوف نلخصه نُشر في حوليات العلوم النفسية (آب، أيلول وتشرين من عام 1907).

كان السيد بوتازي ومساعدوه مقتنعين أنَّه من جسد أوزابيا يمكن أن تخرج ذراع أو يد لا مرئيتين تتيحان لها رفع طاولة تزن 22 كيلو وأن تحرك من مواضعها أغراضاً كثيرة. وقد قبل العالم الفيزيولوجي إذن كما يتضح، بتكون فوري لأعضاء لا مرئية قادرة على التحرك مثل الأعضاء الطبيعية.

بالإضافة إلى هذه الأذرع والأيدي اللامرئية يؤكد السيد بوتازي ومساعدوه أنهم شاهدوا تجسيدات مرئية جدا، وخاصة رأساً، تخرج من جسم الوسيطة. " وقال إنَّ الجميع رأى ظهوره، وقد شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، كما ظهرت أيضا أصابع وأيد." كل هذه الأيدي المرئية واللامرئية لابد أنها لامست الحضور وحركت ملامس آلات التسجيل، وحملت فوق الطاولة عددا من الأغراض القريبة من الوسيطة، ومن بينها ماندولين. وبفضل أصابعها اللامرئية عزفت أوزابيا على الآلة الموسيقية الموضوعة على بعد 60 سم عنها، وخطت فوق لوح صلصالي علامة، وأدارت زر

مصباح كهربائي الخ.... وأضاف الكاتب أن أوزابيا " تفحصت ولمست كل ما كان موجودا في الغرفة بيديها الوسيطيتين ". في الجلسة ذاتها تأمل المؤلف" ظهور وجهين بشريين باللون الطبيعي، شاحبين جدا وشبه شفافين ".

علماء إيطاليون آخرون معروفون، الدكتور فينزانو والبروفيسور مورسيللي الخ... أعلنوا أنهم شهدوا مع الوسيطة ذاتها ظواهر مشابهة وخاصة " شكل امرأة تحمل بين ذراعيها طفلا صغيرا ذا شعر قصير جدا. نظر المرأة كان يتجه نحو الأعلى بوضع ينم عن حبها للطفل". وعندما سئلت الوسيطة عمن تكون أجابت أن" هيئة المرأة هي لأم الآنسة آفيللينو، أما الطفل الذي تحمله بين ذراعيها فهو حفيدها ". خلال هذا التجسد، كانت القاعة مضاءة بنور غازي شديد الكثافة.[1] وهذا التفصيل الصغير يبين أن الضوء لا يمنع ظهور الأشباح، كما يزعم علماء الأرواحية، إذ يكفي أن يمتلك الحضور إيماناً قوياً. ومع ذلك، فأنا أعتقد مع الوسطاء أن الظلمة مناسبة أكثر لنمو الاعتقاد.

ويؤكد البروفيسور مورسيللي في مذكرة ضخمة حول ظواهر التوسط الروحاني[2]، تحولت إلى كتاب ضخم فيما بعد، أنه عاين دقة كل الظواهر السابقة وظواهر غيرها أيضا. ويحدثنا خاصة عن برد قارس تنشره الوسيطة. ويقول: " أيعقل أن يكون هذا رمزا لبرد القبور التي تنفتح للسماح بمرور الأموات؟ " وقد حضر " تجسد

[1] حوليات العلوم النفسية، آب 1907

[2] حوليات العلوم النفسية نيسان وأيار 1907

لامرأة مفصولة عن الجسد كانت عزيزة جدا على نفسه"، الخ...

ويؤكد العالم المدرس لومبروزو، في مقابلة نشرتها صحيفة لوماتان، أنه رأى، هو أيضا، أمه المتوفاة تتجسد وأنه تحدث معها.

لقد أشرت سابقا إلى أن النتائج في الجلسات التي كانت تجري مع الوسيطة أوزابيا كانت تتغير تبعا للبلدان وللمراقبين. ففي إيطاليا، وقد رأينا ذلك قبل قليل، كانت رائعة، ولم يحقق ولا حتى سحرة الأساطير معجزات أعظم من التي حققتها. في إنجلترا، كانت النتائج معدومة لأن اللجنة المشكلة لدراسة هذه الظواهر خلصت إلى أنها خداع في خداع.. في فرنسا، تأرجح النجاح تبعا لبيئة وذهنية الحضور، فكان كبيرا في أوساط المجتمع، وبالعكس كان ضعيفا جدا في الأوساط العلمية. وفي سياق مقابلة نُشرت في عدة صحف، صرح السيد آرسونفال أنه يعتبر ظواهر التجسد "عمليات خداع وبهلوانية "، و كذلك فإن معهد علم النفس، وبعد عدة جلسات: " لم يستطع ملاحظة جلسة لم يلعب الخداع دورا فيها."

وهذا الاستنتاج ذاته توصل إليه السيد داستر، عضو أكاديمية العلوم ومدرس الفيزيولوجيا في السوربون. لقد تفحصنا معا الوسيطة التي استُخدمت أثناء تجارب معهد البسيكولوجيا. وجرت الجلسات في مقرّي. لقد رأينا عدة مرات وفي عزّ النهار تقريبا يدا تظهر من فوق رأس الوسيطة، لكن عند مراقبة كتفيها من قبل مساعدي حيث كان ضوء جانبي لم تكن تدري به يسمح له بمتابعة كل الحركات، وسرعان ما حصلنا على الدليل بأن اليدين المتجسدتين كانتا بكل بساطة يدي الوسيطة الطبيعيتين المتحررتين من رقابة المراقبين. منذ أن شعرت أوزابيا بأنها باتت مشبوهة، توقف ظهور

اليدين تماما ولم تعاودا الظهور إلا بعد أن كففت عن المراقبة وذلك حينما نزلت عند رغبة بعض السذج من أصدقائي ووافقت على السماح لهم بحضور إحدى الجلسات. إن استنتاجات هذا الفصل تستوجب ببساطة التوسع فيها. وهي من جهة أخرى مهمة دون جدوى بالتأكيد. لأن المقتنعين سيظلون مقتنعين والمتشككين سيظلون متشككين. ففي مجال الإيمان لا دخل للعقل على الإطلاق.

4 ـ الأسباب النفسية لتكون المعتقدات السحرية

رأينا الدور الذي يلعبه الإيحاء والعدوى الذهنية في الظواهر العجيبة المرتبطة بالسحر وتأثيرهما حتى على العقول الأكثر معرفة. بيد أن هذا التفسير لن يسعه أن يكون كافيا. فمن أجل فهم نشوء الممارسات التي استمرت لدى الكثير من الشعوب عبر العصور ولا تزال قائمة حتى اليوم ينبغي الارتقاء نحو مفهوم أرحب وعدم محاولة أن نفسِّر بالعقل ما لا يخضع للعقل على الإطلاق.

وينبغي اعتبار السحر بجميع أشكاله مظهرا من مظاهر الروح الدينية التي لا تنفصل عن طبيعتنا والتي بيّنا قوتها. إن مؤسسي الأديان، والسحرة والعرّافين وناشري الكثير من الأوهام الذين فتنوا أو أرهبوا آباءنا ويعاودون الظهور دائما إنما هم كهنة آلهة قوية تهيمن على جميع الآلهات والتي يبدو أن عبادتها أزلية.

ولنتأمل في فكرنا وعبر الزمان والمكان آلاف الأبنية المقدسة التي أقيمت منذ ثمانية آلاف عام في المدن الكبرى ولنحاول اكتناه هذه القوى الغامضة التي قادت دون توقف إلى بناء هذه المعابد،

والباغودات والمساجد والكنائس حيث تكدست فيها أعاجيب الفن وإبداعاته. وسنكتشف الأمر عندما نبحث عما كان يطلبه الناس من الآلهة، تحت أشكال مختلفة عندما كانوا يتعبدونها. إن شعورا متماثلا جليا يحركهم جميعا، إن الشعوب من كل الأعراق عبدت تحت أسماء مختلفة إلها واحدا: هو الأمل. إن أربابهم جميعا لم يكونوا إلا إله واحد.

الفصل الثالث

طرائق البحث المناسبة للدراسة التجريبية لبعض المعتقدات ومختلف الظواهر المفترض أنها خارقة

1 ـ قصور الطرائق المألوفة في الملاحظة

تبين الأوهام التي راح ضحيتها العلماء المولعون بدراسة الظواهر الأرواحية أن طرائق التقصي المستخدمة في ميدان المعرفة ليست بعد هي الطرائق المناسبة لميدان الاعتقاد.

وهي غير قابلة للتطبيق لأن العالم يجد نفسه عندئذ في ظروف استثنائية تماما. إذ ينبغي له في الواقع إحباط خدع لا تنتهي، بعيدة عن تجاربه العادية والنضال ضد الأوهام التي يُوحى بها إليه.

طريقة دراسة الظواهر التي تقع في أساس بعض المعتقدات ينبغي إذن أن يعاد تجديدها بكاملها لكي تتيح الوصول إلى بعض النتائج. ونظرا لأن الموضوع يخرج قليلا عن إطار هذا الكتاب، سأشير بإيجاز لماذا تعتبر الطرائق المطبقة حتى الآن دون قيمة وفي أيّ المواضيع قد يعطي التجريب فوائده.

سوف نلاحظ بادئ ذي بدء أن المؤمنين بالظواهر السحرية يؤكدون أن لا أحد يقوم بها وفاقا لإرادته وأنها بالنتيجة لا تخضع

لأية حتمية. فالقوى العليا الخالقة لمثل هذه الظواهر ليست ملزمة بالخضوع لأهوائنا. إذ يرسل جوبيتر الصاعقة حينما يروق له ذلك، ويطلق نيبتون الأعاصير أو يهدئها دون انتظار أمنية الملاحين.

استحالة توقع ظاهرة ما لا تمنع بأي حال من الأحوال دراستها علميا حينما تظهر. هذه الصعوبة الأولى ليست بذات شأن إذن. وثمة صعوبات أشد خطورة سوف تبرز.

2 ـ أهمية الشهادة والملاحظة في دراسة المعتقدات

في التأريخ تقوم طريقة الدراسة على الشهادة. في المادة العلمية تقوم على التجربة والملاحظة. والحال، بالنسبة للظواهر السحرية الطريقة الأولى مرفوضة كلياً أما الملاحظة وكذلك التجربة فهما قابلتان للاستخدام فقط في ظروف استثنائية. فلماذا يجب استبعاد الشهادة حتى حينما تكون الإثباتات عديدة ومتطابقة؟

ببساطة لأن تاريخ معظم الظواهر الخارقة يثبت أن آلاف المراقبين أكدوا وجود الوقائع، التي اعتُبرت فيما بعد هلوسات فردية أو جماعية. ومشاهد محافل السبت، التي كانت أعداد كبيرة من السحرة يأتون إليها على أجنحة الريح، كما أشرت إلى ذلك سابقا ، أجمعت عليها شهادات كثيرة مسجلة في دعاوى قضائية لا حصر لها. قليلة جدا هي الوقائع التاريخية التي تستند إلى مثل هذا الكم من الوثائق، ومع ذلك فإن لا أحد سيجرؤ على الدفاع عن وجود حقيقي لظواهر السحر. فالخوارق التي أكد مئات المشاهدين حدوثها لم تعد تعتبر اليوم أنها وجِدت حقا.

إن الشهادة بوصفها طريقة لدراسة الظواهر العجيبة ينبغي إذن رفضها تماما، وللسبب ذاته تظلُّ الملاحظة الفردية دون قيمة. ففي مثل هذا الموضوع، يبدو الإيحاء قانونا ثابتا. وهو يؤثر خاصة حينما يعتقد المراقب تحت تأثير الانتباه المترقب، أنه يشهد ملامح الظاهرة. وتقع عندئذ سلسلة من التخيلات تؤخذ على أنها حقائق. لنستمع دائما إلى المؤمنين بترحاب لكي لا نحزنهم لكن دون أن نمنح أية مصداقية لقصصهم العجائبية.

و ندرك الصعوبة القصوى في دراسة الظواهر العجيبة حينما نعلم إلى أية درجة تكون الملاحظة الدقيقة للوقائع الأكثر سهولة صعبة للغاية. فقد كتب البروفيسور بوني **Beaunis**:

" ليس من السهل جدا، كما نعتقد، أن نكتفي بإثبات ظاهرة ما. فنحن جميعا وعلى الرغم منا، نميل لتشويه الوقائع التي نلاحظها، ولليّها وفقا لأفكارنا وعاداتنا الذهنية، ولطريقتنا في الرؤية. إن الملاحظة الخالصة شيء نادر. والطبيب الذي يسأل مريضا يعلم كم هو صعب أن يجعله يقول ما الذي يشعر به ولا شيء سوى ما يشعر به. خذوا عشرة شهود لحادثة واحدة وسوف يرويها كلٌّ منهم بكل صدق بطريقة مختلفة."

3ـ أهمية التجريب الفردي والجماعي

بعد أن استبعدنا الشهادة والملاحظة بوصفهما طريقة للدراسة. تظلُّ لدينا التجربة. في المواضيع العادية يكون استخدام التجربة سهلا أما استخدامها في ظواهر يشوّهها الاعتقاد فإنها بدلا من توضيحها لن تساهم في أغلب الأحيان إلا في تثبيت الأخطاء. إن التجربة يمكن أن تُجرى بنجاح لكن عند تطبيقها على حوادث مصطنعة أو غير مرئية بالنسبة للمراقب الجالس في العتمة، فبماذا يمكن أن تفيد؟ ترتيب أجهزة التسجيل ببراعة لإثبات تنقل غرض عن بعد بينما يكون الوسيط المختبئ خلف ستارة يحركه على هواه، لن يقود إلى أي تحقق مفيد.

في موضوع السحر تكون شروط التجريب بالغة الصعوبة لذا فأن العلماء الراغبين في مقاربة هذه الدراسة يلتقون على أمل أن تجتمع معارفهم الفردية، وهو افتراض في الأصل غير دقيق بتاتا، فالأشخاص المطلعون على علم نفس الجماهير يعلمون قلة فائدة البحوث الجماعية. إذ يتبادل المراقبون الإيحاء فيفقدون كل روح نقدية، فينخفض مستواهم الذهني ولا يعودون قادرين على الوصول إلا إلى استنتاجات غير مؤكدة. ولا أعتقد أن اكتشافا كبيرا واحدا كان على الإطلاق من إنجاز مجموعة ما. وإذا ما كان أحدها قد تحقق في مجال علوم السحر فإنه بالتأكيد من إنجاز عالم منفرد لم يكن عليه فيما بعد إلا عرضه على المجموعة لجعلها تتحقق منه. كل الأبحاث حول علوم السحر التي تمت في إنجلترا، وفرنسا و إيطاليا لم تقدم شيئا، و تبرر بشدة الأفكار السابقة. وتبعا للمستوى الذهني للحضور ودرجة قابليتهم للتلقين، فإن

الوسيط ذاته كان يُوصف بأنه غشاش مبتذل أو بأنه ذو قدرات خارقة تضاهي تلك التي نسبها السحرة للشيطان من قبل.

أهم تلك الأبحاث سواء من حيث الوقت والتكلفة المالية أو من حيث نوعية المراقبين، كان الحدث الذي نظمه المعهد البسيكولوجي في باريس، ولكن النتائج لم تكن باهرة على الرغم من ال25000 فرنكٍ المصروفة وال43 جلسة المكرسة للتجارب. إذ لم ينجح المراقبون في التوافق حول أية ظاهرة تقريبا. حول موضوع الاسترفاع فقط (أو رفع الجسم بقوة الإرادة وحدها)، بدا المقررون متفقين قليلا لكن تفاصيل التجارب يبين أن الاقتناع بُني على أسس هشة جدا في الحقيقة. وقد وجد أعضاء لجنة التقصي أنفسهم مضطرين، على الرغم من تسامحهم الواضح، لتأكيد حالات تدليس لا تحصى.

وعلى الرغم من أن هذا البحث كان مكلفا وطويلا إلا أنه لم يقدم القضية ولو خطوة واحدة.، ويكتب لي عالم الفيزياء القدير برانلي**Branly** الذي كان قد حضر في معظم جلسات المعهد البسيكولوجي: " ما شاهدته لم يزدني اقتناعا. "

4 ـ ضرورة تفكيك الظواهر والتركيز على دراسة كل عنصر بمفرده تطبيق على دراسة ظاهرة الاسترفاع

عدم نجاح البحث باهظ التكاليف الذي أجراه المعهد المذكور يؤكد بوضوح شديد، كما كنت أقول منذ البداية، ، القيمة الزهيدة لطرق الدراسة الحالية. وأعتبر أنه عوضا عن تشتيت الانتباه في متابعة حشد من الظواهر الثانوية، فإن على المراقب أن يتفرغ

لدراسة ظاهرة واحدة، أي أن يأخذ حدثا محددا تماما، ومعزولا جيدا، وأن يدرسه دون كلل مع (الأجهزة المسجلة، البعيدة عن تأثيره) حتى الحصول على النتيجة الكاملة. ولأن أيّ شخص لم يدرك كما يبدو فائدة هذا المبدأ، قررت تطبيقه أنا بالذات على حالة محددة: هي رفع جسم دون ملامسته. بقيت لدينا بعد فحص الوسيطة أوزابيا بمساعدة الدكتور داستر بعض الشكوك حول هذا الموضوع. من جهة أخرى، ليس في ظواهر الاسترفاع ما يصدم العقل. فالوسيط يمكن أن يمتلك قوة خاصة قادرة على جذب الأشياء كما يجذب المغناطيس الحديد. لكن قبل الإسهاب في الحديث عن هذا الأمر كان من المفيد أن نثبت وجوده.

من أجل تثبيت شكوكي حول إمكانية الاسترفاع، قررت استدعاء جميع الوسطاء الذين يزعمون امتلاكهم هذه المقدرة. فأعلنت بمساعدة من الأمير رولان بونابرت، عضو أكاديمية العلوم والدكتور داريه مدير مجلة حوليات العلوم النفسية. عن جائزة مقدارها 2000 فرنك، مخصصة للوسيط الذي سينقل غرضا من مكانه دون ملامسته. ولكي يصل خبر وجود هذه الجائزة إلى أسماع كل المهتمين لجأت إلى نشره في صحيفة هامة هي صحيفة لوماتان. وفضلا عن ذلك فقد أعادت معظم كبريات الصحف العالمية نشر مقالتي. لو أن التجربة التي كنت اقترحها قد تحققت لشكلت دليلا قاطعا، بمنأى عن كل نقاش. فقد كان ينبغي أن تتم في وضح النهار في مخبر البروفيسور داستر، في جامعة السوربون. وبحضور مشعوذين ومصور مكلف بتصوير فلم عن تفاصيل العملية، وأخيرا، أربعة من أعضاء أكاديمية العلوم مكلفين

بالتأكد من الشروط التي تحققت ضمنها الظواهر.

لم يكن باستطاعة أحد الاعتراض على الشروط السابقة بأن ظواهر الاسترفاع تحدث فقط في العتمة، بعد أن تخلى معظم السحرة عن هذا المطلب. وقد ألحّ السيد ماكسويل في كتابه على إمكانية حصول ظواهر التحريك وسط الضوء. كما أكد أيضا السيد بواراك رئيس أكاديمية ديجون أنه كان قد جذب عدة مرات في وضح النهار منضدة دون أن يلمسها. فلماذا، مادام يتمتع بهذه القدرة، لم يحاول كسب جائزة قدرها 2000 فرنك؟

بعد الإعلان عن هذه الجائزة انهالت عليَ بالطبع مئات الرسائل، لكن خمسة وسطاء فقط هم من تقدموا للفوز بها. أطلعتهم على الشروط المذكورة أعلاه، ضامنا لهم من جهة أخرى العدد الذي قد يريدونه من الجلسات.

فوعد الجميع بالعودة، لكن أحدا منهم لم يظهر ثانية.

ومع أن الوسيطة أوزابيا، كفّت منذ أن مورست رقابة جدية عليها عن القيام بتحريك كفة ميزان الرسائل التي تتطلب قوة أدنى بكثير من غرام واحد لتحريكها، فإن مستحضري الأرواح لا يترددون في تأكيد أن الوسطاء يصلون لتحريك دون ملامسة أوزانا تبلغ 200كيلوغراما. فقد كتب البروفيسور مورسيللي:

"ظاهرة تحريك المناضد تمثل ألفباء العلوم السحرية. وفي هذا الموضوع لم يعد هناك شك ممكن!!! المنضدة ترتفع من تلقاء ذاتها دون خدع أو غش وتظل معلقة حتى 78 ثانية... هنا في مدينة جنوة، قام شاعر شاب ووسيط ممتاز بتحريك صندوق يزن 180 كيلوغراما"

من المؤسف أن هذا الشاعر الشاب الذي يحرك 180 كيلوغراما دون لمسها، لم يحاول الفوز بجائزة من 2000 فرنك برفعه عدة غرامات فقط.

أعتقد أني قدمت خدمة حقيقية عندما بينت كم هي نادرة ظاهرة تحريك الأشياء التي كان مستحضرو الأرواح يعتبرونها سهلة جدا، على فرض أني سلمت بأنها يمكن أن تحصل، وهو الأمر الذي لم نحصل على أي دليل يؤيده.

وقد أراد معهد السيكولوجيا من جهته التحقق من ظواهر الاسترفاع. فعانى، من أجل إثباتها من متاعب جمة، ولسوء الحظ لم تستطع أيٌّ من التجارب التي قام بها أو على الأخص الصور المقدمة عنها أن تؤدي لإقناع أحد.

أما العلماء الإيطاليون فكانوا سعداء أكثر إذ تأملوا أوزابيا وهي ترتفع في الهواء " بأيد روحانية ". فالعالم لوميروزو بعد أن حظي بجميل خاص وهو محادثة شبح أمه، يظهر حازما جدا في هذا الموضوع. وإليكم ماذا يقول في هذه المقابلة معه التي نشرتها لوماتان:

" ظاهرة خارقة شاهدناها حينما بدأت أوزابيا الجالسة، مقيدة اليدين والقدمين، ترتفع ببطء شديد حتى استطاعت الوصول إلى سطح المنضدة والجلوس فوقه. تحت إبطيها، رأينا فقط يدين روحانيتين تساعدانها. هذه التجربة جرت تحت مراقبة جدية. "

لقد كان مسموحا الشك بالمراقبة ولكن ليس بالإيمان الصلب للمراقبين.

هـذه الأرواح الـتي سـاعدت"أيـديها الـسحرية" أوزابيـا علـى رفـع جسدها بسهولة بالغة أو رفع مناضد ثقيلة جدا، رفضت بعناد تقـديم المساعدة لها حالما قـام متشككون سـاخطون بتفحص الأمـر عـن قـرب شـديد. في معهـد البـسيكولوجيا قامـت غالبـا بتحريـك كفـة ميـزان الرسـائل عـن بعـد فبـدأت القناعـات تتشكل علـى الـرغم مـن أنها فوجئـت عـدة مـرات تخفـض كفـة الميـزان بشعرة تمـسكها بـين أصابعها. فقد قام أحـد الحـضور الـذي ظل يشك بوجـود خدعـة مـا، بطلـي الكفـة بهبـاب دخـان أسـود وكـذلك ذراع الميـزان ومؤشـره. وهكذا فإن أي اتصال بخيط أو شـعرة كـان يجـب أن ينـكشف في الحال من خلال الأثر الـذي سيتركه علـى هبـاب الـدخان. وبـدءا مـن هذه اللحظة وخلال كل التجارب اللاحقـة لم تعـد أوزابيـا قـادرة ولـو لمرة واحدة على التأثير عن بعد في ميزان الرسائل.

وقـد حاولـت أن تقـوم بـتغير وزنهـا أمـام المعهـد البـسيكولوجي، وفي الواقع يقول المقرر أنّ الميـزان أشـار إلى انخفـاض في الـوزن لـكـن الصورة التي قدمتها آلة التسجيل بدت غير واضحة تماما إذ أن المقرر يـضيف: هـل علينـا أن نـستنتج أن أوزابيـا كانـت تمـارس في هـذه اللحظة ضغطا بيديها على المنضدة؟ " مـن المـزعج أن المراقبين الـذين كـانوا قـد تفحـصوا هـذه الوسيطة طـويلا لم يخطـر لهم أن يعيـدوا هذه التجربة الهامة مرة أخرى من أجل الوصول إلى قناعـة إيجابيـة أو سلبية.

وظلـت محـاولات أعـضاء لجنـة معهـد البـسيكولوجيا لتأكيـد رفـع المنـضدة بالـصورة الفوتوغرافيـة دون جـدوى لـتبرهن مـرة أخـرى القيمة الزهيدة للتجارب الجماعية.

" لم نحصل أبدا بكتب المقرر، على صور لرفع المنضدة بالكامل بحيث تكون أرجلها الأربع مرئية تماما. صورة واحدة التقطت ارتجالا في قلب العتمة. كانت المنضدة مرتفعة على رجلين فقط. ويبدو واضحا من جهة أخرى من خلال تفحص موضع يدي العنصر أن هذا الرفع الجزئي كان عاديا تماما. باطن اليد اليسرى لأوزابيا يلامس زاوية سطح المنضدة التي تبدو مرتفعة، أربع من أصابع يدها اليمنى كانت تضغط بقوة قرب الحافة المقابلة. تعاضد اليدين من أجل إحداث الرفع أو الحفاظ عليه كان واضحا."

بات من المؤكد اليوم على أية حال أن أبسط ظاهرة من الظواهر التي يستشهد بها مستحضرو الأرواح، وهي رفع شيء ما، لم يتم تنفيذها بوضوح. وإليكم بضعة مقاطع من المقالة التي عرضت من خلالها مآل المسابقة التي كنت قد أعلنت عنها.

يعرف قراء لوماتان أني عرضت بمساعدة الأمير رولان بونابرت والدكتور داربيه جائزة قدرها 2000 فرنك، للوسيط القادر على رفع غرض موضوع فوق منضدة دون أن يلمسه، وفي وضح النهار. وقد كان للمقالة المتضمنة هذا العرض صدى كبيرٌ في فرنسا وفي الخارج، ولا يجوز افتراض أن مستحضر أرواح واحد لم يعلم بها. زد على ذلك أني تلقيت مئات

الرسائل تتحدث عن قصص خارقة جدا، بيد أن خمسة مرشحين فقط تقدموا للقيام بالتجربة، وبعد أن تناقشنا حول الشروط المطروحة وقبلوا بها وعدوا بالعودة لكن أحدا منهم لم يعد. فمن الواضح إذن أن التجربة بدت لهم غير قابلة للتحقيق.

ويتعزّى مستحضرو الأرواح عن هذا الإخفاق الواضح بالقول إنّ ظواهر تحريك الأشياء شوهدت مرات كثيرة سابقا. وقد أكدّ أحدهم على صفحات هذه الجريدة ذاتها أن منذ أربعين عاما شاهد الناس أرواحا ترفع منضدة محملة ب 75 كغ من الحجارة. وهذه العملية تشير بوضوح إلى وجود قوة كبيرة لدى الأرواح تعزي قليلا عن فقر تجلياتها المثير للشفقة. يبقى أن نتساءل مع ذلك لماذا لم يستطع الوسطاء القادرون على رفع 75 كغ منذ أربعين عاما، أن يرفعوا اليوم مجددا بضعة غرامات؟ مع أن ربح ألفي فرنك في دقيقتين وتأكيد مسألة هامة بالنسبة للعلم هو أمر مغر جدا.

الحجة الوحيدة التي لا يزال مستحضرو الأرواح يستخدمونها هي شهادة علماء قديرين يؤكدون مشاهدتهم لحوادث التحريك عن بعد ولعدد من الظواهر الخارقة أكثر أيضا، ويضيفون أنه لا يحق لأحد اعتبار أي شيء مستحيل مسبقا. وأنا أسلم بكل طيبة خاطر بهذه النقطة، إذ يُحتمل أن تكون منيرفا قد خرجت بكامل سلاحها من دماغ جوبيتر، وأن

مصباح علاء الدين كان موجودا. لكن في المقابل أعتقد أنه على الآخرين القبول بأن هذه الظواهر التي تبدو قليلة الاحتمال ستكون البراهين الجدّية على حدوثها ضرورية قبل التسليم بها.

إذن، حينما يؤكد عالم مثل لومبروزو أنه رأى شبح أمه يتجسد أمامه وأنه تحدَّث إليه، وحينما يؤكد عالم فيزيولوجيا شهير أن محاربا يرتدي خوذة خرج من فتاة شابة، وحينما يزعم قاض كبير أنه رأى سيدة " خارقة الجمال " تتجسد أمام ناظريه والتي صرحت له ببساطة بأنها جنية، أقول حينما يُعلن عن هذه الظواهر والكثير غيرها، يحق لنا أن نظل متشككين قليلا، مهما كانت كبيرة سلطة العلماء الذي يؤكدون حدوثها. وهذا الحق هو في الوقت عينه واجب، فهذه الأعاجيب كونها تضاهي أعاجيب سحرة القرون الوسطى غرابة فسيكون من المخجل قليلا أن نعود إليها حاليا. ولكي نسلم بها، ينبغي الحصول على براهين مقنعة بصورة مغايرة تختلف عن البراهين التي يكتفي بها أتباع السحر المعاصرون.

لن يكون بحثنا حول الأرواحية دون جدوى، فقد بيّن الانتشار المذهل لدين جديد والذي التحق به بعض كبار العلماء من غير القادرين على العيش دون إيمان ما. يموت الآلهة أحيانا لكن الذهنية الدينية تعيدهم إلى الحياة دائما.

5 ــ من هم المراقبون الصالحون لدراسة الظواهر الأرواحية؟

أصل الآن إلى نقطة رئيسة ينبغي التركيز عليها. أقصد الحديث عن نوعية الأشخاص الصالحين لمراقبة ظواهر استحضار الأرواح. ثمة خطأ عام جدا يتمثل في تخيّل أن العالم، المتميز في تخصصه، يمتلك لهذا السبب وحده الأهلية الخاصة لمراقبة حوادث غريبة عن تخصصه وعلى الأخص تلك التي يلعب فيها الغش والوهم دورا غالبا. فالعلماء الذين يعيشون الصدق و اعتادوا تصديق شهادة حواسهم التي تكمّلها دقة أدواتهم، يكونون في الواقع من أكثر الناس الذين يسهل خداعهم. وقد عثرت على مثال مثير للفضول حول هذه السهولة في الحكاية التالية المنشورة في حوليات العلوم النفسية.

" السيد داي في الذي كان قد دعا إلى عقد اجتماع لمراقبين متميزين، وكان من بينهم واحد من خيرة علماء إنجلترا هو السيد والاس، نفذ أمامهم وبعد أن جعلهم يتفحصون الأدوات ويضعون الأختام التي يريدون، كل الظواهر التقليدية للأرواحية: تجسيد الأرواح، الكتابة فوق لوح سبورة الخ.... وبعد أن استلم من هؤلاء المراقبين المتميزين تقاريرهم التي تؤكد أن الظواهر التي رؤوها ما كان يمكن أن تحصل إلا بوسائل فوق- طبيعية، أخبرهم أنها كانت نتيجة لعمليات غش بسيطة جدا.... وكانت الطرق التي ابتكرها السيد داي في بدائية جدا لدرجة أنهم دُهشوا لجرأته في استخدامها، لكنه كان يمتلك من السلطة على عقل الجمهور ما كان يستطيع إقناعه بأنه يرى ما لم يكن يرى."

إنه تأثير الإيحاء دائما. فرؤية تأثيره في عقول متفوقة ومحضّرة مسبقاً فوق ذلك، يبين قدرته الخارقة. ولن يكون بالوسع إذن إثبات ظواهر استحضار الأرواح بفعالية من قبل بعض العلماء. المراقبون الوحيدون الجديرون هم الأشخاص المعتادون على خلق بعض الأوهام وبالتالي إزالتها، أي المشعوذون. ومن المؤسف جدا أن معهد البسيكولوجيا لم يفهم هذا.. لو تمت الاستعانة بهم، فإنه كان سيتمّ بالتأكيد توفير جزء كبير من ال25000 فرنك التي أهدرت دون جدوى في تجارب لا معنى لها. نحن نعرف شعور عدم الثقة الكبير الذي يكنه المؤمنون للمشعوذين. إذ يبدو أنهم يخشون فقدان أوهامهم. وقد سبق للسيد بيني أن عرض على معهد البسيكولوجيا أن يحضر مشعوذين مهرة مجانا. وبدءا من ذلك اليوم تجنبوا بذكاء دعوته للحضور، كما كان قد كتب لي هو نفسه[1].

---

(1) في مقابلة معه انتهى الأمر بالسيد دارسونفال للاعتراف بأنه كم كان سيكون مفيدا حضور المشعوذين فقد قال " لقد خاطبنا العديد منهم لكن دون جدوى. فقد رفضوا الاستجابة لدعوتنا. "
لكني استطيع التأكيد للفيزيائي القدير أن ذاكرته قد خذلته.،واستطيع أن أضيف إلى التصريح السابق للسيد بيني تصريحات عدد من المشعوذين. وإليكم فوق ذلك موجزا لرسالة تلقيتها من أحدهم هو السيد رايانلي،نائب رئيس الغرفة النقابية للشعوذة.
" اسمحوا لي أن أقول لكم أن السيد دارسونفال يرتكب خطأ حينما يقول إنّ المشعوذين لم يهتموا بحضور جلسات الأرواحية في حين أننا أشد رغبة في ذلك.إن مستحضري الأرواح هم من لا يريدون حضورنا. وهذا أمر يبدو كبير الدلالة. "

ينبغي أن نأسف، وأكرر ذلك، لأن المعهد أظهر كل هذا القدر من سوء النية حيال المشعوذين. فما هي الأسباب التي كان يمكنها تعليل رفض ثابت لحضور المسابقة من قبل المراقبين الوحيدين الصالحين لكشف خدعها؟ وكيف لم تشعر اللجنة بفائدة التعاون مع أشخاص اعتادوا إثارة الأوهام؟ لقد ظهر الانجليز أكثر حكمة ففي الجلسات المشهودة لجمعية البحوث النفسية، كان ثمة مشعوذ هو السيد ماسكيلاين، وهو الذي كشف خدع الوسيط الذي كان معهد البسيكولوجيا قد استخدمه في تجاربه.

ونظرا لأن المؤمنين الحقيقيين لا يمكن التأثير عليهم بالحجة العقلية فإن النقاش معهم لن يكون مجديا. لكن إلى جانبهم تضطرب أعداد كبيرة من الفضوليين البسطاء، ومن شبه المقتنعين، وقد حدثوهم عن وقائع تثير دهشتهم، فصدقوا شيئا منها، لكن مع الشعور الغامض بقبول أشياء مثيرة للشك لكنها مؤكدة من قبل أشخاص لا يملكون إلا الإيمان بها.

مثل هذه العقول تتمنى بحرارة رؤية دراسة جدية لهذه الظواهر التي ربما يمكنها أن تفتح بابا على المجهول، وقد وجدت الدليل على هذه الحالة الذهنية في مقالة حصيفة منشورة في مجلة **Les nouveaux horizons** وهذا موجز لها:

> ***ثمة حدث ذو أهمية رئيسة في تاريخ التطور الإنساني تتحضر في هذه اللحظات. وقد أعلنها علينا السيد غوستاف لوبون:***
>
> ***ولا يتعلق الأمر بأقل من البحث عن طريقة تجريبية خاصة من أجل دراسة تكون المعتقدات؛ وهذا يعادل الاعتراف بواسطة العقل العلمي بغريزة التدين***

الأبدية في الذهن الإنساني ويؤدي لقبول العلم بها بوصفها حدثا إيجابيا وموضوعا للعلم، لكنها تستدعي طريقة تجريبية خاصة؛ باعتبار أن قوانين تمظهرها تختلف عن القوانين التي تنظم الوقائع المادية.

وأياً تكن الدوافع التي تحدو بالعلم لاتخاذ هذا الموقف الجديد حيال الشعور الديني والاعتقاد فلن نبالغ إذا أكدنا أنها تشير إلى بداية مرحلة جديدة من عصر الحرية.

وما أن تُقبل دراسة تكوّن المعتقدات بوصفها موضوعا للعلم وحدثا إيجابيا وأن يبدأ البحث عن منهج تجريبي خاص في مراقبة الظواهر التي تتعلق بها فلن يعود موضع التساؤل حيالها لا الرأي الشخصي ولا الموقف المتخذ مسبقا. ذلك يعني أنه سيكون من المناسب معالجتها بعد الآن بطريقة علمية ودون تحيز ودون موقف شخصي وموضوعيا. . (ل، مارسيال)

إن طرائق دراسة الظواهر المفترض أنها خارقة تقتضي، وكما بينت، شروطا خاصة. وبسبب تجاهلها سقط عدد كبير من المراقبين القديرين ضحية أفدح الأخطاء.

ونظرا لعدم امتلاك أية وسيلة للتثبت تجريبيا من صحة المعجزات القديمة، فسيكون من الممتع جدا لو ندرس دراسة علمية المعجزات التي يعرضها دين جديد. وبعد أن بيّنا بأية سهولة تتلاشى ما أن تجري مراقبتها بعناية فإننا سنبحث عما يمكن للتجريب المحكم أن يعلمنا حول بعض الظواهر التي تستحق دراسة مركزة.

الفصل الرابع

دراسة تجريبية لبعض ظواهر اللاوعي المولّدة للمعتقدات

1 ـ تجارب يجب القيام بها من أجل دراسة تكوّن الآراء والمعتقدات

كشفت الفصول السابقة الدور الذي يلعبه في تكون المعتقدات كل من الإيحاء والعدوى الذهنية ومختلف العوامل المشابهة البعيدة عن العقل. ويفسر تبني المعتقدات الوهمية من قبل الكثيرين من العلماء المعاصرين نشوء الأديان الكبرى التي تعاقبت في التاريخ.

لكن لو كانت الطرائق التجريبية التي أشرنا إليها ستقود فقط إلى التأكيدات السلبية المتشكلة مسبقا، لانعدمت فائدتها. لكننا سنبين الآن أنه من كومة الأخطاء التي راكمها المشايعون المعاصرون للسحر، فإن بعض الطرق الموثوقة تسمح باستخراج ثم باستكمال بعض المعلومات الكفيلة بإلقاء بعض الضوء على هذه المنطقة المعتمة من اللاوعي حيث تتكون معتقداتنا.

ونظرا لأن الموضوع مازال جديدا تماما فإنه ينبغي أن نقتصر على إشارات قصيرة، ستكون غايتها الرئيسة تعيين وجهة الطريق التي سنسلكها.

2 ـ التأثيرات الفيزيولوجية والعلاجية للإيمان

من بين مواضيع الدراسة التجريبية المتعلقة بتأثير المعتقدات، سأشير بداية إلى تأثير الذخائر المقدسة، ورحلات الحج، والمياه العجيبة، الخ.... ويبدو أن فعاليتها المسلم بها من قبل المؤمنين من كل الأديان، تؤكدها آلاف النذر المعلقة منذ أقدم العصور على جدران معابد كل الآلهة.

وقد بات من شبه المؤكد تقريبا اليوم أن رحلات الحج التي تقود آلاف المؤمنين سواء إلى مكة أو إلى لورد أو إلى ضفاف نهر الغانج لم تكن دون فائدة دائما. فقوى اللاوعي الغامضة التي يطلقها إيمان عميق تظهر أحيانا أكثر فعالية من الوسائل التي يمتلكها العلاج الدوائي.

وأعتقد أنه سيكون ذا فائدة قصوى وربما تتفتح الآفاق غير المتوقعة أمام علم الوظائف، أن نوضح بصراحة حدود التأثيرات التي يسببها الإيحاء الناتج عن الصلوات أو الذخائر المقدسة أو التعاويذ، الخ.. داخل الجسم. وسوف يستغرق الأمر وقتا طويلا دون شك قبل أن تتمّ محاولة القيام جديا بهذه الدراسة الهامة. فحالات الشفاء الموصوفة بالإعجازية لم يتم درسها حتى الآن إلا من قبل مرتابين متحجرين أو مؤمنين لا يفقهون شيئا. والحال، أن هذين الشكلين من الذهنية يصيبان بالشلل حس الملاحظة بالدرجة ذاتها. وبما أن

الريبي في هذه الموضوعات، ينقلب بسهولة إلى مؤمن، أحيانا غير واع، لذا نجد أنه ليس من السهل الوصول إلى تفسيرات شديدة الوضوح.

كل هذه الظواهر التي تمّ في السابق نفيها أو تأكيدها دون أي دليل تجريبي كانت تظل محصورة في حقل الإيمان ويُرفض أخذها بعين الاعتبار. وما من شيء ليبدو أشد حمقا من وعود مدعي المعجزات وهم يروجون للمياه العجيبة والذرور السحرية، والذخائر، والخواتم المسحورة الخ...

ومع ذلك أثبتت الدراسات الحديثة حول الإيحاء الذاتي أن مزاعم كل هؤلاء الحالمين لم تكن باطلة، فقد شفت أحيانا وبثت القوة وشدت من العزيمة وروحت عن النفس. فالدقة العلمية لم تكن لها دائما فائدة بعض الأخطاء.

هل توجد داخل الجسم قوى مجهولة يحركها الخيال؟ ليس من المتاح الآن تأكيد هذا الأمر. ربما يمكننا طرح الفرض التالي: بما أن الفكرة أي التمثيل الذهني، تنتج عن حالة فيزيولوجية معينة، فإن التثبيت الطويل لفكرة ربما يتمكن، بصورة معاكسة، من تقرير الحالة الفيزيولوجية التي تطابقه. من أجل تحقيق الشفاء قد يكفي عندئذ الحصول خلق تمثيلات ذهنية شديدة القوة.

وهذا الأمر كان قد جرى استشعاره منذ زمن بعيد. فقد كان الفيلسوف الإيطالي بومبانزي قد لاحظ في مقالة له نشرت عام 1525، أن عظام حيوانات مختلفة بيعت على أنها ذخائر لقديسين مشهورين، كانت تشفي تماما كما الذخائر الحقيقية. الشفاء عن طريق الإيمان جرى استخدامه عدة مرات في أيامنا الراهنة على يد الطبيب الشهير شاركو.

3 ـ الأوهام التي يخلقها الإيحاء الفردي والجماعي

لن يسع أحد متابعة القيام بتجارب كثيرة في هذا الموضوع، أي التجارب التي تتمّ آنيا. فقوة الإيحاء تبلغ درجة أن بعض علماء الفيزياء القديرين، كما رأينا، آمنوا طوال عامين بوجود أشعة خاصة، ثم فجأة أصبحت غير مرئية منذ عرفوا أنهم كانوا ضحية أوهام خادعة. إن الإيحاء يجعلنا نقبل الظواهر الأبعد احتمالا، مثل حالات التجسد المؤقت في أشخاص أحياء، وهكذا آمن عالم الكيمياء الشهير كروكس بانبعاث شبح كاتي كينغ الشهيرة من الوسيطة، والذي لم يكن سوى الوسيطة نفسها. وهذه الوسيطة تمَّ فيما بعد ضبطها متلبسة في جريمة تدليس عندما أرادت أن تكرر في برلين الظواهر التي كانت أوهمت العالم الانجليزي المشهور[1]. هل يمتلك بعض الأفراد قوة إيحاء خاصة تتيح لهم ممارسة تأثير على المحيطين بهم؟ يبدو أن بعض الحوادث تؤيد ذلك.. وهكذا، يمكن أن تفسر ظواهر رفع الأشياء عن بعد التي يتم إجراؤها أمام الجمهور المنسوبة إلى دراويش الهند. والتي لم يحدث لي مشاهدتها في رحلاتي.

وهذا الافتراض قد يوضح دور بعض الوسطاء واختلاف النتائج التي يحصلون عليها تبعا لدرجة إيحائية الحضور. في تجارب

[1] " لقد شاهدت في لندن ودون أدنى درجة من الشك، كتب السيد جيل بوا، الخدع الصبيانية والبذيئة للوسيطة الشهيرة فلورانس كوك التي خدعت بطريقة فخمة وليام كروكيس." (جريدة جامعة الحوليات، 5 أيلول 1909)

استحضار الأرواح، يكون تأثير الإيحاء هو المهيمن، و زد على ذلك فإن هذا ما يعترف به كتابهم أنفسهم.

" المُجرِبون، كتب ماكسويل، يتبادلون الإيحاء فعلا ويؤدي الأمر في النهاية إلى إصابتهم بهلوسة جماعية مثيرة.... وقد حصل أن سمعت أحد المساعدين يقول أنه يرى ضوءا في جهة محددة، فاتجه الآخرون بنظرهم نحوها وتطلعوا، ثم أعلن أحدهم أنه يرى شكلا، وسرعان ما رأى أيضا أشخاص آخرون شكلا. وتتالت كلمات التعجب حتى اكتمل توصيف الشكل. لقد شهدنا نشوء وتطور هلوسة جماعية.. وقد بينت لي تجربتي الشخصية أن حاسة البصر هي الأكثر تأثرا بهذه الانطباعات الخيالية."

تكون قوة هذه الإيحاءات خارقة أحيانا، فقد كان سحرة العصور الوسطى يخضعون لتأثيره خضوعا يجعلهم يقبلون الحرق بوصفه تكفيرا عن ذنوبهم المتخيلة. وتبدو ذهنية المراقبين المعاصرين ومن ضمنهم أكثرهم علما، قريبة جدا في هذا المضمار من ذهنية السحرة. وفي ما عدا استثناءات نادرة جدا، فهم لا يعترفون إطلاقا بأنهم كانوا موهومين، وربما يظلُّون من جهة أخرى عاجزين عن الاعتراف، إذ ليس الخروج من دائرة الإيمان بالأمر السهل. فالإيحاءات تتوالى فيه وتنتهي باكتساح كامل مساحة العقل. وقد وصف البروفيسور غراسيه هذه الحالة الذهنية بدقة في المقطع التالي:

" ثمة أمر غريب تجب ملاحظته، يتمثل في التدريب الذي يخضع له المجربون منذ بداية دخولهم إلى هذا النوع من الدراسة والتحول الذي تعيشه ذهنيتهم.

لومبروزو الذي يبدأ مذكراته بالحديث عن تجارب دقيقة جدا ومحدودة عن تخطيط القلب، يتحدث بعد ذلك في الكتاب ذاته، عن أشباح وتجليات الموتى، والاسترفاع الذاتي كما فعل هوم الذي دار أفقيا حول جميع نوافذ أحد القصور وكما فعل الأخوان ريفو الصغيران اللذان قطعا مسافة خمسة واربعين كيلومترا في خمس عشرة دقيقة، وأشخاص أو بقايا أشخاص كان عليها لكي تتجسد أن تستعير آنيا جزءا من قوام الوسيط الذي يكون في هذه اللحظة خامدا وشبه محتضر.

إن التماس مع ظواهر استحضار الأرواح جعل بعض أفاضل العلماء ينسون القواعد الأولية للمنهج العلمي."

قابلية التأثر هذه تتنوع تبعا للأفراد وللأعراق. فالوسيط ذاته سيعطي في انجلترا أو فرنسا أو في إيطاليا نتائج مختلفة جدا: عدم على الأغلب في انجلترا، وسط في فرنسا وممتازة في إيطاليا. ويبين تقرير معهد باريس البسيكولوجي حول الوسيطة أوزابيا بطريقة ساطعة وعبر المثال التالي، الأثر الإيحائي الملحوظ لبعض الوسطاء على الحضور بمن فيهم من أكابر العلماء. يقول التقرير: رجت

أوزابيا السيد دارسونفال أن يحاول رفع الإسكملة، ففعل ذلك بيسر، ثم منعته من رفعها، فلم يتمكن السيد دارسونفال من القيام بذلك. " لدرجة تظنه مسمرا على الأرضية "، وضعت أوزابيا مجددا مرفقها فوق الإسكملة فرفعها السيد دارسونفال عندئذ دون صعوبة. بعد لحظات، قالت أوزابيا للإسكملة: " كوني خفيفة "، فيرفعها السيد دارسونفال بسهولة أكبر.

هذه التجربة التي يتقنها بنجاح المنومون المغناطيسيون في المعارض الشعبية باختيارهم عناصرهم من العصابيين وسط الحضور تثبت ببساطة قدرة بعض الوسطاء الإيحائية. وقد تساءلت مع ذلك كيف لم يفكر العالم الأكاديمي، عندما يقبل أن شخصا يمتلك القدرة العجيبة على تغير أوزان الأجسام بنسب كبيرة، بالتحقق من صحة هذه الظاهرة باستخدام الميزان. وقد حاول مجريو المعهد البسيكولوجي تجريب هذه الوسيلة مرة لكن في شروط صعبة بحيث كانوا مضطرين للاعتراف هم أنفسهم بالنتائج غير المقنعة. حينما يعمل المرء على ظاهرة كهذه ليس عليه أن يكررها مرة واحدة بل ألف مرة.

من المحتمل للغاية أن السيد دارسونفال وقد تخيل تحت تأثير إرادة أوزابيا أنه يدرك تغير الأوزان، كان أيضا موهوما بقوة كما كان أمره مع الأشعة N التي أوحت له بمحاضرة حماسية أكد خلالها واقعية كل الظواهر المعلنة. إن السهولة التي تمّ الإيحاء له بها حينها وكذلك لكل الفيزيائيين الفرنسيين، هي أحد الأدلة الأكثر وضوحا التي يمكن تقديمها على دور الإيحاء في تكون المعتقدات.

4 ـ تحول الأرواح الفردية إلى روح جمعية

إن دراسة تكون الروح الجمعية سواء كانت طويلة أم قصيرة الأمد، هي أحد المواضيع الغامضة في البسيكولوجيا، وأحد تلك التي يجب فيها الاكتفاء بالمراقبة. ويمكننا القول بثقة فقط أن الجماهير تتشارك المشاعر وليس العقل. وتفسر لنا خاصية عدوى المشاعر لماذا يتخذ في الحال أشخاص مجتمعون سمات الجمهور. وتتكون داخله فورا روح جمعية، وقائد ومقودين. فهل لهذه العدوى قاعدة تحتية مادية، كأن تكون على سبيل المثال، نوع من إشعاع ذي طبيعة خاصة؟ يستحيل قول ذلك. كما يصعب اكتشاف الطريق التجريبي المؤدي إلى حلٍّ مثل هذه المسألة. ونحن نكاد لا نملك إلا بعض المؤشرات. من بينها ربما يجب أنْ نضع دراسة ظاهرة الطاولات الدائرة.

فقد بُرهن منذ زمن طويل أن حركة هذه الطاولات كانت ناتجة عن دوافع لاواعية لمشغليها. لكن لماذا تدور الطاولة دائما في اتجاه محدد دون أن تقيدها دوافع يمكن أن تكون مختلفة؟ ولماذا عند ضرب ضربات مطابقة لبعض الأحرف الأبجدية تتوقف الطاولة الموضوعة تحت أيدي مختلف الأفراد المحيطين بها، عند اللحظة الضرورية كما لو أنها تخضع لإرادة وحيدة؟

ذلك أنها بالضبط تخضع لإرادة واحدة: إرادة قائد مفروض لاشعوريا على المشغلين الآخرين. وتحت تأثيره تتجمع الأرواح الفردية مؤقتا لتشكل روحا جمعية مرتبطة بروحه.

وقد وصل مراقبون مختلفون إلى نتيجة مشابهة. وإليكم ما كتبه أحدهم في حوليات العلوم النفسية [1].

" القوة المحركة للإسكملة بعيدة كلية عن كل تدخل فوق – طبيعي. فمن خلال تشكل سلسلة من أيادي القائمين بالتجربة فإنهم يطلقون قوة تطبق على الإسكملة الحركات التي تمليها إرادة أحدهم، دون علم الجميع، عبر نوع من التنويم المغناطيسي الجماعي الذي يحلُّ محل الإرادة الواعية لكل منهم إرادة جماعية شبه لا واعية، مع بقاء كل منهم متمتعا بكافة ملكاته الذهنية حيال أي شيء لا علاقة له بالتجربة.

من غير المجدي التشبث بمحاولة التفسير الأولية هذه. فالظاهرة المتمثلة بولادة وتطور وانحلال الروح الجمعية تظل واحدا من ألغاز علم النفس الذي يمكنه التأكيد فقط أن هذه الروح الجماعية مارست دائما دورا جوهريا في حياة الشعوب.

5 ـ تخاطر الأفكار

تظهر الصعوبة الكبرى المتمثلة في عمومية الظواهر المتعلقة بالاعتقاد، التي عددناها في هذا الفصل، عندما نجد أن أبسط هذه الظواهر لا يزال يكتنفها الغموض. وظاهرة تواصل الأفكار تقع ضمن هذه الحال. وبسبب أهميتها الكبيرة تستحق مع ذلك تجارب

[1] 16 كانون أول 1909.

دقيقة. ثمة وقائع عديدة، ينبغي التحقق من صحتها مع ذلك، يبدو أنها تشير إلى إمكانية حصول مثل هذا التخاطر. يمكن تشبيه الدماغين المعنيين بمرنانتين تهتزان متآلفتين، وهو تشبيه فظٌ بالتأكيد، لكن المقصود منه أن يوضح بعض الشيء ظاهرة ليست واضحة.

ويبدو أن التجارب على المنومين مغناطيسيا والوسطاء على وجه الخصوص هي أفضل ما يشير كما يبدو إلى إمكانية تخاطر الأفكار. وقد اعتقد مراقبون عديدون أنهم تأكدوا من أن الوسطاء يعرفون أفكار أولئك الذين يسألونهم ولم يقدموا إلا المعلومات التي تمكنوا من قراءتها. وتنطبق الملاحظة ذاتها على الطاولات الدائرة. وإليكم بخصوص هذا الموضوع ملاحظة مثيرة تشكل جزءا من المقالة المذكورة أعلاه.

" ردود الإسكملة تكون دائما دقيقة جدا عندما تكون معروفة مسبقا من قبل أحد المشاركين في سلسلة الأيدي؛ بينما تكون دائما مشوشة أو لامعقولة عندما كان أحدهم يطلب إليها أشياء مجهولة من الجميع.

وفي جميع الحالات التي وقع فيها اختيار مدير التجارب عليَّ، كنت الاحظ عند كل سؤال أن الجواب الذي ستقدمه الإسكملة كان يخطر لي قبل أن تجيب هي، وأنه في جميع الحالات التي لم أتوقع فيها الجواب بشكل دقيق، لم تكن الإسكملة تجيب أبدا أو تجيب بطريقة غير مفهومة.

ولم ألاحظ أية حالة كان الجواب فيها مقدما بطريقة حصيفة إلا وكان معروفا بشكل مؤكد من قبل المجربين دون استثناء ؛ وبالعكس لم ألاحظ إلا رؤوس أجوبة معروفة، أو مفترضة أو متوقعة سلفا، قبل أن تتمّ صياغتها من قبل الإسكملة، يطلقها أحد القائمين بالتجربة، كان في غالبية الأحيان مدير التجربة وأحيانا أيضا شخص آخر لم يكن يبدو أنه يقوم إلا بدور هامشي."

6 ـ تفكك الشخصية

لقد تحدثت سابقا عن هذه الظاهرة في قسم آخر من هذا الكتاب وأنا لا أعود للحديث عنه هنا إلا من أجل لفت الانتباه نحو فائدة التجارب الجديدة.

وفاقا لما افترضه فإن ذاتا مركبة من بواقي شخصيات سالفة تجمعت وتصلبت بدرجة ما. وهذه العناصر تنحل بفعل تأثيرات مختلفة، كالتنويم المغناطيسي أو انخطاف الوسطاء، أو التهيجات العنيفة أثناء الأوقات الثورية، الخ.... ثم تعود لتشكل تراكيب جديدة، تشكل شخصية مؤقتة. وهذه الفردية تتمظهر في أفكار، ولغة، وسلوك مختلف عن لغة وأفكار وسلوك الشخص الذي خرجت منه. وأذكّر أني طبقت هذه النظرية على تفسير الأفعال التي قام بها بعض أشخاص الثورة، الذين لم يكن أي شيء في ماضيهم يجعلك تتوقعها، والتي هم أنفسهم لم يفهموها بعد انتهاء الثورة.

7 ـ فصل تجريبي بين العناصر العقلية و العاطفية في آرائنا وأحكامنا

ضمن العناصر المكونة لأحكامنا تحضر تأثيرات لاواعية دينية أو عاطفية. ومن الممكن أحيانا، لكنه بصعوبة عموما، أن نفصل بينها عبر الملاحظة البسيطة. فهل يتمكن المرء من الفصل بينها تجريبيا؟

لقد أكدت مرات عديدة أننا نستطيع فعل ذلك، ولسوء الحظ فإن الأشخاص الذين يتقدمون عادة لهذه التجارب لا يتمتعون بذهنية متطورة.

وهذه العناصر الواعية واللاواعية في آرائنا وفي سلوكنا تتفصل باستخدام إما الطرق التقليدية للتنويم المغناطيسي وإما بعض المركبات الكيميائية، كما كنت قد شرحت ذلك في كتاب آخر. وسوف أبين من خلال مثال اخترته من دفاتر تجاربي، كيف يجري هذا التفكيك وكيف يفيدنا العقل في تبرير دوافعنا اللاواعية.

وهذه التجربة من نمط تجارب كثيرة غيرها، أجريت على سيدة مجتمع متميزة جدا، كنت على معرفة قليلة بها. بعد أن نوّمتها قليلا، اقترحت عليها أن تحدد لي موعدا في ساحة الفاندوم في الساعة الخامسة صباحا في عز الشتاء وأن تضع في رسالتها طابعا بريديا من أجل تخليص الجواب.

وقد وجدت السيدة التي سيطرت عليها هذه الاقتراحات العبثية لدرجة ما لكن ليست تماما، من الأسباب، المقبولة عند اللزوم، لكي تبرر الرسالة التي كتبتها لي تحت تأثير لاواعي. كانت

ترغب، كما تقول رسالتها، في أن تطلب مني بعض المعلومات وآخذة بالاعتبار العادات الصباحية التي لابد أني أتبعها، فإنها سوف تنتظرني في ساحة الفاندوم في الساعة المحددة، ومفترضة السهو من جهتي والنسيان الممكن لعنوانها فقد أرسلت لي مغلفا يحمل طابعا جاهزا لإلقائه في صندوق البريد.

التجربة كانت أبعد ما تكون عن الصبيانية كما يمكن أن تبدو لأول وهلة. فنحن نجد دائما تفسيرات من نمط مشابه وغالبا من درجة أدنى لكي نبرر بواسطة المنطق العقلي الدوافع التي يمليها المنطق العاطفي أو الديني.

8 ـ القوة النفسية والإرادة المشعَة

لا يعترف السحرة جميعهم بوجود الأرواح، لكنهم يقبلون جميعهم وجود قوة خاصة يشيرون إليها باسم القوة النفسية.

" أظنُّ أني أستطيع القول، كتب الدكتور ماكسويل، بخصوص جلسات تحضير الأرواح، أن ثمة قوة ما يطلقها الحضور، والتي يبدو وكأنه يجرى تحضيرها على يد الوسيط ؛ وأن هذا يعوض خسائره على حساب المجريين، وأن بعض الأشخاص يوفرون للوسيط القوة التي يحتاجها بسهولة أكبر مما يفعل الآخرون، وأن بعض التشارك، أخيرا، في الأفكار والرؤية والمشاعر بين المجريين يشجع إطلاق هذه القوة."

يؤكد مستحضرو الأرواح أنَّ القوة النفسية يمكن أن تبقى مبتعدة عن الوسيط، مشكلة على بعد مسافة معينة منه، نوعا من

غلاف سريع التأثر بالملامسة والقرص. ويطلقون على هذه الظاهرة اسم تخريج الحساسية **Extériorisation de la sensibilité**. فالأشياء التي سبق أن لامست العناصر الموجودين في مثل هذه الحالة سوف تنقل معها هذه الحساسية، وعند وخز هذه الأشياء المحمولة بعيدا، فإن الوسطاء سيشعرون بالألم ذاته الذي سيشعرون به فيما لو كان الوخز في أجسادهم، وهذه العملية تذكر تماما بعملية التمثيل بالدمية في العصور الوسطى.

لم يقدم مستحضرو الأرواح على الإطلاق أي دليل على هذا التخريج سوى مزاعمهم. ويبدو أنه نتيجة لإيحاءات بسيطة. ويقدم المنومون المغناطيسيون ذاتهم، من جهة أخرى، البرهان على ذلك حينما يقولون أن هذا التخريج الحاصل بفضل تنويماتهم المتواصلة، لا يكون سريع التأثر إلا بملامسات وقرصات المنوم وليس أي شخص آخر. وهذا يشبه إلى حد ما مقياس كهربائي يقيس فقط التيار الذي تطلقه مدخرة محددة ولا يقيس أي تيار آخر.

وبانتظار أن يؤيد الأرواحيون تأكيداتهم بالأدلة، وهو الأمر الذي قلما ينشغلون به، فلن يسعنا أن نأخذ بعين الاعتبار أية ملاحظات مهما زُعمت دقتها يمكن أن تبرر ممارسات أقدم أشكال السحر. ولم يكن ينبغي بالطبع لهذا السبب رفض وجود قوة نفسية ما. ومع أن الانطباعات لا تصلح إطلاقا لأن تحل محل الأدلة، وأنه لا قيمة لها تؤهلها لبناء قناعة علمية، فإني سأعترف بطيبة خاطر أن في جميع الظواهر الأرواحية كان الافتراض الأقل استبعادا هو بالضبط وجود قوة نفسية تنشرها الكائنات الحية.

وهـذا الـرأي لم توحـه لـي بـأي شـكل مـن الأشـكال تجـارب مستحـضري الأرواح، وإنمـا اسـتوحيته فقـط مـن دراسـاتي حـول ترويض الخيول وكذلك حول علم نفس الجماهير ونفس قـادتهم. إذ يبـدو أن بعـض الأفـراد، الخطبـاء المشهورين خاصـة، ينـشرون فيمـا حولهم شيئا ما قويـا جدا. ليست خطبهم هـي مـا يؤثر لأنـه في أغلب الأحيـان لا يـسمعها أحـد، ومـع ذلـك فـإن قـوتهم الـسرية لا يمكـن إنكارهـا. كـان غامبيتـا يقلـب البرلمـان رأسـا علـى عقـب ببـضع حركات، فإذا كـان مـسموحا أن نطلق اسمـا على قوة ذات جـوهـر غير معروف، فإني أسميها الإرادة المشعة.

ولعدم قدرتي على التوسع في هذا الموضوع، سأقتصر تأييدا لما سبق على إيراد الفقرة التالية من السيرة الذاتية المنشورة لأحد ملوك الـسكك الحديديـة الأمريكيـة، الـسيد هاريمـان. وقـد وردت في محاضـرة ألقاهـا أحـد كبـار المـصرفيين الأمـريكيين هـو الـسيد أو. كاهـن.

" أحيانـا، كـان بعـض النـاس يـسألونني، بعـد أن يكون السيد هاريمان قد أنجز بعض الأعمال التي كان تحقيقها يبدو مستحيلا، لأية أسباب استسلم له خصومه. وما هـو الـدافع الـذي حـركهم؟ ولأيـة بواعـث خـضعوا؟ ولماذا آل بهم الأمر للقيام بما كانوا صرحوا أنـه لا يجب القيام به أو أنهم لا يملكون أي سبب للقيام به؟ فكنـت أجيب: " ببساطة، لأن السيد هاريمان كان قد وضع قيد العمل دماغه وإرادته ليقوما بالتأثير عليهم."

في جميع الحالات المتشابهة لا يتعلق الأمر بالتأكيد بمحاكمات عقلية مقبولة، بل بأفعال تفرضها الآلية التي لا تزال مجهولة للإرادة المشعّة التي ذكرتها قبل قليل. والتأثيرات التي يمارسها على هذا النحو فرد ما على أفراد آخرين لا تقبل المنازعة.. ويبدأ الافتراض حينما يحاول المرء تفسيرها بواسطة قوة نفسية لم تثبت أية تجربة وجودها صراحة. وقد يكون من المثير للاهتمام جدا البحث عنها، الأمر الذي يستدعي بداية بالطبع ضرورة اكتشاف راد الفعل القادر على الكشف عنها.

سأوقف هنا هذا التعداد الذي ربما ينتهي بأخذي إلى خارج سياق هذا الكتاب. لقد قلت ما يكفي كما آمل لكي أبين الدور الذي سيمكن للتجربة أن تلعبه في تشكيل علم نفس جديد، مكرس لاستبدال علم النفس الذي نعيشه الآن والذي قلما أوضح المسائل الأساسية في تكون وتطور الآراء والمعتقدات.

الفصل الخامس

كيف يستقرّ العقل في دائرة الاعتقاد وهل للسذاجة حدود؟

1 ـ المعرفة والاعتقاد لدى العلماء

سأتقصى بإيجاز بقصد تأكيد الأدلّة المطروحة في هذا الكتاب، كيف يمكن لرجل العلم أن يخرج، بفعل دوافع لها أشكال المنطق الموصوفة سابقا، من دائرة المعرفة وأن يستقرّ في دائرة الاعتقاد.

ينبغي ألا ننسى إطلاقا، لكي نفهم كيف أن علماء من الطراز الأول، معتادين على التجريب العلمي الصارم ينتهون إلى القبول ببعض الظواهر الخارقة، مثل ظواهر التجسد، وأنّ المنطق العقلي والمنطق الديني يستمران غالبا في الذهن ذاته، مهما كان هذا الذهن عقلانيا. فحقول العقلاني والديني والعاطفي، وأكرر ذلك، مستقلة عن بعضها بعضا، وتبعا لانتقالنا من أحدها إلى الآخر، تختلف منابع الاقتناع.

في حقل العقلاني تكون القاعدة هي عدم التصديق، وتكون التجربة أو الملاحظة وحدها الدليل. في ميدان المعتقد حيث يقود المنطق الديني، تتشكل القناعات بطريقة مختلفة تماما وتكون سرعة التصديق أو السذاجة لا حدود لها.

لكن كيف يمكن لعالم مرتاب أن يترك دائرة العقلي لكي يدخل في دائرة الاعتقاد؟ في الواقع يدخلها لا إراديا وحتى في ذلك الوقت لا يتخلى عن عاداته التجريبية. لكن بما أن قناعته تتشكل بطريقة لاواعية قبل أن يدرك ذلك، فإن تجاربه تكون منقادة بحيث تؤيد قناعته الجديدة وموجهة إذن ليس بإرادته وإنما بقناعته فقط. وتقدم الحكايات الخارقة التي يمتلئ بها تاريخ كل الأديان أدلة لاشك فيها.

2 ـ الآلية الذهنية لتحول أحد العلماء

لنفترض، بقصد ترسيخ الأفكار، أن عالما متشككا جدا اتخذ قرارا بأن يدرس الظواهر التي يدَّعي السحرة القيام بها دراسة تجريبية. سينبغي له بداية أن يُقبل في حلقة من حلقات الأتباع، فالظواهر تحدث فقط فيما بينهم. يقتادونه إذن إلى اجتماع للمقتنعين، وسط عتمة حالكة، وبعد انتظار طويل، يسمع ضجة، وتحريكا لقطع الأثاث، يؤكد جيرانه أنهم يرون أضواء، وأشكالا غير واضحة ناتجة عن توهم التحول الجزئي للوسيط الخ...

وعلى افتراض أن شكوك هذا العالم المفترض كانت راسخة، فإنه سوف ينسحب دون أن تهتز قناعاته السلبية. بيد أن بعض الأمور

لفتت انتباهه، ويبدو له أنه سمع فعلا بعض الأصوات الغريبة، وجيران شرفاء بالتأكيد رؤوا أضواء وأشباحا، وثمة طاولات يبدو أنها تحركت مع بعدها عن الوسيط. هذا كله ليس واضحا. ونظرا لرغبته الشديدة في معرفة الأسباب الطبيعية بالتأكيد لهذه الظواهر التي رآها، فإنه يعود.

يعود، ودون أن يفطن للأمر يجد نفسه خاضعا لتأثيرات الانتباه المتوقِع، والإيحاءات الجماعية، وللعدوى الذهنية.. وتبدأ بعض الشكوك في البروز في رأسه. بما أن علماء كباراً قبلوا هذه الظواهر، فلا بد إذن من أن ثمة شيء خلفها. أشياء قليلة جدا بالتأكيد، لكنها تستحق التوضيح مع ذلك.

ويعود مرة أخرى، ويعود مرات عديدة، والتأثيرات التي ذكرتها تتحرك مجددا، يخضع لاوعي المتشكك للإيحاء أكثر فأكثر ويتلاشى حسه النقدي. ومادام قد دخل إلى دائرة الاعتقاد فإنه سوف يستقرّ فيها.

مع ذلك فإن منطقه العقلي، وقد بات مهزوما، دون أن يعترف بذلك، يستمر في الصراع. ومن أجل تثبيت شكوكه الأخيرة، يجري بعض التجارب. ويبدأ بعد أن ألف الأجهزة المسجلة والأدوات الفيزيائية الدقيقة، أبحاثا متحذلقة وينصب للأشباح أشراكا متنوعة.

ونظرا لأن الأشباح متقلبة الأطوار فإن تجاريه تنجح نادرا أو بطريقة غير مكتملة.، بيد أن الاقتناع اللاشعوري للمراقب كان قد تشكل واكتمل. أصغر مظاهر النجاح تكفيه بينما عمليات الغش الأكثر ابتذالا لا يراها. يتابع إذن التجريب حتى اللحظة التي يظن أنه اقتنع عقليا وعبر التجربة، فيعلن على الملأ قناعته وسوف يزدري

غير المصدقين ويصبح أحد المؤمنين بهذا الدين الجديد. سذاجته ستغدو بعد الآن دون حدود. ولن يزعزع إيمانه أي شيء. فقد بات المتشكك القديم مستقرا نهائيا في حلقة الإيمان.

عبر هذه الأطوار المختلفة، المبتدئة بالشك الشامل لتنتهي إلى سذاجة مطبقة عبر الكثير من العلماء المعاصرين مثل لومبروزو. فقد كان متشككا جدا في بداية أبحاثه، لكنه انتهى إلى إيمان ساذج يقدم عليه كتابه الأخير شهادات محزنة.

لقد عرضنا طبقا لأحداث مجردة تماما آلية التحول وبيّنا كيف أن العلم الأكثر تقدما لم يستطع تخليص الرجل من أوهام الاعتقاد. و لو كان الأمر يتعلق بتطبيق برهنتنا على اعتناق الأديان التي تملأ التاريخ، لكانت التفسيرات أسهل بكثير. لأننا كنا سنجد أنفسنا أمام أشخاص بسطاء، مجردين بالكامل من الروح النقدية، ضعاف التفكير وعاجزين تماما عن الملاحظة والتجريب. على مثل تلك العقول تفعل عوامل الاعتقاد وخاصة الهيبة والعدوى، فعلها دون أن يكون أي فعل كابح قادر على التصدي لها. ارتداد علماء قديرين إلى الإيمان بأعاجيب السحر الحديث كان يبدو أشد صعوبة من اعتناق الرعاة العرب لدين محمد (ص)

أشد صعوبة لكن ربما ليس بكثير. فالراعي والعالم يختلفان اختلافا واسعا بالتأكيد من وجهة النظر الفكرية لكنهما تبعا لعناصرهما العاطفية والدينية متقاربان جدا أحيانا. إن المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية لعالم مشهور ليست أحيانا أسمى كثيرا من معتقدات أشد الرعاة تواضعا.

3 ـ حدود السذاجة

من هذا الفصل ومن سابقيه تبرز فكرة أنه في دائرة الاعتقاد تكون السذاجة دون حدود ويكون العالم المثقف قابلا للتأثر كما الجاهل تماما. فالعالم الذي يشك في قيمة كسر عشري لم يجرِ تدقيقه عدة مرات، سيقبل دون صعوبة أن محاربا معتمرا بخوذة يمكن أن يخرج من جسد الوسيط وأن يتجول في الصالة جاعلا الآخرين يجسّون نبضه لكي يثبت لهم أنه أكثر من مجرد شبح وهمي، وأكثر من بخار غير محسوس. عندما ينزلق المرء فوق منحدر السذاجة، لا يمكنه التوقف أبدا. فقد كان أحد الأعداد من مجلة مستحضري أرواح كبرى، يديرها بروفيسور مشهور في كلية الطب في جامعة باريس، يعرض على قرائه مؤخرا: 1° حكاية قرين وسيط يعبئ الساعة عن بعد؛ 2° رسوم لأرواح متجسدة؛ 3° مقالة حول بعض الجنيات اللواتي ربما ما زلن يسكنَّ الغابات؛ 4° حكاية أربعة أشباح ينشدون بأعلى أصواتهم نشيد "المارسياز" تحت ضوء القمر. الخ....

وأكرر، فيما يتعلق بالسذاجة، لا يبدو العالم إذن أسمى من الأمي الجاهل. وهذا التأكيد الذي أوضحته دراسة ظواهر استحضار الأرواح ضروري جدا. فالسذاجة دون حدود تشكل حالة ذهنية يمكن لنا جميعا أن نصاب بها وأن نكونها بسرعة ما أن نخرج من دائرة المعرفة، وندخل في دائرة الإيمان. من المؤكد أن العلم يعرف القليل من الأشياء ولا يوضح إلا عددا قليلا من الألغاز التي تحيط بنا. وهو يثق على الأقل من أن الظواهر محكومة بقوانين ثابتة بعيدة عن الهوى. والعلم لا يتقدم كثيرا لكنه يؤكد أن أي ساحر لم يحضر إلى محفل يوم السبت ممتطيا أجنحة الهواء

أو عصا مكنسة، وأن أي ساحر قديم أو حديث لم يشهد تصنيع كائن حيٍّ في الحال.

إن البشرية لم تخرج من مرحلة البربرية الذهنية البدائية إلا بعد أن تخلصت من خواء أساطيرها القديمة وبعد أن لم تعد تخشى قوة مدعي المعجزات، والعرافين و"السحرة. إن السحرة في جميع العصور لم يكتشفوا أية حقيقة لم تكن معلومة في حين خلقت الطرائق العلمية من العدم عالما من العجائب. فلنترك للتخيلات المريضة هذا الشعب من الأطياف والأرواح والأشباح، وليد العتمة التي سيبددها الضوء الكافي دائما.

هذه النتائج ليست قابلة للنقاش. وهي مع ذلك تهمل وجها هاما من وجوه المسألة. بما أن البشر في جميع العصور، من أكثرهم علما إلى أشدهم جهلا قد سقطوا في ذات المعتقدات فينبغي بالتأكيد القبول بأنها تتوافق، كما حاولت دائما أن أبين، مع حاجات أبدية للروح وبالتالي فهي ضرورية.

لقد امتنع العلم عن مقاربة ما دعاه بالخفي(غير قابل المعرفة) ولكن في هذا الخفي بالضبط تضع النفس الإنسانية مثلها الأعلى وآمالها، وبصبر لم تستطع الإخفاقات العريقة أن تفلّ منه كانت تصطدم دون توقف بعالم الأسطورة غير المنتهك بعد بقصد أن تكتشف فيه أصل الأشياء وسرّ قدرها. و لأنها عجزت عن دخوله تمكنت أخيرا من أن تعمّره بأحلامها.

لا ينبغي أن نعلن عبثية الكثير من الجهود، فالمعتقدات التي نتجت عنها حملت السلوى إلى الأجيال البشرية وأنارت حياتهم. وقد

أخذ العلم الذي كان متعصبا بعض الشيء في السابق، يحترم اليوم المفاهيم الغريبة عن مملكته. العلم والإيمان، العقل والعاطفة ينتمون إلى ميادين غير قادرة على التداخل فيما بينها لأنهم لا يحكون اللغة ذاتها فيها.

وأنا لا أعرف إذا كان العالم الذي سيعالج الموضع ذاته بعد ألف عام سوف يصطدم بالمشكلات ذاتها التي نصطدم بها اليوم، وأنه سيمكنه قول أي شيء محدد عن السبب الأول للظواهر. سوف يشير دون شك إلى آلهة جدد وإلى معتقدات جديدة تهيمن على الفكر البشري الذي لن يستطيع الاستغناء عنها. إن المعتقدات الوهمية ستظل دائما المولدة للآمال العريضة، لقد أنجبت الآلهة عبر العصور وتنجب السحر حاليا، الفرع الأخير للإيمان الديني الذي لا يموت على الإطلاق.

الخاتمة

كانت إحدى المسائل الجوهرية المطروحة في بداية هذا الكتاب هي معرفة كيف أن المعتقدات التي لا يسع أية مناقشة عقلية الدفاع عنها، كانت مقبولة دون صعوبة لدى العلماء الأكثر تنورا في جميع العصور. وبمقدار ما اعتبر علم النفس أن الإيمان إرادي وعقلي ظلّت دراسة مثل هذه المسألة عصية على المقاربة.

تفكيك لحمة العناصر المولدة للإيمان، إثبات أنها لاواعية، ومتكونة تحت تأثير العوامل الدينية والعاطفية غير الخاضعة للعقل والإرادة، هذا ما كان يعني طرح الحل المطلوب بخطوطه العريضة.

بيد أنَّ هذا التفسير ظلَّ ناقصا. إذا كان العقل لا يخلق الاعتقاد فإنه يستطيع على الأقل مناقشته والكشف عن الجوانب المغلوطة فيه. لماذا مع ذلك، وعلى الرغم من الأدلة القاطعة ينجح الاعتقاد في فرض ذاته؟

لقد شرحنا ذلك عندما أثبتنا الدور الأساسي الذي تمارسه على اللاوعي بعض العوامل: الهيبة، التوكيد، التكرار، الإيحاء، والعدوى. ولأنها مستقلة عن العقل تعمل ضده بسهولة وتمنعه من إقرار البداهة ذاتها.

إن سلطة هذه التأثيرات في نشأة المعتقدات أثبتتها نتائج تأثيرها على الأشخاص الأكثر ثقافة.. فقد رأينا علماء فيزياء مجربين يدرسون تجريبيا إشعاعات خلقها الإيحاء فقط في عقولهم وعلماء أكاديميين يصوتون لمنح جائزة قيمة لاكتشاف تبخر فجأة يوم توقف في الحال العلماء المنتزعون من تأثير الإيحاء عن رؤية شبح يخلقه هذا الإيحاء. وبينت أمثلة أخرى كم كانت كثيرة الحوادث المشابهة.

الفرق الوحيد الحقيقي بين اعتقاد علمي، فرضته العوامل الموصوفة، والاعتقادات الدينية أو السياسية، أو الأرواحية، المفروضة بالآلية ذاتها، هو أنه في الموضوع العلمي يُزال الخطأ بسرعة كبيرة من خلال إحلال المعرفة محل الاعتقاد. أما بالنسبة لليقين المبني على عناصر عاطفية أو دينية، وحيث تستحيل أية إمكانية تحقق فورية، فإن الملاحظة، والعقل وحتى التجربة يبقون على العكس دون تأثير تقريبا. لقد استطعنا أن نفسِّر من خلال مثال بعض الاعتقادات الأرواحية، كيف أنه في الموضوع الديني لم تكن السذاجة، سواء كان المرء عالما أم جاهلا، تقف عند حدّ. وهذا التأكيد يبدو متسامحا مع كل الخرافات التي دونها التاريخ.

وعندما بينت بواسطة حوادث محددة كيف أن علماء أجلاء يتحولون إلى معتقدات ذات مستوى عقلي موازٍ لمستوى أكثر الروايات الميثيولوجية أسطورية، نجحت كما آمل، في توضيح آلية ذهنية تركها علم النفس دون شرح حتى الآن.

وهكذا توصلنا إلى هذا القانون الفلسفي الهام: إن مفاهيمنا لا تمثل أصلا فكريا مشتركا بل إنها تنتمي إلى مصادر ذهنية متباينة جدا وهي تُدار من قبل أشكال من المنطق مختلفة جدا. ونتيجة هيمنة كلٍ منها وتصارعها فيما بينها ولدت أحداث التاريخ الكبرى.

وبانتظار أن يكشف العلم الحقائق الثابتة، المخفية ربما خلف ظواهر الأشياء، ينبغي أن نكتفي باليقين الذي يمكن لعقلنا بلوغه.

في الحالة الراهنة لمعارفنا ثمة ثلاثة أنظمة من الحقائق تقودنا: الحقائق العاطفية، الحقائق الدينية، الحقائق العقلية. و لأنها تصدر عن أشكال منطق مختلفة فإنه لا مقياس مشترك بينها

- انتهى -



الآراء والمعتقدات

نشوؤها وتطورها

هذا هو الكتاب الخامس في سلسلة العلوم الإنسانية التي تصدرها دار الفرقد وترى أنها ضرورية للقارئ العربي في هذه المرحلة الانتقالية، الغنية بمحتواها، والخطيرة باحتمالاتها، التي يواجهها العرب في كل أمصارهم.

نعم ما أحوجنا، اليوم خاصة، إلى هذا الكتاب الذي يدرس الآراء والمعتقدات وكيفية نشوئها وتأثيرها على حركة المجتمع، وكأنه يقول: حذارِ أن تتسلح بمعتقدات زمن مضى لمواجهة مشكلات حاضر. فالحاضر حيّ، أسباب اضطرابه فيه، وكذلك أسباب استقراره.

غوستاف لو بان، الباحث في علم نفس المجتمع، وصاحب المؤلفات الشهيرة، مثل «علم نفس الجمهور» و«الثورة الفرنسية وعلم نفس الثورات» و«علم نفس الحرب الكبرى» وغيرها، يجمع بين أدوات المعرفة الاجتماعية والنفسية في بحوثه، ربما هو الأفضل الذي عالج هذه المسألة بمنهجية علمية خالصة تساعد القارئ، العام والباحث، على دراسة هذا الكتاب بجدية واستخلاص الدروس المفيدة للتعامل مع معتقداتنا المتوارثة ترى أين العقل والحكمة فيها وأين المؤثرات الأخرى.

إن دار الفرقد متأكدة من أن القارئ سيجد في هذا الكتاب ما يبحث عنه في هذا الفرع المعرفي، وأنها تشعل شمعة تضيء طريق الجيل الثائر إلى برّ الأمان.

دار الفرقد
للطباعة والنشر - دمشق - سوريا